دراسات استراتيجية

NRLS

مركز روج آفا للدراسات الإستراتيجية

مجلة فصلية تصدر من مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية - العدد 5-6 صيف وخريف 2021

الإرهاب، التطرف، والفوضى الخلاقة

- عقيدة القتال لدى الكرد
- المعارضة السورية
- السياسة الدفاعية للمعارضة السورية
- الجفاف في غرب كردستان

رئيس التحرير : طـه خليل

المحررون:

د.أحمد سينو - نذير صالح - منذر محمد

التصميم: آزاد محمد - احمد ملا

تتم كافة المراسلات باسم رئاسة التحرير على البريد الالكتروني التالي:

nrls@nrlsrojava.com

لزيارة الموقع الالكتروني:

www.nrls.net

منشورات مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية NRLS

حقوق الطبع والنشر محفوظة

العددان 5-6 صيف وخريف 2021

كلمة العدد

يمر الشرق الأوسط منذ سنوات بهزات مفصلية، هي عبارة عن ارتدادات لسياسات وممارسات مورست على مدى سني ما تسمى ب " بعد الاستقلال "، فمعظم دول الشرق الأوسط (استقلت) كهبة او بعد مقايضات بين المحتلين أنفسهم، ولم تكن هناك ثورات حقيقية بالمعنى الشامل للثورات، خلا بعض المناوشات والمعارك التي قام بها بعض " الثوار " ولم تكن الحقيقة الا عبارة عن احداث ارباكات بسيطة، أو إشارات للمحتلين (لا سيما من الفرنسيين والإنكليز) انهم غير مرغوب بهم في هذه البلاد، فلا السوريون ولا العراقيون ولا اللبنانيون حرروا بلادهم بقوة السلاح والثورة، (كما في الجزائر مثلا.)

لهذا ظلت بلدان الشرق الأوسط بعد استقلالها محتلة من قبل جماعات (عسكرية محلية على الأغلب) أذاقت شعوبها الويلات، وأكثر مما قام به المستعمران المذكوران سابقا.

وعلى مدى عدة عقود قامت السلطات الحاكمة في بلدانها بتحويل هذه البلاد لحدائق خلفية لنفس المستعمرين، مقابل بعض السرقات التي يقومون بها من قوت شعوبهم، وحريتهم وكرامتهم، لهذا ولا عجب ان يشعل الثورات (ما سميت بثورات الربيع العربي) أشخاص هامشيون أو ما سميوا في الادبيات اليسارية ب " حثالة البروليتاريا "، فترى لو لم تقم الشرطية التونسية بصفع بائع الخضار البوعزيزي، وإهانته، هل كانت ستبدأ شعلة الثورة في تونس ضد نظام بن علي.؟ وكذلك الاحداث او ما سميت فيما بعد بالثورات في كل من : مصر ليبيا وسوريا.؟

بالطبع لا يمكن استسهال الموضوع بهذا الشكل، فما حدث ويحدث انما كان نتيجة حتمية للقمع الذي مورس ضد كرامة الشعوب وحريتها في هذا البلد " المستقل " او ذاك، ولكن المصيبة التي جلبها " الثوار" او الذين قاموا بالثورات لنهم لم يكونوا قد استعدوا لها، لا تنظيما ولا فكرا ودون استراتيجية واضحة، ولهذا أيضا تحول الشرق كله وفيما بعد العالم الى بؤر للإرهاب والقتل والدمار، والتخريب، والتم على " الطريدة" - بحسب وصف وزير الخارجية القطري السايق حمد بن جبر - كل شذاذ الآفاق وحاملي الفكر المتطرف واستندوا على آيات قرآنية مر عليها قرون من الغبار والضياع والتشتت، حتى صار الإرهاب صفة تلازم الشرق أوسطي والمغاربي أينما اتجه واينما حل، ليعود الجميع في قرارة انفسهم بالعودة ولو من باب التحسر والامنيات الى عهد " الدولة المستقلة" وحكامها من حراس الاستعمار.

في هذا العدد المزدوج من مجلتنا حاولنا تسليط الضوء على موضوع الإرهاب والتطرف وجوانبه العديدة، لما له من تماس يومي مع حياتنا التي لم تعد حياة الا من باب المجاز.

رئيس التحرير

عقيدة القتال لدى الكرد

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

مقدمة.

أصبح القتال في العصر الحديث عبارة عن تناحر بين القيم الفكرية والمعنوية للخصمين أكثر من كونه عنفاً طبيعياً في سبيل الحماية وتأمين الغذاء والتناسل؛ لذا فقد خرج العنف من إطاره الطبيعي إلى إطار براغماتي ذو نزعة عدوانية تدميرية، الأمر الذي فرض على البشر تطوير عقائدهم العسكرية بما يمكنهم من مواجهة هذا العنف ومرة أخرى في سبيل تأمين أمنهم الإنساني؛ وهذا ما يشكل أساس الحرب التي يعتبرها الجنرال كلاوزفيتز نزاع بين مصالح كبرى يسويها الدم؛ حيث يعتبر السياسة بمثابة الرحم لها، ويعتبر الحرب أداة من أدوات السياسية، فهي سياسة تحمل سيفاً بدلاً من القلم. والحرب ليست سوى تدميراً متبادلاً، كما وتعتبر القوى المعنوية التي تبرز في خضمها الروح التي تطبع الحرب بطابعها؛ على الرغم من ذلك يعتبر الدفاع هدف الحرب النهائي. يبدو أن هذا الأمر يشكل محور عقيدة القتال في العصر الحديث.

الكرد كغيرهم من شعوب العالم يمتلكون عقائد عسكرية وقتالية خاصة بهم؛ ووطنهم كردستان تعتبر جنة الشرق وبلاد الأبطال ومقصد الجبابرة الغزاة. يكاد معظم الباحثين يتفقون على أن الكرد شعب جبلي عريق ومحارب، يقاوم بعناد كل سلطة حاولت أو تحاول اخضاعه؛ إلا أنهم لم يستطيعوا الاندماج في كيان سياسي واحد؛ قد يعود سبب ذلك إلى سيكولوجيا الجبال التي أثرت في عواطفهم وذهنياتهم، وهناك أيضاً حَميّة التنافس ذات النزعة القبلية أو العقائدية التي تعدّ سبباً للنزاعات المستمرة بين المجتمعات الكردية منذ آلاف السنين؛ ارتقت بعضها إلى مستوى النزاع الدموي؛ الأمر الذي أدى إلى فقدان المقدرة على رصّ الصفوف لمقاومة الغزاة والتحرر من المستبدين. لا تزال كردستان تعاني من سطوة هذا النزاع الذي يدعم احتلالها من قبل الأنظمة الاستبدادية إلى الدرجة التي افترض فيها البروفيسور التركي اسماعيل بيشكجي أن كردستان مستعمرة دولية.

شهدت المرحلة التي تلت الحرب العالمية الأولى تحولات سياسية وثقافية كبرى في الشرق الأوسط والعالم؛ أتاحت فرصة لبعض الشعوب للتحرر من الاستبداد وتحرير أوطانها؛ بيد أن الثورات والانتفاضات الكردية في هذا السياق لم تستطع تحقيق الحلم الكردي في الحرية والاستقلال والسلام؛ يعزو البعض سبب ذلك إلى النزاع المحتدم بين البعض من الكرد، والمتحرض بفعل الخصومات القبلية أو العقائدية؛ يبدو أنّ هذا الأمر منوط بشكل رئيسي بفقدان الكرد لعقيدة قتال واحدة، وبالتالي عدم بروز قادة استراتيجيين ذوي عبقرية حربية كبيرة، خاصة في عصر يشهد تطوراً تكنولوجياً مذهلاً لأدوات البطش والعدوان.

في هذا الإطار يبدو من الأهمية الاستراتيجية قراءة وتقييم مقومات عقيدة القتال لدى الكرد نظراً لارتباطها المباشر بالتوحد أو الانقسام الذي تشهده الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية الكردية؛ ونظراً لافتقار المكتبة العسكرية الكردية إلى أبحاث ودراسات متطورة في المجال العسكري وفي المفاهيم المتعلقة به، سيكون من المفيد البحث وقراءة أفكار عدد من القادة العسكريين الكرد وآراء بعض الباحثين والمفكرين العسكريين العالميين، وتقييم أفكارهم وتقديم خلاصتها في سياق قراءة جديدة لعقيدة القتال الكردية، بالإضافة إلى الاستفادة من المعلومات المتوفرة بحكم التماس المباشر مع عدد من مقاتلي روجآفا ومعايشة بعض الاعتداءات التي تعرضت لها بعض مناطقها، إلى جانب الاستفادة من الآراء والمعلومات التي برزت في سياق المنتديين الدوليين بخصوص كل من (التطهير العرقي والتغيير الديمغرافي في عفرين) و(المنتدى الدولي حول داعش/الأبعاد، التحديات، استراتيجيات المواجهة) الذي أقامهما مركز روجآفا للدراسات الاستراتيجية NRLS في إقليم الجزيرة عامي 2018م و2019م؛ علماً أنّ هذا البحث بشكل عام لا يسعه التعمق في الحياة العسكرية الكردية التي يقدر عمرها بحوالي 4000 سنة، لذلك سيكون التركيز على بعض المواضيع التي تبدو مهمة للبحث؛ وذلك بغرض بلورة رؤية عامة لتوحيد الصف العسكري الكردي عبر إبراز عقيدة قتال واحدة على أسس الهدف الاستراتيجي الواحد والمشترك المتمحور حول الحرية والديمقراطية لكردستان، ومقاومة العدو الواحد لجميع الكرد، وذلك في إطار ميثاق شرفٍ وطني كردستاني، مع تركيز الدراسة في بعض محاورها على روجآفا وما تخللتها من تجربة سياسية وعسكرية حديثة نسبياً.

أولاً- مفهوم عقيدة القتال.

شهدت مجالات العلوم الإنسانية والطبيعية والتجريبية في العصر الحديث ثورة في المصطلحات العلمية، والتي تصاعدت بشكل متواتر في القرن العشرين وبعده، حيث استطاعت اختصار الكثير من المفاهيم في مصطلحات معبرة وشاملة، مدعمة بالعشرات من المعاجم والقواميس التي تعرّفها، وكان للقطاع العسكري في هذه المجالات نصيبه من المصطلحات، حيث هناك المئات منها كالجغرافيا العسكرية والعقيدة العسكرية والأمن الدفاعي، والاستراتيجيات والتكتيكات العسكرية، والضربة الاستباقية وعقيدة القتال وغيرها؛ علماً أنّ معظم هذه المصطلحات تمت صياغتها من قبل المفكرين الاستراتيجيين في العالم الغربي (أوروبا وأمريكا)، وتمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم وفقاً للتفسير أو لوجهة النظر المحلية لكل ثقافة؛ علماً أنّ هؤلاء المفكرين تأثروا بدورهم بالتراث العسكري التاريخي للمجتمعات البشرية، ويعد كتاب فن الحرب لـ سن تزو (عمره أكثر من 2000 عام) وتجارب مشاهير القادة العسكريين في التاريخ، مصادر رئيسية لتطوير الفكر العسكري الحديث.

بما أن العالم يعيش الكثير من القلاقل السياسية والاقتصادية فإنّ معظم الموارد الوطنية للبلدان تصب في خدمة تقوية قواتها المسلحة كاستراتيجية دفاعية متعلقة بقضية وجودية لمعظم المجتمعات البشرية. هذا الأمر ليس وليد هذا القرن بل يعود بداياته بحسب المعايير الزمنية إلى أواخر العصر النيوليثي (حوالي 5000 ق.م) كنتيجة للتحولات المناخية والتطورات الفكرية للبشر، حيث فسّر

بعض الباحثين أشكال الحرب الأولى[1] بكونها عبارة عن عمليات صيد يقوم بها الإنسان البدائي ضد أخيه الإنسان وامتازت بطابع وحشي، بغرض استعباده واستخدامه في متطلبات الزراعة والبناء بشكل أساسي والاستحواذ على ممتلكاته وعلى الأشياء العزيزة عليه؛ بينما يصف الباحث (دياكوف)[2] حياة الإنسان البدائي بالقاسية من ناحية، حيث التعرض المستمر لهجمات الكائنات الأخرى التي لم يستطيع مجاراة العديد منها بالركض أو بالقوة الجسدية، فالموت كان يترصده بين مخالب الحيوانات أو لدى هياج الظواهر الطبيعية؛ وبالبائسة من ناحية أخرى حيث كان الجوع والبرد يترصدانه دائماً؛ إلا أنه بفضل تنامي وعيه وصناعته للأدوات من الرماح القصيرة ذات الرأس العاجي أو الصواني، والخناجر من القرون وتطويع النار وغير ذلك استطاع أن يؤمن لنفسه حماية جيدة، وتعزيز قدرته على تلبية متطلباته الوجودية في تأمين الدفاع والتناسل والغذاء، التي تبدو أنها تشكل مُقوّمات جوهرية لعقيدة القتال.

بالنسبة لكبار المفكرين العسكريين يقدم الجنرال كلاوزفيتز على سبيل المثال في كتابه (الوجيز في الحرب)[3] أفكاراً عن مفهوم عقيدة القتال دون أن يشير إليها كمصطلح، وذلك من خلال التطرق إلى القوى المعنوية وأثرها كخصائص أساسية ملازمة لطبيعة النشاط الحربي؛ حيث يعتبر القتال عملاً من أعمال العنف وتعبيراً خارجياً عن مشاعر عدائية؛ والقتال الناجح برأيه يتم باستخدام القوة البدنية والفكرية بشكلٍ متوازي؛ ويعتبر من أهم محفزاتها أو مقوماتها كلاً من الشراسة، لأن طيبة النفس في القتال هو تبديد للقوة وخطأ كبير؛ والشعور بالعداء والنية العدوانية تجاه الخصم مصدر الخطر؛ والشجاعة كقوة نفس سامية والتي تعد مظهراً عن كلٍ من الجسارة والثقة بالنجاح والإقدام والجرأة والحزم، ويعتبر أن للشجاعة نوعان، الشجاعة الشخصية والشجاعة أمام الضمير؛ ويقسم الشجاعة الشخصية إلى نوعين، النوع الأول يتعلق بطبع الفرد ومزاجه في سياق الاستهانة بالمخاطر وازدراء الموت أو المهارة في التعامل مع مختلف الأخطار، ويعتبرها جزء من طبيعة الفرد؛ أما النوع الثاني فيتعلق بالحماسة والطموح المكرس في خدمة العقيدة أو الأيديولوجيا، الروحانية أو السياسية؛ ويؤدي توافق هذين النوعين واقترانهما إلى أكمل أنواع الشجاعة؛ وهناك أيضاً الحقد والغضب كطاقة اندفاعية متأججة، وكذلك الطموح للشرف والمجد يندرجان أيضاً في هذا السياق؛ إلا أنه يعتبر الذكاء في استخدام القوة بصورة أكثر فاعلية شرط أساسي في القتال الناجح، كون الذكاء في القتال يوفر الكثير من الطاقة والوقت والخسائر.

كما ويعتبر جوهر الروح الحربية كلاً من الثبات والمقاومة تحت النيران الحارقة والمدمرة، وعدم الانسياق إلى المخاوف الوهمية، وتحمل الحرمان والجهد المستمرين، والاستعداد للتضحية بالذات، واحترام القادة والرفاق والثقة بهم، والإيمان بشرعية القتال وتحقيق النصر؛ كون القتال يتطلب جهداً وآلاماً، بدنية ونفسية، وكأنه سباحة في بحر من الأخطار والشكوك والآلام، وعلى من

[1] اللواء الطيار الركن عبد الرحمن حسن الشهري؛ تطور العقائد والاستراتيجيات العسكرية؛ الطبعة الأولى 2003؛ الناشر المؤلف- الرياض/ المملكة العربية السعودية؛ ص25.

[2] ف. دياكوف/ س. كوفاليف؛ الحضارات القديمة (الجزء الأول)؛ ترجمة: نسيم واكيم اليازجي؛ الطبعة الأولى 2000؛ الناشر: دار علاء الدين/ دمشق؛ ص19.

[3] للمزيد راجع: الجنرال كارل فون كلاوزفيتز؛ الوجيز في الحرب؛ ترجمة: أكرم ديري/ الهيثم الأيوبي؛ الطبعة الثانية- 1988م؛ الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت.

يشاء المقاومة والصمود فيها أن يملك نوعاً من القوة البدنية والمعنوية القادرة على تحمل المشاق والآلام، ويتطلب ذكاء وشجاعة وتدابير مدروسة؛ ويعد التعاون بين الشجاعة والذكاء مصدراً لشجاعة الفكر والتصميم الكفيلتان بالتغلب على الشك السلبي الذي يبرز في اللحظات الحرجة من القتال، حيث تثير المخاطر ومناظر الألم مشاعر تسيطر بسهولة على القناعات الفكرية وتحرر الانفعالات الجامحة؛ حيث يطيع المقاتل في هذه اللحظات أحاسيسه أكثر مما يطيع أفكاره. كما ويتطلب القتال أيضاً تقدير الخصم تقديراً صحيحاً، والشجاعة والجرأة في الانقضاض السريع وبفعالية متصاعدة في الدفاع أو الهجوم؛ وهذا ما يعد أحد مسببات النصر ويشكل تعبيراً مباشراً للقوة المعنوية المعبرة عن صلابة الفكر السديد والإرادة، وقوة الشخصية، وطاقة الصمود والحزم؛ يبدو أن ما تم ذكره تعبر بشكل واضح عن مفهوم عقيدة القتال بالاستناد على آراء الجنرال كلاوزفيتز.

بالنسبة للكرد في العصر الحديث يفسر أبرز القادة العسكريين لحركة حرية كردستان عقيدة القتال من خلال تعريف العنف وفقاً للبراديغما التي يعتمدها القائد الكردي أوجلان، وذلك من خلال الإشارة إلى أنّ بدايات تبلور عقيدة القتال كانت مع بدايات نشوء الكلانات/ Clans البشرية حيث لم يكن هناك قتال وحروب، بل كان هناك الدفاع والحماية الذاتية بدافع غريزي يستند على العنف بهدف الاستمرار في الحياة عبر تأمين الحماية والغذاء والتناسل؛ حيث تعد عمليات الصيد وجمع الثمار شكلاً من أشكال العنف ضد كائنات أخرى، وكل كائن يستخدم نوعاً من العنف وبأسلوب ووسيلة معينة في الدفاع عن نفسه ضد الكائنات المفترسة نسبياً وبنفس الوقت في افتراس كائنات أخرى، لذلك يعد العنف قانون من قوانين الحياة الطبيعية، وبما أن البشر يفتقرون إلى أسلحة طبيعية لتأمين حياتهم فقد شكّل كلٍ من الفكر والمجتمع أو الكلان مصدراً للحماية من العنف المعادي، وطاقة لتوجيه العنف الذاتي لمصلحة المجتمع؛ تجلى ذلك في كلٍ من أعمال الحماية والصيد والزراعة التي كانت تتم بشكل جماعي ويتم التقاسم بعدالة ومساواة. إنّ العنف في سبيل الحماية الذاتية هو شيء مشروع وطبيعي وكل ما يقع خارج سياق هذا الأمر يعتبر بربرية كون الحماية الذاتية يعني الحق في الحياة وهو حق لكل إنسان ومجتمع وشعب. كما أن العنف يعد نوعاً من القتال له أسلوبه وأدواته وأهدافه لذلك يشكل دوافع العنف الطاقة الكامنة لعقيدة القتال لدى الإنسان. مع انهيار النظام الأمومي في أواخر العصر النيوليثي والتحولات المناخية والزيادة النسبية للسكان وتنامي مشاعر الغيرة والجشع بين البشر وبروز فكرة الإله والعباد، أخذ العنف منحى آخر، وأصبح يُسخّر في افتراس طاقات بشر آخرين لزيادة الإنتاج الزراعي وبناء الصروح في سياق ما يعرف بالمجتمع الطبقي أو العبودي، وفي سبيل تشريع العنف غير المبرر من وجهة النظر الإنسانية تم وضع قوانين لتنظيمها بالاستناد على الميثولوجيا والأديان الأمر الذي خلق أرضية لتأسيس سلطة الدول وليصبح للعنف مؤسساته ونظامه الخاص، ومع تطور قدرة الرجل القتالية بتطور أدوات العنف في العصور المعدنية حيث أصبحت أكثر بطشاً وشراسة كالسيوف والفؤوس والخناجر والرماح وغيرها، برزت الحاجة إلى وجود أشخاص مختصين في استخدامها لتبرز طبقة المحاربين التي شكلت الأساس لتأسيس الجيش من خلال الاستخدام المنظم والموجه للعنف، والذي يبدو أنه تحول إلى وسيلة لتحطيم إرادة الإنسان والسيطرة على الأرض والمكان وتطور التسلط والاستعباد والاعتداء على الحياة ونهب الثقافات والثروات؛ لذلك يمكن أن نميز بين نوعين من

العنف بحسب وجهة نظر هؤلاء القادة، العنف الطبيعي والعنف القذر؛ فالعنف الطبيعي مكرس في سبيل الحياة الحرة، وصون الشرف والكرامة والثقافة الاجتماعية، وتحقيق المساواة والديمقراطية والعدالة، وتبدو صفة الدفاع الذاتي معبرة عنها بشكل كبير؛ أما العنف القذر فهو مكرس في سبيل قتل الإنسان أو إرضاخه من أجل مصالح مادية وتبدو صفة التوحش معبرة عنه بشكل كبير. لذا يحدد هذين النوعين من العنف طبيعة عقيدة القتال الخاصة بكل فرد ومجموعة، فهي الطاقة المتحكمة بالحروب والمعارك؛ لذلك فأن عقيدة القتال تحتاج إلى أسس عقائدية وثقافية، ومعرفة وخبرة. ترى هذه البراديغما أن المجتمع الطبيعي لا يزال يمكن تلمسه في كردستان، وعلى هذا الأساس تم صياغة عقيدة قتال جديدة للكرد خلال الأربعين السنة الماضية تستند على الدفاع الذاتي المشروع، وقد أثبتت فعاليتها من خلال الصمود أمام أقوى عقيدة قتال في التاريخ التي ترتكز على الجهاد العنفي، إلى درجة قيام العديد من المقاتلين الكرد بتنفيذ عمليات فدائية ذات طابع دفاعي أذهلت عناصر التنظيمات المتطرفة نفسها كما قال لنا بعض مقاتليها؛ وقد تحولت عقيدة الدفاع الذاتي إلى مادة أساسية في أول ميثاق للعقد الاجتماعي الخاص بالإدارة الذاتية في شمال وشرق سوريا.

بشكلٍ عام تعد عقيدة القتال جزء رئيسي من العقيدة العسكرية، بالتأكيد لكل كيان عقيدته العسكرية التي تحدد كينونة قواته المسلحة وكيفية إدارة هياكلها التنظيمية وأهدافها وعقيدتها القتالية وغير ذلك. نال مصطلح العقيدة العسكرية (Military Doctrine) الكثير من الاهتمام من قبل المفكرين العسكريين، ويكاد معظمها تتوافق مع تعريف رئيسي تم صياغته من قبل الخبراء في حلف الناتو[4] والذي ينص "بأنها مجموعة المبادئ الأساسية التي توجه القوات العسكرية لتنفيذ مهامها وتحقيق أهدافها." على الرغم من أن العقيدة لها مبادئ ثابتة، إلا أنها تخضع للمراجعة باستمرار لمواجهة التحديات والتهديدات والأخطار المستجدة نسبياً، وبالتالي فهي بطبيعتها تتطور باستمرار كونها تعد الجسر بين الفكر والعمل؛ أي بمعنى إدارة الشؤون العسكرية وفق خبرة علمية وعملية في أوقات السلم والحرب. للعقيدة العسكرية الكثير من التشعبات أبرزها العقيدة القتالية (Fighting Doctrine) وعقيدة القتال (Combat Doctrine). على الرغم من التشابه الظاهر لهذين المصطلحين إلا أن هناك تمايز في مفهوم كل منهما فالعقيدة القتالية تتضمن المبادئ التي تنظم المستوى العملياتي للقوات العسكرية والتي تعني[5] الاستخدام المدروس للقوات العسكرية لتحقيق الأهداف الاستراتيجية من خلال التخطيط والتصميم، وتنظيم وتكامل وتنفيذ العمليات العسكرية بعد تحديد الأهداف واستخدام الموارد اللازمة واتخاذ الإجراءات المناسبة، بدون الانخراط في أدق تفاصيل التنفيذ، وبالتالي فهي تحدد الأسلوب الذي تتبعه القوات لتنفيذ مهامها القتالية المتلائمة مع قدراتها العسكرية (البشرية والتسليحية واللوجستية) بشكل يضمن تدمير القوات المعادية؛ بينما عقيدة القتال تتضمن المبادئ التي تنظم المستوى التكتيكي (التعبوي) للقوات

[4] NATO STANDARDIZATION OFFICE (NSO); ALLIED JOINT DOCTRINE (AJP-01)/ NATO STANDARD; ALLIED JOINT PUBLICATION; Edition E Version 1(FEBRUARY 2017: NATO UNCLASSIFIED publication; ALLIED JOINT DOCTRINE/ AJP-01(D); 21 December 2010; CMDR Centre of Excellence;

[5] MG (ret) Kees Homan; Doctrine; CLINGENDAEL INSTITUTE (INDEPENDENT THINK TANK & DIPLOMATIC ACADEMY)

العسكرية والتي تعني[6] المستوى الذي يحدث فيه القتال المباشر بالفعل، ويحدد سلوك مختلف القوات أثناء المعركة وإدارة الخدمات اللوجستية لتقديم الدعم المباشر للقوات المشاركة في القتال بهدف تحقيق النجاح في المعركة. تبدو المفاهيم المذكورة خاصة بالجيوش النظامية، إلا أنها تشمل أيضاً الكيانات العسكرية الأصغر نسبياً، كونها تتعلق بالتخطيط للعمليات العسكرية وتحديد الأهداف ومهام المقاتلين، وتنظم السلوكيات الواجب أتباعها في المعارك. بشكل عام هناك صلة وثيقة بين عقيدة القتال للفرد والعقيدة العسكرية للكيان الذي يعيش في كنفه، سواء أكان عشيرة أو قرية أو دولة أو مجتمع عقائدي أو غير ذلك؛ حيث تشكل عقيدة القتال محور الانتصارات العسكرية التي شهدها التاريخ فمثلاً قادة مثل كيخسرو الميدي وهانيبال وسبارتاكوس كان الدافع للتحرر من العبودية المقوم الأساسي لعقيدة قتالهم كقادة ومقاتلين، أما الاسكندر ومشاهير قادة الجيوش الإسلامية ونابليون فقد كان الدافع ترسيخ معتقداتهم وثقافاتهم التي يرونها أرقى الأفكار الإنسانية المقوم الأساسي لعقيدة قتالهم وهناك العشرات من النماذج الأخرى.

الخصائص الأساسية لعقيدة القتال.

القتال نشاط مرهق، يُستنفر فيه غريزياً كامل الطاقات البدنية والنفسية والفكرية، ويحتاج إلى عقيدة تحافظ على العزم والمعنويات وتحمل المشقّات في الحرب لهزيمة الخصم أو صدّه؛ وقد كان لكل ثقافة عقيدتها في الحرب والتي تنوعت بين الدفاع والهجوم. إنّ جوهر عقيدة القتال في المستوى الفردي يتمحور حول سؤالين، لماذا أقاتل؟ وكيف سأقاتل؟ وتبدو الأجوبة متركزة بشكل أساسي على الدوافع التي بموجبها يقبل الفرد تلقي التدريبات العسكرية وإطاعة الأوامر والتعليمات، وحمل السلاح وخوض القتال، وصياغة هدف مبدئي يمكن أن يتقبل بموجبه التعرض من أجله للقتل أو الإصابة أو عاهة وحتى فقدان الممتلكات، أو إلحاق الأذى بأناس آخرين يوصفون بالأعداء؛ فمثلاً في العقائد الدينية كانت ولا تزال عقيدة القتال لديها تتمحور حول الجهاد في سبيل إرضاء معبودها ونيل الامتيازات التي وُعِدَ بها من قبله؛ حيث شكل الدين أحياناً مرجعية لتبرير العنف والبطش السادي الممنهج من قبل بعض ملوك العصور السابقة، وأحياناً أخرى مرجعية لتبرير الثورة في وجه المستبدين؛ بينما في الدول القومية كان التركيز على حماية الدولة كضامن نسبي للمصالح الاقتصادية، وفي الكيانات العشائرية كان التركيز على حماية العشيرة وممتلكاتها، ومن الدوافع الأخرى الحماس الثوري والرغبة في التحرر من الاستبداد من وجهة نظر المنتفضين، وهناك أيضاً الثأر لمحو عارٍ أو تحقيق عدالة نسبية أو تحقيق أمجاد شخصية أو حماية الشرف والكرامة، وقد تكون الدوافع مادية أي تحويل القتال إلى مهنة لكسب المال والذي يعرف في العصر الحديث بمهنة المرتزقة حيث يتم القتال في سبيل الحصول على الغنائم والجوائز؛ كما وتتضمن عقيدة القتال السلوكيات المتبعة لحماية الذات وإلحاق الضرر والأذى بالخصم خاصة تلك المتعلقة بمظهر وعدة المقاتل؛ وهناك العديد من أساليب القتال كالكر والفر، والاشتباك عن بعد عن طريق الأسلحة ذات الرمي المستقيم، والالتحام القتالي المباشر، والحصار، وحرب العصابات(Guerrilla warfare) وغيرها؛ هذه الأمور عبارة عن تسلسل نسبي من عمليات الدفاع والهجوم والتدمير، لذا كانت تفرض على من سيصبح مقاتلاً أتباع تدريبات معينة ومناسبة لكل أسلوب، الأمر الذي حوّلها

[6] نفس المرجع السابق.

إلى جزء أساسي من عقيدة القتال. وهناك فرق كبير بين كون الفرد قاتلاً (كالمرتزقة) وكونه مقاتلاً فالأخير يحدده مدى الالتزام الأخلاقي للفرد تجاه الطبيعة البشرية، وفي العصر الحديث سعت الكثير من المؤسسات المدنية في المستوى الدولي التي تهتم نسبياً بقيمة الحياة إلى وضع ضوابط وقواعد على شكل مبادئ واتفاقيات لتعزيز فكرة الفرد المقاتل في العقيدة القتالية لمعظم الكيانات العسكرية.

وبالتالي يمكننا تقديم تفسيراً لعقيدة القتال بالاستناد على ما تم ذكره بكونها تعبر عن السلوكيات والعواطف والتدابير التي تُمكّن المقاتل من خوض القتال بمعنويات عالية لتحقيق أهدافاً يبرر من أجلها المشقات والأذى التي يتسبب بهما (التي يتعرض لها أو يُلحقها بالخصم)؛ وللعقيدة الروحية والفكرية التي يتبناها المجتمع الذي يدافع عنه دورٌ مؤثر في صياغة عقيدة القتال؛ وفقدانها أو ضعفها تعد أحد العوامل الرئيسية للهزيمة وحتى الانحراف إلى الخيانة. ويشكل كل من الدافع إلى القتال والروح القتالية وأسلوب القتال، الأركان أو الأبعاد الرئيسية لعقيدة القتال؛ فهدف القتال التدمير أو الإذلال أو الاحتلال أو السلب أو الدفاع؛ بينما الروح القتالية تجسدها المعنويات والشجاعة والقدرة على تحمل مشاق القتال والثبات بشكلٍ مدروس فيه كما وتعد طريقة التعامل مع الأسرى، ومع نساء وأطفال وعجائز العدو المفترض، ومستوى البطش والعدوانية من العوامل المؤثرة فيه؛ بينما أسلوب القتال فيتعلق بالسلوك المتبع للتعامل مع العدو في المعركة من حيث طريقة القتال وإدارة المواجهة وقدرة التعامل البنّاء مع الكمائن والحيل الغادرة، وتنفيذ عمليات الهجوم والدفاع والانسحاب. بشكلٍ عام لن يستطيع أحد الاستمرار في القتال بدون عقيدة؛ وتبلغ عقيدة القتال ذروتها لدى القادة كون القيادة تعني احتراف القتال، أي أن القائد يقاتل ويدير القتال بنفس الوقت. كما ويمكن التأثير في عقيدة القتال وإعادة صياغتها بالاستناد على الطاقة الإغرائية للمال أو الدين التي تغوي ذوي الإرادة الضعيفة وذلك بشكل متوازي مع الطاقة الإغرائية للتحرر من قيود سلطة المستبدين التي تستنهض الهمم لذوي الإرادة القوية، وتقدم الأزمة السورية الكثير من النماذج عن ذلك فمثلاً ترى مواطنين سوريين لم يجدوا سابقاً مانعاً في الخدمة الإلزامية للجيش السوري تحولوا فجأة في خضم الأزمة التي تمر بها البلاد إلى مقاتلين متطرفين في سبيل أهدافاً عديمة الصلة بمعاناتهم في ظل السلطة المركزية للنظام السوري ولا تقدم بنفس الوقت حلولاً عملية لمشاكلهم، وبعد سنوات من القتال يُلاحظ تحولهم إلى مرتزقة لصالح بعض القوى الإقليمية والمحلية بشكل يتعارض مع مبادئهم ويقاتلون في مناطق أخرى بعيدة عن مناطقهم، بينما يمكن ملاحظة مقاتلين ضحوا بأنفسهم في سبيل مبادئهم المتمحورة حول تحقيق عدالة نسبية ومقاومة السلطة الاستبدادية بغض النظر عن ماهية عقيدة القتال لديهم؛ وتكاد معظم القوى التنظيمات العسكرية الناشطة في الجغرافيا السورية لم تسلم من هذه الطاقة الإغرائية.

بشكلٍ عام تختلف عقيدة القتال من شخص إلى آخر تبعاً لتفسيره الظواهر والمظاهر السائدة في بيئته ومدى قابليته للتأثر بالطاقة الإغرائية للمال أو الدين أو التحرر، وتقديره للأخطار والتهديدات الواقعة أو محتملة الوقوع وكيفية التعامل معها، ونوع مزاجه ونمط شخصيته، ومستوى قدراته الفكرية ودرجة قواه البدنية؛ والأهم من كل ذلك ثقافة المجتمع الذي يعيش في كنفه، كون القوى المعنوية المتلاحمة تعوض الطاقة المفقودة في الانهاك والارهاق وتشد من أزر المقاتل؛ لذلك لا تعد

معيارا ثابتاً ونمطاً عاماً واحداً، ويبدو أنها تشكل العامل الحاسم في النصر أو الهزيمة؛ لذلك فأن الاستراتيجية الناجحة تعتمد بشكل كبير على القدرة في بلورة عقيدة قتال فعّالة ومتكاملة ومناسبة لدعم الموارد ومصادر القوة الأخرى الكفيلة بتحقيق الهدف الاستراتيجي. هنا يبرز دور القيادة والعبقرية العسكرية في تحقيق ذلك، فالحرب تكون كما يكون القائد الذي يقودها، وكما تكون النظرية التي تحكمها بحسب رأي الجنرال كلاوزفيتز[7] الذي يشير إلى أنّه "... كلما ازدادت النشاطات الحربية لدى شعب من الشعوب كلما زادت فرصة بروز عبقرية حربية من صفوفه لأنها تتعلق بالتطور الفكري والمعنوي عند الشعب بصورة عامة. وأننا نجد في شعب بدائي نزّاع إلى الحرب عدد من الرجال المقاتلين يفوق ما نصادفه في شعب متحضر، لأن جميع المقاتلين في الشعب البدائي تحفزهم روح الحرب. في حين أن معظم جماهير الشعب المتحضر تجند للقتال عند الضرورة لا بدافع ميلها الطبيعي للحرب. ولكننا لا نرى أبداً قائداً كبيراً جداً أنجبه شعب بدائي، والعبقرية الحربية عنده نادرة لأنها تتطلب تطوراً فكرياً..."، على الرغم من هذا الرأي إلا أنّ هناك بعض الشعوب البدائية انجبت عدداً من القادة العسكريين البارزين كآتيلا زعيم الهون وجنكيز خان زعيم المغول وغيرهما وذلك استناداً على مقولة "لكل قاعدة شواذ".

ثانياً- أسلاف الكرد- لمحة مختصرة.

ماهية القتال لدى الكرد.

تشير معظم المراجع والمصادر التي قام بها كبار الباحثين المهتمين بالتاريخ الكردي إلى كون الكرد من السكان الأصليين للجزء الشرقي والشمالي من الهلال الخصيب، وأكثر الأوصاف التي لازمتهم صفة الشعب المحارب، حتى أن تسمية أحد أسلافه الحوريين مشتقة من كلمة (خُرَدي)[8] والتي تعني الجندي اليقظ؛ قد يعود سبب ذلك إلى الموقع الجيوبوليتيكي والاستراتيجي المميز لبلادهم، التي جذبت ولا تزال العشرات من الغزاة الطامعين ولصوص الثقافات والثروات؛ وتبدو الجغرافيا العسكرية[9] لكردستان حيث التفاعل والتداخل بين السهول والجبال والأنهار لها دور استراتيجي في هذا السياق؛ الأمر الذي كان له تأثيره على عقيدة القتال لدى أسلاف الكرد والتي تمحورت حول الدفاع بالدرجة الأولى، احتلت فيها الجبال مكانة استراتيجية كحصون طبيعية، خاصة أنها ذات رمزية مقدسة لدى الكرد، فمثلاً تشير الأفستا إلى أن الجبال تشكلت بالتزامن مع هجوم إله الشرّ آهريمان على الأرض[10] وكثيراً ما كان سكان كردستان يلجؤون إلى الجبال

---

[7] الجنرال كارل فون كلاوزفيتز؛ الوجيز في الحرب؛ ترجمة: أكرم ديري/ الهيثم الأيوبي؛ الطبعة الثانية- 1988م؛ الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت. ص88 وص107.

[8] جرنوت فيلهلم؛ الحوريون/ تاريخهم وحضارتهم؛ ترجمة: د. فاروق إسماعيل؛ الطبعة الأولى 2000؛ الناشر: دار جدل- حلب؛ ص17.

[9] يعرّف معجم مصطلحات الجيش الأمريكي للجغرافيا العسكرية بأنها "حقل متخصص من الجغرافيا بالتعامل مع الظواهر الطبيعية والظواهر التي صنعها الانسان، والتي قد تؤثر في مسار العمليات العسكرية أو في التخطيط لها" وبالتالي تشمل دراستها الأرض بسهولها وجبالها واوديتها وتلالها والمجاري المائية والطرق والمراكز العمرانية والمناخ وغير ذلك من المعالم وبشكل خاص الأرض التي تجري عليها العمليات العسكرية... للمزيد راجع: سمير ذياب سبيتان؛ الجغرافيا العسكرية؛ الطبعة الأولى 2012؛ الناشر: الجنادرية للنشر والتوزيع؛ عمان/الأردن؛ ص18.

[10] د. خليل عبد الرحمن؛ أفستا/ الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية؛ الطبعة الثانية 2008؛ الناشر: روافد للثقافة الفنون- دمشق؛ ص802.

العالية[11] في حال تعرضهم لغارات الأعداء أو لاحتلال الأجانب أو لكوارث طبيعية، فمثلاً لدى تلاقي جيشين مكونين من مئات الألوف من الجنود على أرض كردستان بالتأكيد ستتعرض المراعي والحقول والقرى والمدن للنهب والسلب، وقد يستمر هذا الحال لأكثر من سنة لذلك كان الكرد يضطرون للنزوح إلى الجبال والعيش حياة الرحل مع معاناة كبيرة لمن تبقى في السهول في القرى والمدن؛ لذا يعتبر الباحث التاريخي مينورسكي[12] بأنّ الكرد والجبال لا يفترقان، كون مشاعر الحرية والاستقلال قوية لدى الكرد وتعد من مقوّمات الوجود الكردي؛ ولدى رصد مختلف المصادر التاريخية نجد أن المعارك والحروب التي جرت على أرض كردستان تشكل جزءاً مهماً من الأرشيف التاريخي للكرد.

قتال الجبال ذو طبيعة خاصة مرتبطة بطبيعة الجبال ذاتها الأمر الذي يفرض أساليب ووسائل قتال خاصة بها، حيث أنّ ضيق مجال الرؤية والرصد بسبب كثرة التضاريس والغطاء النباتي الكثيف أحياناً، بالإضافة إلى كثرة الحيوانات المفترسة والسامة، فرضت على الكردي العيش في حيز مكاني صغير وبالتالي الاضطرار إلى تشكيل تركيب عسكري دفاعي باستمرار. كما ويشير الجنرال كلاوزفيتز[13] في الحرب الجبلية إلى أنّ كل فرد يضطر إلى الاعتماد على نفسه؛ إذ لا يستطيع القائد أن يسيطر على كامل قواته لأن قيادة مجموع قواته شيء يتجاوز قدراته مقارنة مع السهول، ويعتبر أن لطبيعة الأرض تأثير كبير في المجال التكتيكي، وتظهر تأثيراتها في الاستراتيجية أيضاً؛ حيث تؤثر على النشاط العسكري بثلاثة خصائص، هي كحاجز يعيق التقدم، وخصائصها كعائق للنظر، والحماية التي تقدمها ضد تأثير مختلف أنواع الأسلحة؛ ويعتبر أن للنقاط المرتفعة في التضاريس تأثير كبير في الأحاسيس، عبر خلق شعور بالتفوق والأمن يشعر به كل من يقف فوق الجبل ويرى العدو عند قدميه، وشعور بالضعف والقلق ينتاب كل من يقف في أسفل الجبل؛ كما ويعزّز الجبل الدفاع بدرجة أكبر من الهجوم. أما الباحث مينورسكي[14] فيعتبر الخطر الدائم الحضور في الجغرافيا الكردية خلق لدى الكرد الشجاعة والخفة المتناهية واليقظة الدائمة، وأثر في طباعهم من خلال كل من العناد والعصبية والانفعال السريع والقسوة في الثأر من الأعداء؛ لذا كان أعدائهم يعتمدون غالباً على الغدر والخيانة والحنث بالوعد لاستدراج زعماء الكرد وتصفيتهم.

بحسب الأفستا[15] الكتاب المقدس لدى الديانة الزرادشتية كان المجتمع الآري والذي يشكل أسلاف الشعب الكردي جزءاً رئيسياً منه، ينقسم إلى ثلاث طبقات رئيسية وهي طبقة الكهنة وطبقة

---

[11] محمد أمين زكي بك؛ خلاصة تأريخ الكرد وكردستان/ من أقدم العصور التأريخية إلى الآن؛ ترجمة: محمد علي عوني؛ الطبعة الثانية- 2005؛ الناشر: دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد؛ ص103.

[12] فلاديمير مينورسكي؛ الأكراد/ ملاحظات وانطباعات- الأكراد أحفاد الميديين؛ ترجمة: د. معروف خزنه دار؛ الطبعة الأولى/1987؛ الناشر: رابطة كاوا للثقافة الكردية (السويد) ودار الكاتب (بيروت). ص23- 47.

[13] الجنرال كارل فون كلاوزفيتز؛ الوجيز في الحرب؛ ترجمة: أكرم ديري/ الهيثم الأيوبي؛ الطبعة الثانية- 1988م؛ الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت. ص322.

[14] فلاديمير مينورسكي؛ الأكراد/ ملاحظات وانطباعات- الأكراد أحفاد الميديين؛ ترجمة: د. معروف خزنه دار؛ الطبعة الأولى/1987؛ الناشر: رابطة كاوا للثقافة الكردية (السويد) ودار الكاتب (بيروت). ص96-97.

[15] د. خليل عبد الرحمن؛ أفستا/ الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية؛ الطبعة الثانية 2008؛ الناشر: روافد للثقافة الفنون- دمشق؛ ص776.

المحاربين وطبقة الفلاحين، لكل طبقة واجباتها الخاصة بها والتي تمتاز بطابع مقدس، وقد خُصّ طبقة المحاربين بواجبات هزم الأعداء وحماية بلادهم وأرضهم والمحافظة عليها آمنة وهادئة؛ بينما يقسم الباحث مينورسكي[16] العشيرة الكردية المعاصرة إلى طبقتين الأولى المحاربون وهم الرؤساء والآغاوت وأصحاب الأراضي وخدمهم وحراس القرى والمراعي، والثانية المزارعون (الرعيّة) الذين هم كنصف عبيد الأرض. بينما للكرد الحضر طبيعة اجتماعية خاصة بهم.

يبدو أن ما تم ذكره يعد العامل الأساسي في صياغة عقيدة القتال لدى أسلاف الكرد. لقد كانت كل عشيرة كردية تسيطر على مناطق لها حدود معينة متفق عليها؛ ولم يشهد الموروث الثقافي الكردي إلا نادراً على ملاحم لغزوات ومعارك على المراعي والحقول ومنابع المياه، قد يعود سبب ذلك إلى غنى المنطقة بها، وقد كان مربو الماشية ومع ازدياد اعداد ماشيتهم يحتاجون دوماً إلى توسيع أراضيهم لتأمين المراعي لذا كانوا مضطرين لدخول أراضي عشائر أخرى حيث كانت المشاكل تحل بالتوافق في الكثير من الأحيان؛ وكثيراً ما كانت هذه العشائر تندمج مع بعضها لتبرز كيانات جديدة على شكل ممالك أو إمارات تتفق على تسمية زعيم من بينهم لقيادتهم وهذا ما نجده لدى فدرالية قبائل زاغروس الكوتية[17] ومن بعدهم الحوريون وبعد حوالي ألف سنة لدى الميديين[18] ومن بعدهم الكاردوخ، ولا يزال هذا النظام قائم في العصر الحديث كاتحادات عشائر بابان وبهدينان وبوتان وملان وزيلان وغرزان وغيرهم، ساهمت بعضها في إنشاء عدد من الإمارات الكردية كإمارة أردلان وإمارة هكاري وإمارة بهدينان وإمارة سوران وإمارة بوتان التي اشتهرت بمقاومة غزوات القبائل التركمانية بقيادة سلالتي آق قوينلو وقرة قوينلو[19] في سياق استهدافها للقبائل الكردية واحتلال أراضيها؛ وقد كان لهذا الأمر دور في بروز طبقة المحاربين لدى هذه الاتحادات القديمة بالإضافة إلى قوات مدنية أطلق عليهم في العهد الميدي اسم Kara كان يتم استدعائهم في حال النفير العام عند التعرض لمخاطر كبرى تهدد البلاد، يبدو أنّ هذا النظام قد دبّ فيه الحياة مجدداً من خلال قوات حماية المجتمع HPC في روجآفا وقوات الحماية الجوهرية في شمال كردستان. لقد كان الزعماء ومن منطلق الدفاع عن مصالح كياناتهم يعملون على الهيمنة أو الدفاع عن الممرات وطرق القوافل التجارية التي تحمل الخشب والمعادن والاحجار الكريمة والمواشي والحبوب وغيرها وممرات المراعي الجبلية لقطعان المواشي؛ حيث كان هزيمة الأعداء وتأمين مصالح الرعية وزيادة ثروة القبيلة ومقاومة سلطة المحتلين تصب في تحقيق أمجاد شخصية للأمراء والقادة وبالتالي تشكل بالنسبة لهم عاملاً محفّزاً على القتال، على الرغم من ذلك لم يتمكن الزعماء الكرد من التحول إلى قادة استراتيجيين للأمة الكردية؛ لذلك يفسر الكثير من المفكرين العسكريين الكرد عجز الكرد عن إقامة كيان سياسي جامع لهم بافتقارهم إلى قادة استراتيجيين.

---

[16] فلاديمير مينورسكي؛ الأكراد/ ملاحظات وانطباعات- الأكراد أحفاد الميديين؛ ترجمة: د.معروف خزنه دار؛ الطبعة الأولى/1987؛ الناشر: رابطة كاوا للثقافة الكردية (السويد) ودار الكاتب (بيروت). ص51.

[17] صلوات كوليلموف؛ آريا القديمة وكردستان الأبدية (الكرد من أقدم الشعوب)؛ ترجمة د. اسماعيل الحصاف؛ الطبعة الأولى 2011؛ الناشر: مؤسسة بحوث والنشر موكريانى- هولير؛ ص98/ 268.

[18] د. أحمد محمود الخليل؛ مملكة ميديا؛ الطبعة الأولى- 2011م؛ الناشر: مؤسسة موكريانى للبحوث والنشر؛ أربيل؛

[19] م.س. لازاريف وآخرون؛ تاريخ كوردستان؛ ترجمة: د. عبدي حاجي؛ الطبعة الثانية 2011؛ الناشر: مؤسسة سبيريز للطباعة والنشر- دهوك؛ ص71.

تعرض أسلاف الشعب الكردي لسلسلة من الهجمات اتصفت معظمها بالطابع الوحشي من قبل معظم ملوك الدول التي برزت في الشرق الأوسط منذ حوالي 3000 ق.م[20]؛ وذلك بهدف احتلال أراضيهم وسلب ممتلكاتهم واخضاعهم بعد إبادة مقاتليهم واستعبادهم وفرض الجزية عليهم بشكل يعيق قيامهم بأي ثورة؛ إلا أن هذا لم يمنع الأسلاف من إعادة تنظيم صفوفهم في كل مرة والتحرر من استبداد هؤلاء الملوك حيث استطاع الكوتيون[21] (ائتلاف قبائل زاغروس) من التحرر من الإمبراطورية الأكادية وقيام الكاشيين[22] والحوريين بإسقاط الدولة البابلية، ونجاح ثورة الميديين (ائتلاف قبائل زاغروس وطوروس الكردستانية) في التحرر من الاحتلالين، السكيثي والآشوري، وإنهاء الإمبراطورية الآشورية؛ حيث لم تجدي السياسات القمعية والإرهابية لملوك هذه الدول في إخضاع شعوب كردستان القديمة، فمثلاً يشير أحد النقوش إلى مهاجمة الملك الآشوري "آشور ناصر آبلي الثاني" على بلاد نيربو التي تضم جبل برادوست في جنوب كردستان المتاخم لنينوى عاصمة الآشوريون بعد أن قام سكانها بالثورة عليه[23] "...ولم يُقْبِلوا إليَّ ولم يركعوا عند قدمي وبعد حصار وقتال اقتحمت المدينة، واعملت السيف في 3000 رجل من محاربيهم، وأخذت منهم أسرى وثيران وماشية، واحرقت العديد من أسراهم، وأسرت العديد من المقاتلين، فقطعت أذرع بعضهم، وأيدي بعضهم، وبترت أنوف وآذان بعضهم، وقطعت من الآخرين أعضاءهم البارزة واقتلعت أعين العديد من الجنود، ثم عملت كومة من الأجساد وكومة من الرؤوس، وعلقت رؤوسهم على الأشجار حول المدينة وأحرقت المراهقين من أبنائهم وسويت المدينة مع الأرض، فدمرت مدن بلاد نيربو وهدمت أسوارها القوية..."؛ ويبدو أن التاريخ لا يزال يعيد نفسه في العصور اللاحقة. لقد علمت الحياة الكردي "أن العالم ملك للشجاع" كما يقول الباحث باسيل نيكتين[24]؛ بينما يعتبر الباحث لازاريف[25] شجاعة المقاتلين الكرد في ميادين القتال كانت تحظى عملياً بطلب جميع الامبراطوريات والسلالات الحاكمة، التي كان الكرد يدورون في فلكها؛ بينما يصف السلطان العثماني سليمان القانوني قوة القبائل الكردية بالشكل التالي "... لقد وضعتها (العشائر الكردية) في صف مثل تحصينات ميدانية تمتد من جورجيا إلى بغداد... فالعدو لا يستطيع الدخول إلى دولة الإسلام متجاوزاً هذه التحصينات..."[26].

---

[20] للمزيد راجع: رافدة عبد الله عبد الصمد القره داغي؛ كردستان العراق في التاريخ القديم في ضوء المصادر المسمارية من الألف الثالث ق.م حتى 612 ق.م؛ أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التأريخ القديم من جامعة السليمانية- كلية العلوم الإنسانية لعام 2008م.

[21] صلوات كوليلموف؛ آريا القديمة وكردستان الأبدية (الكرد من أقدم الشعوب)؛ ترجمة د. اسماعيل الحصاف؛ الطبعة الأولى 2011؛ الناشر: مؤسسة بحوث والنشر موكريانى- هولير؛ ص98.

[22] أرشاك سافراستيان؛ الكرد وكردستان؛ ترجمة: د. أحمد محمود الخليل؛ الطبعة الثانية 2008؛ الناشر: دار سردم- السليمانية/ إقليم كردستان.؛ ص40.

[23] رافدة عبد الله عبد الصمد القره داغي؛ كردستان العراق في التاريخ القديم في ضوء المصادر المسمارية من الألف الثالث ق.م حتى 612ق.م – أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التأريخ القديم من جامعة السليمانية، كلية العلوم الإنسانية/ قسم التاريخ-2008؛ ص110.

[24] باسيل نيكتين؛ الكرد/ أصلهم، تاريخهم، موطنهم،.../؛ تدقيق ومراجعة وتقديم: صلاح برواري؛ الناشر: مجلة آسو ASO الثقافية؛ بلارقم طبعة وتاريخ نشر؛ ص60.

[25] م.س. لازاريف وآخرون؛ تاريخ كوردستان؛ ترجمة: د. عبدي حاجي؛ الطبعة الثانية 2011؛ الناشر: مؤسسة سبيريز للطباعة والنشر- دهوك؛ ص41.

[26] نفس المرجع السابق؛ ص90.

في التاريخ المعاصر أصبحت العائلة كأصغر خلية اجتماعية الركن الأساسي في تفاعل العلاقات الاجتماعية الكردية، فكل عائلة كردية تعتبر نفسها امتداداً لعشائر كبرى وتتفاخر بها، مع اتباع العديد منها نمط الثقافة العشائرية في بعض جوانب حياتها الاجتماعية؛ من ناحية أخرى يمكن أن تنتسب أكثر من عائلة في مدينة ما أو عدة مدن إلى عشيرة واحدة، إلا أنه يمكن ملاحظة احتفاظ كل عائلة بخصوصيتها وإدارة شؤونها الخاصة بعيداً عن سلطة زعيم واحد. يعود بروز هذا النمط الاجتماعي الجديد لدى الكرد (المجتمع المتمدن) إلى تأثير عدة عوامل ذاتية وموضوعية، لعل أبرزها:

الازدياد المضطرد لحجم العشائر ونزاعاتها حيث تشتت الكثير من العائلات وانفصلت عن عشائرها ولم يعد هناك رابط مادي بينها.

تناقص الهطولات المطرية في الكثير من المناطق السهلية وعدم قدرة الاقتصاد الزراعي على تلبية المتطلبات المعيشية.

السياسة القمعية للسلطات تجاه المجتمعات الكردية في الريف والعمل على إفقارها بتهميشها اقتصادياً، أو تهجيرها خاصة بعد قمع الثورات والانتفاضات الشعبية أو احتلال مناطقها.

الرغبة في التحرر من سلطة الأغوات عبر امتهان مهناً وحرفاً جديدة بالتزامن مع الازدياد النسبي للوعي المعرفي بين الكرد؛

جودة الخدمات التي تقدمها المدينة مقارنة بالريف.

التداعيات الاقتصادية والسياسية التي نجمت عن الحرب العالمية الثانية.

يبدو أن معظم الكرد في أجزاء كردستان الأربعة يتجهون للتحول إلى نمط المجتمع المتمدن، فبعد الحرب العالمية الثانية ازداد بروز هذا النمط الاجتماعي بالتزامن مع الضعف التدريجي في نمط الحياة الاجتماعية العشائرية وضعف سلطة رجال الدين؛ وأصبح المجتمع المتمدن منقسم بين ثلاثة طبقات رئيسية وهم الأغنياء والكادحين والبيروقراطيين، مع وجود أنماط من الأفراد يتصفون كنصف قروي ونصف متمدن، أي أنهم يستقرون في القرى أو لم يقطعوا صلتهم بها، إلا أنهم يعتمدون بشكل عام على النظام الاقتصادي القائم في المدينة لإدارة حياتهم الاقتصادية؛ وتكاد نسبة كبيرة من الكرد يتجهون للتحول إلى هذا النمط في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية خاصة في روجآفا وشمال كردستان؛ حيث يفسح هذا النظام المجال لأي عائلة أن تحسن من وضعها الاقتصادي بشكل جيد وتحقق نسبياً أمنها المعيشي بغض النظر عن نسبها ومكانتها الاجتماعية وقوتها العددية وذلك بمجرد امتلاكها لأسباب القوة من المال والنفوذ لدى السلطات المركزية، تبدو هذه الظاهرة من إحدى مظاهر الأنظمة الليبرالية ومصدراً محتملاً لبروز مفهوم سلطوي جديد يمكن تسميته مجازياً بـ (أغوات المدن) يشكل المال الطاقة الإغرائية التي تؤجج المشاعر والسلوكيات في سبيلها؛ يبدو أنّ هناك حاجة للكثير من الدراسات لهذا النموذج الاجتماعي الجديد نسبياً بين الكرد الذين يعانون من ضعف اقتصادي مدروس من قبل السلطات الفاسدة التي تقوم بإخضاعهم.

بالنسبة لوضع عقيدة القتال في هذا المجتمع فأنها تتمحور حول الدفاع عن العائلة وصون شرفها وحمايتها من البؤس بالدرجة الأولى، ولدى تعرض مجموعة من العوائل لخطر واحد فأنها تتوحد فيما بينها لمواجهته، وهذا ما يعبر بشكل رئيسي عن مفهوم الدفاع الذاتي المجتمعي، وأبرز نموذج يمكن وصفه بها هو مجتمع روجآفا، فمثلاً لدى تعرض مدن روجآفا بعد عام 2011م لهجمات وحشية من قبل الميليشيات المحسوبة على جماعة الإخوان المسلمين والقاعدة بدعم من الدولة التركية انخرط العشرات من الشبان ذوي الروح القتالية ومن مختلف العوائل في صفوف وحدات حماية الشعب YPG دون أن يكون هناك دافع ديني أو مادي على ذلك وتم تقديم الكثير من التضحيات، تشهد عليها مقابر الشهداء المنتشرة في المنطقة.

مقوّمات عقيدة القتال لدى الكرد.

حب القتال لا يعد جريمة لدى الكرد بل ترمز إلى الرجولة والبطولة، تنظمه قواعد أخلاقية وثقافية؛ يبدو أنه شرط أساسي من شروط البقاء لديهم؛ وهناك مجموعة من العناصر الفاعلة في بناء عقيدة القتال لدى الكرد، يمكن تلمس هذه العناصر من خلال الدوافع التي تحضّ الكردي الأصيل على القتال، قد تبرز واحدة أو أكثر لديه؛ والتي يمكن أن نسلط الضوء على أبرز مقوماتها بالشكل التالي:

التمسك بالإرادة الحرة ومقاومة الخضوع للمتسلطين والغزاة.

بما أن الكرد كانوا دائماً يتعرضون لهجمات وغزوات من الممالك المجاورة كانت عقيدة القتال الرئيسية لديهم تتمحور حول الدفاع عن الأرض لأنها تضم قبور الأجداد حيث كانت الديانات الكردية القديمة تعتقد بالحياة ما بعد الموت؛ كما وتعد الأرض المورد الذي يضمن حياة العائلة والعشيرة. إنّ الكردي يدرك بأن هدف كل غازي هو قتله مع عائلته أو تحويلهم إلى عبيد وسلب ممتلكاتهم أو إخضاعهم وإجبارهم على دفع الجزية وتقديم خدمات عسكرية واقتصادية للملوك الغزاة، وهذا ما شكّل دافعاً مستمراً للكرد لمحاولة تخطي الذهنية القبلية إلى ذهنية الأمة كما في التجربة الميدية وإنشاء الائتلافات القبلية من أجل الحفاظ على إرادتهم الحرة؛ وقد يندرج التحالف مع بعض الدول لحماية تخوم مناطق القبائل من الغارات القادمة من البلدان المجاورة في العقيدة العسكرية الكردية في القرون الماضية كالقبائل الموجودة على الحدود السياسية بين العثمانيين والصفويين وسابقاً بين الفرس والرومان؛ لذلك يشكل الدفاع عن الوجود عنصر مهم من عناصر عقيدة القتال الكردية، وتحمل ميثولوجيا كاوى الحداد وقيادته للكرد واعلانه للثورة ضد أزدهاك (الملك الظالم الممسوخ) الكثير من المعاني التاريخية والثقافية لهذه العقيدة.

كما ولعبت دوافع الثأر من الغزاة والدفاع عن الأرض والتحرر من المحتلين وإنهاء خطر الأعداء عناصر رئيسية في بلورة عقيدة قتال جديدة لأسلاف الكرد والتي تمثلت بالجيش الميدي الذي أسسه البطل القومي الكردي كياخسار/كيخسرو حوالي عام 615ق.م بعد أن أنهى نظام القوات المختلطة والتي كانت تقاتل بشكل غير منتظم وفق أساليب القتال الخاصة بكل قبيلة، وقام بتقسيم القوات العسكرية إلى فصائل حسب صنف السلاح فكان هناك المشاة، الرمّاحون والرماة، والفرسان، وتم دعمهم بمشاعر معنوية سامية باعتبارهم يمثلون جنود إله الخير آهورامزدا؛ وكان

لهذا التنظيم الدور الرئيسي في هزيمة الإمبراطورية الآشورية التي كانت تعد أقوى وأرهب إمبراطورية في ذلك العصر؛ ويتكرر هذا الأمر نسبياً لدى مختلف الثورات الكردية منذ مئات السنين إلى العصر الحديث.

التعصب النسبي للأعراف والعادات ذات الطابع العشائري.

من المحرضات الأخرى على القتال لدى الكرد بحسب بعض الباحثين والرحالة المهتمين بالسيسيولوجيا الكردية والتي يمكن أن تتوفر لدى الشعوب الأخرى المجاورة لهم؛ الثأر بالدم، والعداوات العشائرية؛ والنزعة إلى السلب وشن الغارات[27] على القرى والعشائر غير الخاضعة لميثاقهم الاجتماعي؛ وحماية ممتلكاتهم من الحقول والمراعي، والدفاع عن الذين يستجيرون بهم وفقاً للقانون الشفوي للشرف بحسب الباحث ارشاك سافراستيان[28]، وفي فترة المجازر الرهيبة التي لحقت بالمسيحيين على يد العثمانيين وعلى الرغم من اصدار فتوى دينية بخصوصها من قبل السلطان إلا أنّ قسماً كبيراً من الكرد المسلمين لم يستجيبوا لها بل قاموا بتقديم الحماية للمستجيرين بهم، إلى الدرجة التي خاض فيها الكثيرون القتال[29] ضد عساكر السلطان للدفاع عن الأبرياء، وأعدم الكثير منهم. وكذلك هناك الانتفاضة في وجه السلطات الفاسدة في المناطق الكردية[30] بسبب الفقر والفساد واضطهاد السلطات للمدنيين وسلب محاصيلهم وأدواتهم والإجبار على الخدمة العسكرية في حروب لا تخصّ الكرد؛ حيث كانت الجبال الملاذ الآمن للكثير من المنتفضين، لذلك تعتبر الثورة في وجه الطغاة أيضاً جزء أساسي من عقيدة القتال لدى الكرد.

التعصب للمعتقدات الروحانية.

بالإضافة إلى ما سبق يمتاز الكردي كغيره من الشعوب الشرقية بعاطفة دينية قوية، قد يعود سبب ذلك إلى عجزه عن مقاومة الظواهر الطبيعية والمناخية الكبرى التي تشهدها بلاده من الهطولات الثلجية والمطرية الغزيرة، والفيضانات والزلازل والانهيارات التي تشهدها التضاريس، وحرائق الغابات وغير ذلك، حيث تشير ميثولوجيا نوروز وكاوى الحداد الكردية إلى هذه الحقيقة؛ الأمر الذي كان له تأثير في صياغة ثنائية الخير والشر لدى أسلاف الشعب الكردي وقبل ظهور الديانات الإبراهيمية؛ حيث هناك إله للخير والنور، وإله للشر والظلام؛ وتشير الديانات المزدية والزرادشتية[31] والإيزدية وغيرها كخلاصات للمعتقدات الدينية الكردية القديمة إلى إقامة معابد

---

[27] للمزيد راجع: ب. ليرخ؛ دراسات حول الأكراد واسلافهم الخالديين الشماليين؛ ترجمة: د. عبدي حاجي؛ الطبعة الأولى 1994م؛ الناشر: مكتبة خاني- حلب.
باسيل نيكتين؛ الكرد/ أصلهم، تاريخهم، موطنهم،.../؛ تدقيق ومراجعة وتقديم: صلاح برواري؛ الناشر: مجلة آسو ASO الثقافية؛ بلارقم طبعة وتاريخ نشر.

[28] أرشاك سافراستيان؛ الكرد وكردستان؛ ترجمة: د. أحمد محمود الخليل؛ الطبعة الثانية 2008؛ الناشر: دار سردم- السليمانية/ إقليم كردستان. ص21.

[29] د. كمال مظهر أحمد؛ كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى؛ ترجمة: محمد الملا عبد الكريم؛ الطبعة الثالثة- 2013؛ الناشران: دار الفارابي- بيروت/ دار آراس للطباعة والنشر- أربيل؛ ص302.

[30] للمزيد راجع: توما بوا؛ الكُرد؛ ترجمة: صلاح عرفان؛ بلا رقم طبعة؛ الناشر: مركز الدراسات الكردية (كوردولوجي)- السليمانية.

[31] د. أحمد محمود الخليل؛ مملكة ميديا؛ الطبعة الأولى- 2011م؛ الناشر: مؤسسة موكريانى للبحوث والنشر؛ أربيل؛ ص192.

للعبادة وتقديم قرابين نباتية وحيوانية للآلهة بغرض كسب رضاها وتجنب غضبها؛ ويبدو أنها لعبت دوراً كبيراً في صياغة عقيدة القتال الكردية فمثلاً الزرادشتية كانت تحض على إتباع إله الخير آهورامزدا لمحاربة إله الشر آهريمان[32]؛ وكثيراً ما كان الغزاة يدنسون المعابد ويعتدون على المقدسات لذلك كان المؤمنين يجدون أنفسهم مضطرين إلى القتال للدفاع عن مقدساتهم. من ناحية أخرى فقد لعب الدين دوره في دوافع القتال لدى الكرد، فمثلاً كان بعض الكرد يتبعون مذاهب مخالفة نسبياً للزرادشتية التي وظفتها الإمبراطورية الساسانية لتشريع سلطتها كديانة رسمية، من هذه المعتقدات المانوية والمزدكية والمسيحية؛ وقد كان المعتقد المسيحي لدى معظم المعتنقين من أسلاف الكرد وجيرانهم من السريان متأثراً بالآريوسية[33] وغيرها من المعتقدات القريبة من المعتقدات الإسلامية في تفسير ماهية الثالوث المقدس، والتي كانت على خلافات مع الكنيسة الغربية في الكثير من الأحيان؛ بالإضافة إلى اضطهاد الكرد النصارى من قبل ملوك الساسانيين في بعض المراحل الزمنية[34] بسبب الحروب التي كانوا يخوضونها ضد البيزنطيين؛ يبدو أنه كان لهذا الأمر تأثير معنوي كبير في نأي بعض الكرد بأنفسهم عن القتال بين الفرس والعرب المسلمين حيث يشير الواقدي في كتابه (تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق) إلى انضمام العديد من المسيحين إلى جيش عياض بن غنم، ودورهم الحاسم في سقوط القلاع واحتلال مناطق إقليم الجزيرة التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية؛ لذا لدى مجيء القوات الإسلامية كانت كردستان منهكة من الحروب الضارية المستمرة بين البيزنطيين والفرس وتشهد خلافات عقائدية[35]، ولم يكن معظم السكان يمتلكون المعنويات والإرادة اللازمة للمقاومة والنفير الشعبي لصد الغزاة، وأغلب المقاومات التي ظهرت كانت من باب الدفاع الذاتي عن الممتلكات، المادية والمعنوية، وحماية الأهل من التحول إلى غنائم.

مع اعتناق غالبية الكرد للعقيدة الإسلامية لعوامل وأسباب يطول الشرح فيها، أصبح الجهاد المحرّض الرئيسي على القتال لدى الكرد الذين تفرقوا بين المذاهب والطوائف المتشعبة عن الإسلام والتي على أساسها تم تحديد العدو والصديق ومبررات القتال؛ ويبدو أن هذا الأمر لم يستطع نزع العصبية القبيلة بين العشائر الكردية التي تعززت بعد احتلال المسلمين لكردستان وتخلي الكثير من زعماء القبائل عن الديمقراطية القبائلية وتحولهم إلى ممثلين للسلطة الجديدة لدى

---

[32] للمزيد راجع: د. خليل عبد الرحمن؛ أفستا/ الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية؛ الطبعة الثانية 2008؛ الناشر: روافد للثقافة الفنون- دمشق؛ ص132.

[33] كلثومة جميل عبد الواحد؛ كردستان في عهد الساسانيين (224-630م)/ دراسة عن الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية؛ الطبعة الأولى 2007؛ مطبعة وزارة التربية- أربيل ؛ ص92.
نافع شابو؛ الآريوسية وتأثيرها على العقيدة الإسلامية!!؛ الناشر: موقع الحوار المتمدن/ العدد 6190- 2019/4/3م

[34] د. فرست مرعي؛ كردستان في القرن السابع الميلادي؛ الناشر: مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية؛ السليمانية 2006؛ بلا رقم طبعة؛ ص42.

[35] للمزيد راجع كلاً من: دبليو. أي. ويكَرام- ادكّار. تي. أي. ويكّرام؛ مهد البشرية (الحياة في شرق كردستان)؛ ترجمة: جرجيس فتح الله؛ الناشر: دار ئاراس للطباعة والنشر- أربيل/ كردستان العراق؛ الطبعة الرابعة 2010؛ ص44.
د. فرست مرعي؛ كردستان في القرن السابع الميلادي؛ الناشر: مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية؛ السليمانية 2006؛ بلا رقم طبعة؛ ص202.
أرشاك سافراستيان؛ الكرد وكردستان؛ ترجمة: د. أحمد محمود الخليل؛ الطبعة الثانية 2008؛ الناشر: دار سردم- السليمانية/ إقليم كردستان.

عشائرهم، والتي أصبحت تتنافس فيما بينها على النفوذ والهيمنة؛ إلى جانب تحول البعض منهم إلى جنود في خدمة سلاطين الشيعة والسنة في حروبهم المستعرة، إلا أنّ هذا لم يمنع بعض المحاولات لإقامة كيانات كردية بعيدة عن سلطة الأقوام الأخرى، حيث استطاعت بعض العشائر الكردية تأسيس عدداً من الدويلات والإمارات كالدولة الدوستكية (المروانية) والإمارة الشدادية والدولة الأيوبية وإمارة بوتان وغيرها، إلا أنها لم ترقى إلى مستوى الدولة الدينية- القومية على غرار دول الفرس والترك والعرب. إنّ ما تم ذكره يشير إلى أن الدافع العقائدي يشكل عنصراً رئيسياً من عناصر عقيدة القتال لدى الكرد. فقد شهدت العقيدة العسكرية الكردية تحولات كبيرة مع احتلال الجيوش الإسلامية لكردستان، الأمر الذي كان له تأثير في صياغة عقيدة قتال جديدة لمعظم الكرد بعد أن استبدل المستعمر الفارسي بالمستعمر العربي، قد يكون ذلك أحد الأسباب الكامنة وراء اعتناق الكرد السريع للإسلام من أجل مواجهة الغارات الرومانية والبيزنطية كما يقول المفكر أوجلان[36]، حيث وجدوا في العرب قوة عسكرية يمكن التحالف معها، ويبدو أنّ هذه التجربة تكررت مع بعض الأتراك المسلمين الذين استعمروا كردستان كالسلاجقة والعثمانيين. يمكن أن نفسر العقيدة العسكرية الكردية القائمة على التحالف مع أقوام أخرى إلى ثقافتها القديمة حيث شكّل نظام ما يشبه الفدراليات العسكرية في كردستان منذ آلاف السنين خياراً استراتيجياً للدفاع الذاتي عن المجتمعات الكردستانية، ويبدو أن اعتناق الكرد للإسلام والسياسة الإدارية لدولة الخلافة في تلك الفترة التي تركت هامشاً من الإدارة الذاتية أو شبه الاستقلال الذاتي لدى المجتمعات الكردية المعتنقة للإسلام الذي بدأ مع الزمن يتغلغل في الثقافة الكردية إلا أنه لم يستطع إحداث تحولات جذرية في الجغرافيا الثقافية لكردستان مقارنة بالتحولات التي أحدثها في خارطتها السياسية، حيث حافظ الكرد على لغتهم وتراثهم الثقافي ونظامهم الاجتماعي؛ فقد أثر الإسلام على ذهنية المقاتل الكردي المسلم وإعادة تأطير عواطفه وسلوكياته بصبغتها وعلى أسس عقيدة الجهاد، تجلى ذلك بشكل واضح في تلبية العشائر الكردية لنداء الجهاد الذي أطلقه صلاح الدين الأيوبي عام 1187م لقتال الجيوش الصليبية في شمال وغرب بلاد الشام؛ ليظهر إلى جانب القتال من أجل صون الكرامة والشرف الشخصي، وحماية شرف وأمن الأسرة؛ مفهوم الجهاد للقتال من أجل الدفاع عن أمن مجتمع أخوة المعتقد من ثقافات وقوميات أخرى، حيث قام رجال الدين بإعادة صياغة مفهوم الشر وهو باختصار كل ما يقع خارج الحدود المعنوية للإسلام المتأطر وفقاً لوجهة النظر المذهبية لكبار رجال الدين، خلافاً لمفهوم الشر لدى الزرادشتية باعتباره كل ما يقع خارج إطار القاعدة الشرعية (العمل الخيّر، والفكر الخيّر، والقول الخيّر) بغض النظر عن الانتماء العقائدي للفرد؛ حيث نلاحظ الخصومات الدينية مع كلٍ من المسيحية والإيزدية التي يبدو أنه كان لها دور في فشل الثورات الكردية في العصر الحديث وتحقيق الاستقلال للشعب الكردي[37] على الرغم من تأييد بعض المسيحيين والإيزديين لهذه الثورات[38]؛ وكذلك كانت للخصومات الطائفية بين الكرد تأثيرها على عقيدة القتال الكردية فمثلاً تسببت الخلافات الدينية والمذهبية بين الكرد السنة والعلويين في

---

[36] عبد الله أوجالان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية (القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية؛ دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكيّ الإبادة الثقافية) / المجلد الخامس؛ ترجمة: زاخو شيار؛ الطبعة الثانية 2014؛ بلا ناشر؛ ص99.

[37] للمزيد راجع: روبرت أولسون؛ تاريخ الكفاح القومي الكردي (1880-1925)؛ ترجمة: أحمد محمود الخليل؛ الطبعة الأولى 2013؛ الناشر: دار الفارابي- بيروت.

[38] موسوعة المعرفة (الإلكترونية)؛ الشيخ عبيد الله النهري؛ الرابط:

فشل كل من ثورة كوجكري 1921م وثورة الشيخ سعيد 1925م[39]. على الرغم من ذلك يعتبر الباحث مينورسكي[40] أن مشاعر الولاء للعائلة والعشيرة أو القبيلة لدى الكردي أقوى من المشاعر المذهبية والقومية، لأنه يجد فيها طاقة للاستمرار في البقاء والوجود لذلك يدافع الكردي عنها بشجاعة خارقة؛ هذه الآراء تدفع إلى الاعتقاد بتبعية عقيدة القتال لدى عامة الكرد لعقيدة القتال الخاصة بزعمائهم.

المشاعر القومية.

في أواخر القرن التاسع عشر أصبحت العاطفة القومية إلى جانب الدينية من العوامل الرئيسية المؤثرة في عقيدة القتال لدى الكرد التي تمحورت حول نيل الحقوق القومية والإدارة الذاتية وتطبيق الشريعة الإسلامية، وذلك بعد أن هيمن الشيوخ[41] على قيادة الحركة القومية الكردية بعد فقدان كردستان لنخبة من زعماء القبائل في ثوراتهم ضد السلطنة العثمانية؛ علماً أنّ الكثير من مقاتلي العشائر الكردية اكتسبوا المزيد من الخبرات القتالية في سياق مشاركتهم في حروب الدولة العثمانية مع روسيا القيصرية وفي حروب البلقان وفي الحرب العالمية الأولى، إلى جانب انضمام الكثير من أبناء الزعماء إلى مدرسة العشائر (1891م) والانضمام إلى الألوية الحميدية. لقد برزت هذه العاطفة (الدينية- القومية) بشكل جلي في الثورات الكردية التي شهدتها كردستان منذ ثورة عبيدة الله النهري عام 1880م حتى عام 1984م التاريخ الذي برزت فيه صياغة جديدة لعقيدة القتال لدى شريحة واسعة من الكرد. بعد الحرب العالمية الثانية بدأ النظام العشائري الكردي بالانهيار التدريجي بتأثير من التطور التكنولوجي الذي شهده قطاع الزراعة مع حفاظ الفلاحين على نمط الحياة العشائرية؛ وبعد الستينات أصبحت العقيدة القومية والمساواة مع القوميات الأخرى المقوّم الأبرز لعقيدة القتال الكردية.

الدفاع الذاتي المجتمعي.

استطاع قسم كبير من أسلاف الكرد بعد احتلال الفرس لمملكتهم الميدية الحفاظ على خصوصيتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ وتمكنوا من إقامة ائتلاف موحد في الجبال المتوسطة بين سلسلتي زاغروس وطوروس والتي أطلق عليها اسم جبال الكاردوخ، واستناداً إلى روايات القائد العسكري اليوناني كسينفون/ زينفون[42] فقد تمحورت عقيدتهم القتالية حول الدفاع عن مناطقهم حيث يصفهم بكونهم قوم محارب شجاع وليسوا خاضعين لملك الفرس، ومناطقهم

---

39 روبرت أولسون؛ تاريخ الكفاح القومي الكردي (1880-1925)؛ ترجمة: أحمد محمود الخليل؛ الطبعة الأولى 2013؛ الناشر: دار الفارابي- بيروت؛ ص85.

40 فلاديمير مينورسكي؛ الأكراد/ ملاحظات وانطباعات- الأكراد أحفاد الميديين؛ ترجمة: د. معروف خزنه دار؛ الطبعة الأولى/1987؛ الناشر: رابطة كاوا للثقافة الكردية (السويد) ودار الكاتب (بيروت). ص91.

41 يمتاز الشيوخ في كردستان بمكانة مقدسة حتى بعد مماتهم ويلعبون دور القاضي والكاهن والطبيب وكلما دافعوا عن طبقة الفلاحين والمقهورين وتوثيق علاقاتهم مع زعماء القبائل بالمصاهرة ازدادت شعبيتهم وشهرتهم... نفس المرجع السابق؛ ص21.

42 د. فرست مرعي؛ كردستان في القرن السابع الميلادي؛ الناشر: مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية؛ السليمانية 2006؛ بلا رقم طبعة؛ ص33.
صلوات كَولياموف؛ آريا القديمة وكردستان الأبدية (الكرد من أقدم الشعوب)؛ ترجمة د. اسماعيل الحصاف؛ الطبعة الأولى 2011؛ الناشر: مؤسسة بحوث والنشر موكريانى- هولير؛ ص301.

وعرة ولم يكونوا يسمحون لأحد بالتوغل في قراهم وأراضيهم التي تؤمن المراعي لمواشيهم بدون موافقتهم، وكانوا قد حطمّوا جيشاً فارسياً ضخماً حاول اخضاعهم، وكان سلاحهم الدفاعي الأساسي الحجارة والسهام؛ حيث يصف أقواسهم بأنها كانت أطول من رجل بالغ بحوالي نصف متر وكانت تخترق الدروع والخوذ، بينما اختلفت أحجام الصخور بين الكبيرة والصغيرة التي ترمى بالمقلاع؛ وفي المناطق السهلية كانوا يبنون قراهم تحت مستوى سطح الأرض تربط بينها أنفاق. لقد كان دفاع المجتمعات الكردية عن نفسها والامتناع عن الخضوع لسلطة الغرباء والتي يطلق عليها بعض المفكرين العسكريين الكرد المعاصرين صفة (الدفاع الذاتي المجتمعي) عنصراً فعّالاً في عقيدة القتال للكرد وتعد ملحمة قلعة دمدم نموذجاً معبراً عن هذه الصفة[43] وكذلك الثورات الكردية على سلطة الأمويين والعباسيين والعثمانيين التي نادت بالمساواة الاجتماعية، حيث تم قمعها بوحشية[44].
يبدو أنّ هذا الأمر سمة مميزة للمجتمعات الجبلية حيث يفرض المكان والمناخ عدم قابلية تكوين حكم مركزي يسيطر على المنطقة بأسرها خصوصاً في ظل توفر الملجأ والمياه والغذاء، حيث نلاحظ احتفاظ كل مجموعة باستقلاليتها وإدارتها الذاتية، وتوحدها لدى ظهور خطر يتهددها؛ بعكس المجتمعات النهرية نسبياً التي كانت تاريخياً شديدة التقديس والخنوع والاستكانة لحكامها، كونه بوجود البراري الجافة لا يمكن الحياة إلا بجانب النهر، وبمجرد السيطرة عليه يسهل إخضاع الشعب، فأما أن يطيع الحاكم أو أن يموت جوعاً، لأنَّه يصعب تأمين مكان آخر يهرب إليه ليؤسس مجتمعاً بديلاً يؤمن له الملجأ والمياه والغذاء، وذلك لدى رصدنا لحضارات العالم القديم.

لقد شهدت عقيدة القتال الكردية العديد من الانتكاسات بسبب النكبات التي تعرضت لها المجتمعات الكردستانية إثر فشل محاولاتهم الثورية الهامة في تحقيق أهدافهم كثورة عبيد الله النهري وثورة الشيخ سعيد 1925م وثورة القاضي محمد 1948م، وثورة أيلول في جنوب كردستان عام 1961م والنكبة التي تعرضت لها إثر اتفاقية الجزائر عام 1975م؛ ليبرز شعور عام بالضعف في مواجهة الأنظمة الثيوقراطية والفاشية؛ إلا أنه مع تنامي وانتشار الأفكار الاشتراكية في فترة الحرب الباردة والتي لقت تعاطفاً كبيراً من قبل العمال والفلاحين الذين يشكلون الأغلبية في كردستان برزت الحركات العمالية والمناهضة للعنصرية والمُطالبة بالديمقراطية بالتزامن مع دافع معنوي متمثل بتربية الأبناء على معاداة الأعداء الذين كانوا سبباً في معاناة الأجداد، الأمر

---

43 تمكن الشاه عباس من صد هجوم الجيش الأوزبكي القادم من آسيا الوسطى بمساندة فرق الفرسان الكردية إلا أن الشاه انقلب على حلفائه الكرد واعدم الملك آرداآن سنة 1613م وفي هذه الفترة برزت ملحمة قلعة دمدم العائدة لزعيم اتحاد قبائل آرتوشي الذي رفض الخضوع للشاه وحاصر الفرس القلعة بما فيها من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يحمون المتاريس، ونجحوا في صد هجوم جيش الشاه، ولكن المؤن بدأت بالنفاذ وانقطع الاتصال بالعالم الخارجي وطلب المساعدة من الكرد الآخرين، وبعد اقتحام الفرس للقلعة قتلوا جميع الرجال والنساء والأطفال الذين حاربوا حتى النهاية، أما الفتيات العذارى فكن يلقين بأنفسهم في الخنادق العميقة المحيطة بالقلعة ويقتلن أنفسهن للنجاة من العار، وقد دخل الغزاة القلعة بعد قتل آخر مدافع عنها؛ وتشير روايات أخرى إلى تمكن أمير القلعة خان برادوست الملقب بذو الكف الذهبية من انقاذ المدنيين من القلعة عبر الممرات الجبلية الصعبة بعد أن ضحى هو ومن تبقى من رجاله بأنفسهم من خلال إلهاء قوات الشاه بمعارك مباشرة وضارية بعد خيانة أحد رجاله له وترشيد قوات الشاه إلى مكان النبع الذي يمد القلعة بالمياه...

44 م.س. لازاريف وآخرون؛ تاريخ كوردستان؛ ترجمة: د. عبدي حاجي؛ الطبعة الثانية 2011؛ الناشر: مؤسسة سبيريز للطباعة والنشر- دهوك؛ ص37.

الذي كان له تأثير كبير في صياغة عقيدة قتال جديدة للكرد مع تأسيس حزب العمال الكردستاني المعروف اختصاراً بـPKK والذي يصف في الأدبيات الثورية الكردية بحركة حرية كردستان.

مع تنامي القاعدة الشعبية لحركة حرية كردستان بعد عام 1980م وتوجهه نحو الكفاح المسلح وفقاً لعقيدة عسكرية جديدة تستند بشكل خاص على الدروس المستفادة من كلٍ من الثورات الكردية وثورات التحرر العالمية؛ اتخذ من حرب الأنصار (حرب العصابات)[45] تحت مسمى قوات تحرير كردستان HRK (عام 1984م) ولاحقاً تحت مسمى جيش تحرير شعب كردستان ARGK (عام 1986م) استراتيجية عسكرية لنيل الحقوق الكردية ومقاومة عمليات الإبادة الجماعية التي تُشنّ على الكرد والتي ازدادت بشكل دراماتيكي بعد قمع ثورتي الشيخ سعيد وسيد رضا والانتكاسة التي تعرضت لها ثورة أيلول في جنوب كردستان إثر توقيع اتفاقية الجزائر عام 1975م؛ وتم استبعاد النزعتين الدينية والعشائرية من عقيدة القتال الجديدة والتركيز على عقيدة الدفاع الذاتي المجتمعي في اكاديمياته العسكرية، الأمر الذي كان له دوراً بارزاً في إزالة الحواجز والمصدات المعنوية بين المقاتلين الكرد في صفوفه، من المسلمين والعلويين والإيزديين والماركسيين والقوميين العلمانيين، وبلغت مستوى من الانضباط المعنوي دفعت بالكثير من المقاتلين غير الكرد للانضمام إلى هذه الثورة، إلى جانب تعظيم مشاركة المرأة الكردية في القتال؛ بالتزامن مع تأمين شبكة معقدة من الإمدادات اللوجستية وتطوير الدبلوماسية العسكرية، هذا الأمر انعش الروح المعنوية للكرد مجدداً خاصة بعد امتداد كفاح حركة التحرر إلى خارج حدود شمال كردستان؛ يبدو أن هذا الأمر كان له دور استراتيجي في صمود الثورة لحوالي 40 سنة في مواجهة كلٍ من ثاني أكبر جيش في حلف الشمال الأطلسي والصمود في وجه هجمات الجيش الإيراني في شرقي كردستان؛ وكان لها الفضل الأبرز في الدفاع عن سكان روجآفا من هجمات تنظيمات داعش وجبهة النصرة وميليشيات الإخوان المسلمين، وإنقاذ عشرات الآلاف من الكرد الإيزديين من مجازر وشيكة في شنكال، إلى جانب تقديم دعم مؤثر لقوات البيشمركة في التصدي لهجمات داعش في جنوب كردستان بعد عام 2014م. إلا أنّ هذا لا يعني أن عقيدة القتال هذه كافية لضمان الأمن القومي للكرد كونها خاضعة لشروط وأحكام زمانية ومكانية نسبية ويمكن الاستغناء عنها في ظروف سياسية أخرى لا تناسبها؛ على الرغم من ذلك يعتبر الدفاع الذاتي المجتمعي عنصر فعّال من عناصر عقيدة القتال الكردية.

بالاستناد على ما سبق يمكن أن نعتبر عقيدة القتال الكردية متمحورة حول الدفاع عن الوجود والحماية الذاتية، ويتم صياغتها وفقاً لواحداً أو أكثر من أربعة دوافع رئيسية لازمتهم منذ تاريخهم القديم إلى يومنا هذا، وهي الدافع الديني والدافع القومي ودافع العصبية القبلية، ودافع الدفاع الذاتي المجتمعي في حال غياب الدوافع الثلاثة الأخيرة حيث يشارك جميع الأفراد بالدفاع عن أنفسهم

---

45 للمزيد عن مفهوم حرب العصابات راجع كلاً من: ماو تسي تونغ؛ حرب العصابات (حرب الأنصار)؛ الترجمة: مكتبة ماو تسي تونغ للعرب؛ الناشر: دار سورية/جركس وتنبكجي.
اللواء موشي دايان؛ محاضرات عن حرب العصابات/ الهجومية والدفاعية؛ مكتبة الإسكندرية؛ بدون تاريخ ورقم طبعة ومترجم.
ارنستو جيفارا؛ حرب العصابات؛ ترجمة ناهض منير الريّس؛ الناشر: الاتحاد العام لطلبة فلسطين؛ بدون تاريخ ورقم طبعة.

بشكل مشترك بعيداً عن مؤامرات الاستعمار وبسط النفوذ على الآخرين[46]، بالإضافة إلى الدافع الاقتصادي ولكن بمستويات أقل تجلى ذلك في بروز تيار عسكري كردي جديد ذو عقيدة تعتبر التواطؤ مع مستعمري كردستان خياراً للحفاظ على ممتلكاتهم المادية الآنية، وبرزت في الأدبيات السياسية والعسكرية الكردية مصطلحات مثل الجحوش/ Caş، وكروجي/ Kirûjî، وجتة/ Çete، وصوفيك/ Sofîk، الذين برّروا سلوكهم بحجج دينية تارة وبذرائع في إطار عداوات شخصية تارة أخرى.

عقيدة القتال للكرد في روجآفا.

يعتبر الباحث باسيل نيكتين[47] طبائع كرد روجآفا في القرن التاسع عشر وبعده، النموذج الأصيل للشعب الكردي؛ حيث تمتاز العشائر الكردية بالنزاعات المستمرة على المراعي الخصبة وحماية المواشي وفي الشتاء يتنازعون مع القبائل العربية بسبب غاراتهم على مواشيهم ومراعيهم، حيث تعتبر منطقة تماس مباشر بين شعبين متمايزين، الكرد سكان الجبال وسهولها، والعرب سكان البادية؛ لذلك تأخذ طبائع العنف لدى هذه الفئة من الكرد حدودها القصوى. شهدت روجآفا كيانين كرديين في شرقه وغربه؛ ففي الشرق كانت هناك فدرالية العشائر الملية التي كانت تتخذ من منطقة ماردين مركزاً رئيسياً لها وكثيراً ما قامت بمحاولات للاستقلال عن سلطة العثمانيين وقد بلغ أحد زعمائها (إبراهيم باشا) مرتبة سياسية وعسكرية جعلت أحد الرحالة الغربيين يصفونه (بملك كردستان غير المتوج) بينما في غرب روجآفا كانت العلاقات العشائرية تتجه نحو الاندثار بعد عام 1861م[48] بسبب بروز علاقات اجتماعية جديدة يهيمن عليها عائلات اقطاعية مدعومة من السلطات العثمانية؛ حيث برز لقب الآغا الذي حول الفلاحين إلى ما يشبه العبيد لديه؛ الأمر الذي وفر بيئة فقيرة ومناسبة لتزايد نشاط الحركات الصوفية خاصة مع تزايد المعاملة الاستبدادية للاحتلال الفرنسي مع الفلاحين.

للكرد في روج آفا صلات اجتماعية وثقافية وثيقة مع الكرد في جنوب وشمال كردستان فهي تعد امتداداً جغرافياً طبيعياً لهما[49]؛ إلا أن الحدود السياسية التي فرضتها اتفاقية سايكس بيكو عام 1916م تسببت بالانعزال النسبي بينهم؛ لذلك فأن الأحداث التي كانت تشهدها تلك المناطق كان لها تأثيرها على كرد روجآفا. بشكل عام كانت الذهنية القبلية العامل الحاسم في صياغة عقيدة القتال لدى كرد روجآفا في سبيل الدفاع عن المراعي وتوسيعها وصد الغارات والغزوات للعشائر الأخرى، وكثيراً ما كان يتم التحالف بين بعض القبائل الكردية والعربية ضد قبائل عربية وكردية

---

[46] عبد الله أوجالان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية (القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية؛ دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكّي الإبادة الثقافية.) / المجلد الخامس؛ الطبعة الثانية 2014؛ ترجمة: زاخو شيار؛ بلا ناشر؛ ص538.

[47] باسيل نيكتين؛ الكرد/ أصلهم، تاريخهم، موطنهم،.../؛ تدقيق ومراجعة وتقديم: صلاح برواري؛ الناشر: مجلة آسو ASO الثقافية؛ بلارقم طبعة وتاريخ نشر؛ ص57.

[48] راجع البحث السابع من الفصل الأول من كتاب جبل الكرد (عفرين)/ دراسة تاريخية اجتماعية توثيقية؛ لمؤلفه د. محمد عبدو علي؛ النسخة العربية- عفرين 2003؛ بدون ناشر ورق طبعة.

[49] م.س لازاريف وآخرون؛ تاريخ كردستان؛ ترجمة: د. عبدي حاجي؛ الطبعة الثانية- 2011؛ النشر: مؤسسة سيريز للطباعة والنشر- دهوك. ص234.

أخرى؛ كالحروب والتحالفات التي برزت بين الاتحاد الملي[50] وعشيرة شمر والكيكان والبكارة وطي وغيرهم؛ بينما كان تأثير الدافع الديني الدوغمائي ضعيفاً نسبياً بدليل عدم بروز معارك دموية مع الإيزديين والمسيحيين، كما لم يبلغ الدافع القومي مستوى متقدماً بدليل مناصرة الكثير من الكرد لثورة الشريف حسين في الحجاز، ومقاومة الاستعمار الفرنسي ولعب دور بارز في استقلال الدولة السورية.

في القرن العشرين مرت روجآفا بثلاثة مراحل سياسية رئيسية، وهي مرحلة السنوات الأخيرة من الاحتلال العثماني ومرحلة الاحتلال الفرنسي والمرحلة الممتدة من استقلال البلاد إلى التاريخ المعاصر؛ حيث كان لكل مرحلة ظروفها الخاصة وعواملها المؤثرة على كلٍ من عقيدة القتال وعلى الحركة السياسية والثقافية الكردية في هذا الجزء من جغرافية كردستان؛ حيث تنوعت عقيدة القتال الكردية بين الجهاد والنضال القومي والدفاع الذاتي مع الاضمحلال التدريجي للعقيدة المتحرضة بفعل الذهنية العشائرية.

لفهم عقيدة القتال الكردية المعاصرة في روجآفا هناك أحداثاً يمكن وصفها بالملحمية كان لها أثر بالغ في تكوين هذه العقيدة أحدها ملحمة درويشي عبدي في حوالي عام 1791م التي عبرت عن الدافع القومي كمحرض رئيسي على قتال السلطات العثمانية والعشائر المتحالفة معها؛ وقد كان لها بالغ الأثر على عاطفة الكرد القومية حيث برزت في فترة ثورة الاتحاد الملي بقيادة تمر باشا على السلطنة العثمانية والرغبة بإقامة إمارة كردية مستقلة تشمل كامل روجآفا (غرب كردستان)، والتحرر من الضرائب الباهظة والخدمة العسكرية الإلزامية حيث قاتل الكرد المسلمون والإيزديون وبعض حلفائهم من العرب بقيادة الإيزدي درويشي عبدي جنباً إلى جنب، والملحمة تشير الى المشاعر القومية البعيدة عن التزمت الديني بين الكرد، وقد تعرض الكرد إثر فشل ثورة تمر باشا للتنكيل إلا أنها بقيت محفوظة في ذاكرة الشعب الكردي. وهناك الثورات التي خاضها الكرد ضد الاستعمار الفرنسي حيث لعب الدافع الديني المحرض الرئيسي على القتال، التي يبدو أنها تأثرت بالتحولات التي طرأت على عقيدة الجهاد في فترة الحرب العالمية الأولى؛ فقد شهدت عقيدة القتال الإسلامية انقسامات بين العثمانيين والعرب؛ حيث أعلن كل طرف الجهاد، ويبدو أن الكرد انجذبوا إلى ثورة الشريف حسين حيث لم يظهر الكرد في روجآفا أية مشاعر وطنية عثمانية، قد يكون ذلك بسبب القمع الوحشي للثورات الكردية في شمال وجنوب كردستان.

50 الاتحاد الملي، هو عبارة عن تحالف مجموعة من العشائر الكردية والإيزدية والمسيحية والعربية، مع تشكيل الكرد الغالبية في هذا الاتحاد، تشكل للدفاع عن المصالح الاقتصادية لتلك العشائر وحمايتها من غزوات القبائل الأكبر؛ استطاع هذا الاتحاد استتباب الأمن في سهول روجآفا وصد غارات البدو وتحالفت مع عدد من القبائل العربية الكبيرة المستقرة وانصاف الرحل؛ وكلما قويت شوكتها كانت تثور على السلطة العثمانية الذين كانوا يقمعونها بوحشية كبيرة، وقد تحالفت مع جيش إبراهيم باشا المصري أثناء قتاله للعثمانيين، وفي السنوات الأخيرة من عمر السلطنة العثمانية تولى أمير هذا الاتحاد إبراهيم باشا قيادة الألوية الحميدية وأصبح مقرباً جداً من السلطان عبد الحميد الثاني واكتسب القوات المزيد من الخبرات العسكرية ورفض سلطة حكومة الاتحاد والترقي التركية ولم يستطع الصمود أمام هجمات الجيش التركي وبدأ حلفه القبلي بالتفكك خاصة بعد لجوئه إلى جبل شنكال حيث توفي سنة 1908م.

أصبح دافع الجهاد المحرض الأبرز على القتال خاصة في فترة الاحتلال الفرنسي 1920م بالتزامن مع نمو وعي قومي بتأثير من حركة خويبون ذات النزعة القومية الكردية[51]؛ وفي السنوات التي تلت الاحتلال الفرنسي للمنطقة برز تياران سياسيان رئيسيان بين الكرد أحدهما يطالب بإدارة ذاتية للكرد في المناطق التي يتواجدون فيها وتيار يطالب بالعيش تحت مظلة دولة إسلامية عربية مصطنعة محددة بتقسيمات اتفاقية سايكس بيكو؛ خلال هذه الفترة وحتى فترة الاستقلال برز طرفين عسكريين كرديين، الطرف الأول سموا بالمجاهدين واتخذوا من الجهاد ومحاربة الاحتلال الفرنسي عقيدة قتال رئيسية لهم وكان هذا التيار الأكثر نشاطا وتنظيماً وبرز فيه تياران، التيار الصوفي تحت مسمى حركة المريدين[52] (1939م) تركز نشاطها في المنطقة الجبلية من إقليم عفرين ونالت تعاطف المئات من الفلاحين المضطهدين من قبل كبار الملاكين المتواطئين مع الاحتلال الفرنسي والسلطة السورية الموالية لها، لعل من أبرز أهداف هذه الحركة نشر التعاليم الدينية وفقاً للطريقة النقشبندية والنضال ضد ظلم المستعمر الفرنسي والأغوات؛ والتيار الآخر قاده إبراهيم هنانو. تشير بعض المراجع إلى أن القوات المعروفة اختصاراً بجتة Çete المنظمة من قبل رجال الدين والمدعومين من قبل أتاتورك قبل انقلابه على السلطنة العثمانية شكل حجر الأساس للتيار الجهادي في هذه الفترة وذلك بغرض قتال الفرنسيين، وقد تم الغدر بهم من قبل الدولة التركية بعد توقيع اتفاقية فرانكلين- بويون (اتفاقية انقرة) عام 1921م التي تنازلت فيها فرنسا عن لواء الاسكندرون لصالح تركيا؛ بينما الطرف الثاني كان الأقل تنظيماً من الناحية العسكرية وطالب بإدارة ذاتية لسكان المنطقة بعيدة عن سلطات الحجاز والعثمانيين[53]. ولم ينجح التياران في نيل حقوق الكرد في روجآفا حيث تم اقصاؤهم من الحياة السياسية السورية[54] والاستيلاء على أراضيهم تحت مسمى قانون الإصلاح الزراعي وتجريد عشرات الآلاف من الجنسية السورية وممارسة سياسة افقار اقتصادي بحقهم.

بشكل عام كان يغلب نسبياً على عقيدة القتال الكردية في شرقي روجآفا الطابع القومي بينما كان الطابع الديني مهيمناً في غربه مع وجود تمددات متبادلة؛ وقد حدث صدام بين الطرفين في إقليم

---

[51] خويبون الاسم المختصر لجمعية استقلال كردستان تأسست عام 1927م وتعد امتداداً لجمعية آزادي الكردية التي تأسست حوالي عام 1921م في شمال كردستان التي كان لها دوراً بارزاً في تنظيم ثورة الشيخ سعيد عام 1925م... للمزيد راجع: روبرت أولسون؛ تاريخ الكفاح القومي الكردي (1880-1925)؛ ترجمة: أحمد محمود الخليل؛ الطبعة الأولى 2013؛ الناشر: دار الفارابي- بيروت؛ ص98.

[52] للمزيد راجع كلاً من:

رشيد حمو، ثورة جبل الاكراد "حركة المريدين"، (دراسة حول مقاومة الجبل وحركة المريدين ضد الاستعمار الفرنسي 1921-1941م)، الطبعة الأولى 2001؛ بلا ناشر.

Rojê Lêsko; Çiyayê Kurmênc û Tevgera Murûdan; Wergerandin: AMED, Lênêrîna ZîNĚ; Çiriya Pêşin 1990 Parîs.

[53] كان هذا الطرف الذين لقبوا (بالانفصاليين) لا يرغبون بالسيطرة المطلقة لدمشق على الجزيرة بحسب الوثائق الفرنسية وشكلوا لجنة الدفاع عن الجزيرة مكونة من الكاردينال تابوني، والبطريرك افرام برصوم من الطائفة السريانية الأرثوذوكسية، ومن الشيخ ميزر عبد المحسن رئيس عشيرة الشمر، ومن خليل إبراهيم باشا وحاجو آغا، وهما زعيمان كرديان كبيران... خالد عيسى؛ من وثائق الصراع على الجزيرة عام 1937-29؛ الناشر: موقع جلجامش 2010/2/10

[54] م.س لازاريف وآخرون؛ تاريخ كردستان؛ ترجمة: د. عبدي حاجي؛ الطبعة الثانية- 2011؛ النشر: مؤسسة سبيريز للطباعة والنشر- دهوك؛ ص236.

الجزيرة إثر مؤتمر توبز في تموز عام 1937م[55] الذي عقده مجموعة من وجهاء عشائر إقليم الجزيرة من الكرد والعرب والمسيحيين وطالبت بإدارة ذاتية لأبناء المنطقة بعد المظالم التي تسبب بها الموظفون التابعين لسلطة دمشق، وأعلن عن انتفاضة عسكرية سيطرت على معظم بلدات وريف إقليم الجزيرة إلا أن التيار الديني المتواطئ مع الكتلة الوطنية (القوموية والدينية) قامت بثورة مضادة وتسببت بمعارك دامية في عامودا التي تعرضت لقصف من قبل الطائرات الفرنسية حيث أصيب وفقد الكثير من الأبرياء لحياتهم؛ يبدو أن التنافس القبلي بين الزعماء الكرد المعزز بالاختلاف الأيديولوجي بين التيار الديني والقومي تسبب في انقسام عقيدة القتال الكردية وأضاع على الكرد فرصة مناسبة لنيل حقوقهم المشروعة تحت مظلة كيان ديمقراطي؛ وقد بلغ التوتر بين الطرفين إلى درجة اتهام المتدينين للقوميين بالكفر والإلحاد على الرغم من أن التيار القومي كان نسبياً أكثر وعياً من التيار الديني الدوغمائي، قد يكون ذلك بسبب تأثره بتجارب الثورات الكردية في أجزاء كردستان الأخرى.

نتيجة هذه النزاعات بدأت عقيدة القتال لدى الكرد بالانكماش التدريجي، ومع اعلان دولة سوريا عام 1946م بعد الحرب العالمية الثانية والسيطرة التدريجية للتيار القومي الشوفيني العربي على البلاد أصبحت عقيدة القتال الكردية المتحرضة بالدوافع القومية والدينية غير قادرة على تحقيق الدفاع الذاتي في وجه مخططات الإبادة الجماعية التي كانت تشن على الكرد خاصة في شقها المتعلق بعمليات التغيير الديمغرافي والإفقار الاقتصادي؛ حاول الكرد إعادة تنظيم صفوفهم بتأسيس الحزب الديمقراطي الكردستاني- سوريا عام 1957م إلا أنم فشلوا في صياغة عقيدة قتال جديدة يمكن أن تحمي حقوق الكرد، ليتوقف الكرد عن القتال، وأصبحوا أكثر خضوعاً لسلطات الدولة السورية والانخراط في الجيش كمقاتلين وفقاً لنظام التجنيد الإجباري، حيث تم استبعادهم عمداً عن الرتب والقيادات العسكرية.

يبدو أن عدم القدرة على بلورة عقيدة قتال جديدة للكرد تقاوم مختلف الهجمات التي تشن عليه تسبب بسلسلة من الانشقاقات في الحركة السياسية الكردية في روجآفا وتنامي الطرق الصوفية ذات الطابع الدعوي بينهم؛ من ناحية أخرى يبدو أنّ الطبيعة السهلية لمساحة واسعة من جغرافية روجآفا في الجانب السوري من الحدود السياسية مع الدولة التركية، وتطور أسلحة السلطة المركزية، وتركيز الطرق الصوفية على العمل الدعوي، وتنامي الحركة الشيوعية في روجآفا وغير ذلك لم تسمح أن تتطور الحياة العسكرية فيها، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في الضعف الذي أصاب عقيدة القتال الكردية في روجآفا، مما فرض على الشبان ذوي الروح القتالية خيارين، أما الانضمام إلى الحركات الكردية المسلحة في جنوب وشمال كردستان أو الهجرة.

بعد انتفاضة قامشلو في 12 آذار عام 2004م وتعرض الكرد للقمع من قبل الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة المركزية وبدعم من الميليشيات الشوفينية العربية الموالية لها؛ بدأ البعض من مقاتلي روجآفا في صفوف حزب العمال الكردستاني بالعودة إلى روجآفا والعمل على صياغة عقيدة قتال جديدة للكرد للدفاع عنهم تركزت على استراتيجية الدفاع الذاتي، وتم تشكيل وحدات قتالية سرية

[55] فارس عثمان؛ انتفاضة عامودا 1937 Toşa Amûdê؛ الناشر: موقع مدارات كرد؛ 2015/8/5م؛

صغيرة تحت مسمى مجموعات الحماية الذاتية، وبعد اندلاع الأزمة السورية عام 2011م شكلت هذه الوحدات الأساس لتشكيل مجموعة من القوات العسكرية والأمنية (YPG/YPJ/HPC/ASAIYŞ) على أسس الدفاع الذاتي المجتمعي في سياق براديغما الأمة الديمقراطية، وأصبح الدفاع الذاتي المجتمعي صلب عقيدة القتال للكرد في روجآفا وجذبت الكثير من المقاتلين، من أبناء المجتمعات العربية والمسيحية والإيزدية. أثبتت العقيدة الجديدة فعالية كبيرة في صد ومقاومة مختلف الهجمات والاعتداءات على سكان المنطقة من قبل الدولة التركية ومرتزقتها من تنظيمات داعش وجبهة النصرة وميليشيات الإخوان المسلمين، وكذلك من قبل الميليشيات الموالية للنظام السوري؛ وأثبت الدفاع الذاتي المجتمعي قدرة كبيرة في كسر الهجمات المتحرضة بفعل الدافع الديني المتمثل بالجهاد المُسخّر لقتل الكرد ونهب ممتلكاتهم وسبي نساؤهم واستعباد أبناؤهم؛ وأصبح الكرد بموجب هذه العقيدة قادرين على إدارة المعارك في المناطق السهلية أيضاً؛ على الرغم من ذلك وكالعادة في التاريخ الكردي أخذ بعض الكرد منحى آخر وصاغوا عقيدة قتال جديدة تتركز على الجهاد أو الموالاة الحزبية تحت غطاء كلٍ من القومية الكردية والثورات الكلاسيكية الكردية، وانخرط بعضهم الآخر في صفوف التنظيمات الإسلامية المتطرفة، بينما انخرط بعض الشبان المهاجرين إلى جنوب كردستان في تنظيم عسكري مدعوم من قبل الدولة التركية يحمل اسم (لشكري روج) أي (عساكر الشمس) لتمييزهم عن قوات البيشمركة، ولم يسجل التاريخ لهم أي عمل عسكري للدفاع عن الشعب الكردي في روجآفا[56]. لم يستطع هؤلاء المقاتلين جلب الأمن والأمان للمجتمعات الكردية في المنطقة بل يتم استغلالهم حالياً لإفشال المكاسب الكردية التي تحققت في ظل الإدارة الذاتية، وإحداث تحولات جذرية تخدم أعداء الشعب الكردي في روجآفا.

بشكل عام هناك جسمين عسكريين يضمان كرد روجآفا الأول الأقوى نسبياً والأكبر حجماً وهي وحدات حماية الشعب والمرأة التي تشكل النواة لقوات سوريا الديمقراطية المدعومة من قبل التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب، والثاني هي جماعة لشكري روج المدعومة من قبل الدولة التركية ويتخذ من نهج ثورة مصطفى البارزاني غطاءً عقائدياً له علماً أنهم لا يقتدون بنهج ثورة البارزاني (ثورة أيلول 1961م) في ثورة روجآفا، والذي وضع قواته في خدمة جمهورية مهاباد عام 1948م وعدم التنازل عن حقوق الكرد في جنوب كردستان أثناء فترة الثورة عام 1961م، لذلك يفسر البعض وجودهم من أجل الإيحاء بعدم اعتبار وحدات حماية الشعب والمرأة كقوات عسكرية تمثل كامل الكرد في روجآفا، وإتاحة الفرصة للمتحزبين من الكرد باحتواء الروح القتالية لبعض الشبان ومنعهم من الانضمام إلى هذه القوات، إلى جانب السعي لخلق واقع يفرّق الصف العسكري الكردي على غرار الانقسام في الصف السياسي الكردي، وبعضهم الآخر يطرحهم بديلاً في حال انهيار المؤسسات العسكرية القائمة في روجآفا إلا أنها تبدو عاجزة عن سد هذا الفراغ في حال نشوئه بسبب افتقارها للخبرة والعدد الكافي من القوات وعدم امتلاكها شعبية كبيرة بين نسبة كبيرة من كرد روجآفا؛ وقد انشق الكثيرون منهم، بعضهم عاد إلى روجآفا وبعضهم الآخر هاجر إلى أوروبا وتركيا، وبعضهم الآخر يستخدم في معارك ضد حزب العمال الكردستاني من قبل

[56] حسين فقه؛ الطبخة التي سميت بيشمركة روجآفا؛ الناشر: موقع خبر24؛ تاريخ النشر: 2021/1/13م؛

الدولة التركية. أما بالنسبة للميليشيات الكردية الناشطة في مناطق المعارضة الإخوانية السورية فلا يمكن اعتبارهم ممثلين للكرد أيضاً كونهم بمقام المرتزقة يتقاضون بدل نقدي مقابل خدماتهم القتالية تجاه شعبهم.

بشكل عام هناك سياسات مدروسة لمنع إقامة كيان عسكري كردي جامع لجميع كرد روجآفا باختلاف انتماءاتهم السياسية، تمارس من قبل الدولة المقتسمة لكردستان ومن قبل بعض الدول الكبرى التي كانت دائماً ضد نيل الكرد لحقوقهم؛ هذا الأمر يفرض على النخب الوطنية الكردية، وبشكل خاص السياسية والعسكرية، بذل جهود كثيفة لتذليل العقبات أمام إقامة كيان عسكري كردي جامع يمثل الحركة السياسية الكردية في روجآفا بمختلف تياراتهم وتوجهاتهم بالاعتماد على إرث الأجداد كاستراتيجية تضمن جزءاً من الأمن القومي الكردي.

ثالثاً- نمذجة المقاتل الكردي.

للمجتمع الكردي والبيئة الحاضنة له تأثير كبير في عقيدة القتال وفي نمذجة المقاتل الكردي استناداً إلى نظرية التعلم الاجتماعي[57] (نظرية التعلم بالملاحظة والتقليد) للباحث باندورا[58] التي تتركز على التفاعل الحتمي المتبادل المستمر للسلوك والمعرفة والتأثيرات البيئية؛ بشكل عام ما يهمنا في عقيدة القتال الكردية هي تلك التي تملك صلة وثيقة بالثورات والمعارك التي خاضها المقاتلون الكرد في سبيل نيل حريتهم وحقوقهم والدفاع عن كيانهم وثقافتهم، وتهميش عقيدة القتال المتعلقة بالنزاعات والخصومات ذات الصلة بالعادات والأعراف الاجتماعية والطموحات السياسية.

كردستان غنية بالأبطال إلا أنها تفتقر إلى القادة الاستراتيجيين أي الافتقار إلى قوة فكرية ومعنوية مبدعة، وقادرة على إبراز عبقرية حربية من بين صفوفه، فمعظم الثورات الكردية كانت ضعيفة التكتيك وكأنها تعتمد على المواجهة المباشرة على ظهور الخيل وكانت أقرب ما تكون إلى عمليات عصيان قروية أو غارات عشائرية؛ لقد فقد الكرد الكثير من روحهم الحربية الأصيلة مع انهيار الكونفدرالية الميدية عام 551م؛ يبدو أنَّ السلطنة العثمانية حاولت أيضاً التأثير في ما تبقى من هذه الروح خاصة بعد عام 1840م في سبيل إحكام سيطرتها على المناطق التي احتلتها من خلال سياسة عزل زعماء القبائل عن الحياة السياسية والعسكرية أو تصفيتهم ودعم سلطة شيوخ الدين ومريديهم خاصة المقربين من المؤسسة الدينية التابعة للسلطان، وهذا ما يتوافق مع رأي الباحث مينورسكي[59] الذي يحدد ثلاثة مظاهر مهمة أثرت ولا تزال تؤثر في طباع الكرد، وهي حياة القرون الوسطى للإمارات الكردية الصغيرة؛ والنظم القبلية للعشيرة الكردية، واستغلال الكرد لأغراض سياسية قذرة من قبل الزعماء الأتراك؛ يضاف إلى ذلك القصص والملاحم البطولية

---

57 للاطلاع على مفهوم هذه النظرية راجع: أ. علي راجح بركات؛ نظرية باندورا في التعلم الاجتماعي؛ جامعة أم القرى/ قسم علم النفس؛ الرابط:

58 ألبرت باندورا/ Albert Bandura ولد عام 1925م في كندا؛ عالم نفس مرموق وأستاذ علم النفس الاجتماعي في جامعة ستانفورد؛ له إسهامات كثيرة في مجالات علم النفس الاجتماعي، أبرزها نظرية الإدراك الاجتماعي، وعلم نفس الشخصية ونظرية التعلم الاجتماعي ونظرية فاعلية الذات، وهو أيضاً صاحب تجربة (دمية بوبو) الفعالة عام 1961م. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة- ألبرت باندورا.

59 فلاديمير مينورسكي؛ الأكراد/ ملاحظات وانطباعات- الأكراد أحفاد الميديين؛ ترجمة: د. معروف خزنه دار؛ الطبعة الأولى/1987؛ الناشر: رابطة كاوا للثقافة الكردية (السويد) ودار الكاتب (بيروت). ص87.

والأساطير الشعبية الكردية التي تنسج شخصية المقاتل الكردي منذ الصغر وقبل أن يصبح عملياً مقاتلاً، وما يشحنها بطاقة عنفية المخاطر المختلفة، والمعاناة وحياة البؤس والقهر الممارس عليه من قبل السلطات الاستبدادية.

بعد الحرب العالمية الثانية 1945م وما تركته من آثار سلبية على العالم وكردستان، وما تمخضت عنها من تبدلات في الخارطة السياسية والعسكرية العالمية؛ أصبح الكرد يتحولون إلى عقيدة سياسية وعسكرية جديدة مفرزة خمس نماذج للمقاتل الكردي، لكل نموذج عقيدة قتال خاصة به؛ يبدو أن كل نموذج أصبح له تسمية خاصة به؛ وهم الكيرلا، والبيشمركة، والمجاهدون الأكراد، والمرتزقة الأكراد، ومقاتلو روجآفا.

بالنسبة للمجاهدين الأكراد والمرتزقة الأكراد الذين برزوا في سياق تنظيمات الإسلام السياسي الموالية لتنظيم القاعدة وجماعة الإخوان المسلمين، والميليشيات الموالية للدولة التركية؛ هؤلاء يعتمدون عقيدة قتال ترتكز على توهم الجهاد في سبيل إقامة دولة خلافة إسلامية، ولا تشكل حقوق الشعب الكردي والديمقراطية أي قيمة لديهم، كنموذج على ذلك حركة المريدين في إقليم عفرين عام 1931م وجماعة أنصار الإسلام بقيادة الملا كري كار في جنوب كردستان التي برزت عام 2003م؛ لذلك من المجحف اعتبارهم مقاتلين كرد حقيقين بل هم مقاتلون في سبيل ثقافة لا تمت بأي صلة للكرد ويختلفون جذرياً عن الجهاديين الكرد في الثورات الكردية السابقة كثورة الشيخ عبيد الله النهري 1880م وثورة الشيخ محمود البرزنجي وثورة سمكو الشكاكي وثورة الشيخ سعيد وثورة أيلول عام 1961م وغيرهم، فهم يفتقدون إلى الروح الحربية الكردية الأصيلة كونهم يقاتلون في سبيل تنظيمات وأنظمة أخرى تكن العداء للشعب وللثقافة الكردية العريقة، وتملك نظرة دونية وتكفيرية تجاه معظم الشعب الكردي، وقد تسببوا أو ساهموا بجرائم فظيعة ضد المجتمعات الكردية كجماعة أنصار الإسلام وحزب الله التركي والجحوش والكروجي وصوفيك وچتة؛ فمثلاً الـ جتة Çete ميليشيات مرتزقة معناه في اللغة الكردية قطاع الطرق، تعود بدايات بروزها في إقليم عفرين إبان فترة الاحتلال الفرنسي[60] عندما قام أتاتورك المناهض للإسلام بتشكيل ميليشيات مرتزقة من بعض المتدين البسطاء من الكرد لمحاربة الفرنسيين، وتمكن أتاتورك من تسخيرهم واستغلالهم بمهارة عالية باستخدامهم كورقة ضغط على فرنسا للتنازل عن لواء الاسكندرون لصالح الدولة التركية الجديدة وهذا ما تم بعد توقيع اتفاقية أنقرة عام 1921م، وبعد ذلك تخلى عنهم حيث استطاع الفرنسيون قمعهم وإنهاء وجودهم. وحالياً يطلق هذا الاسم على الميليشيات الكردية المرتزقة التي تتلقى الدعم والتدريب والتسليح من قبل الدولة التركية الحالية والتي تنفذ عمليات تطهير عرقي بحق الكرد في المناطق التي تحتلها في عفرين وكري سبي/تل أبيض، وسريكانييه/رأس العين، وتستخدمها كورقة ابتزاز ضد الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا.

من ناحية أخرى يبدو أنّ لكلٍ من الخصومات العشائرية، كمثال بين البارزانيين والزيباريين والسورجيين وغيرهم؛ والنزاعات والتنافسات المذهبية بين الطرائق الصوفية القادرية والنقشبندية، وبين الطرائق النقشبندية نفسها كالصوفية الهركية والبرادوستية والبارزانية وغيرهم؛ ساهمتا في

[60] للمزيد راجع: رشيد حمو، ثورة جبل الاكراد "حركة المريدين"، (دراسة حول مقاومة الجبل وحركة المريدين ضد الاستعمار الفرنسي 1921-1941م)، الطبعة الأولى 2001؛ بلا ناشر.

بروز نموذج جديد من المقاتلين الكرد تحت مسمى الجحوش، والذي تشكل من مقاتلي بعض عشائر جنوب كردستان التي تمتلك صراعات وخلافات، عشائرية أو مذهبية، مع اتحاد عشائر بارزان[61]، وقد نالوا الكثير من الامتيازات المادية والمعنوية من السلطات الاستبدادية في بغداد، الأمر الذي أضعف ثورة أيلول (1961م) ويبدو أنها كانت من أحد أسباب فشلها، حيث يعتبرها مسعود البارزاني، زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني، السبب الرئيسي في عدم تمكن قوات البيشمركة[62] من تحطيم الجيش العراقي الذي كان يعاني آنذاك من انقسامات وفساد وفتن أيديولوجية.

ويندرج في سياق هذين المثالين النماذج الأخرى كجماعة أنصار الإسلام وحزب الله التركي والجحوش والقروجي والصوفيك وغيرهم. وبالتالي يبقى لدينا ثلاثة نماذج للمقاتل الكردي في التاريخ المعاصر.

البيشمركة

البيشمركة تقابل كلمة فدائي في اللغة العربية، برز هذا المصطلح بشكل واسع في النصف الأول من القرن العشرين وبشكل خاص في كلٍ من جنوب وشرق كردستان، وهو وصف لمقاتلي العشائر الكردية المتفرغين للأعمال القتالية؛ استطاع زعماء اتحاد عشائر بارزان[63] تحويل البيشمركة إلى قوة عسكرية منظمة واستقطاب الكثير من مقاتلي البيشمركة من عشائر كردية أخرى. لعب البيشمركة دوراً مؤثراً في مقاومة استبداد السلطات العراقية الموالية لبريطانيا ولاحقاً البعثية، وفي دعم جمهورية مهاباد عسكرياً عام 1948م وكذلك في المعارك الظافرة التي تخللت ثورة أيلول عام 1961م، وتحولت إلى قوة معنوية مؤثرة زادت من معنويات الشعب الكردي في تلك الفترة ليتحول مقاتل البيشمركة إلى رمز للبطولة القومية؛ حتى أنها استقطبت الكثير من الفلاحين الكرد كفئة مقهورة في مجتمع اقطاعي وقدموا الكثير من التضحيات، يبدو أن التحول الى بيشمركة كان يخلق لهم مناخاً من الإرادة الحرة ونوعاً من الدفاع الذاتي؛ إلا أنّ هذه القوة المعنوية بدأت بالتلاشي التدريجي نسبياً مع تأثرها بالخلافات السياسية التي شهدتها الحركة السياسية الكردية في جنوب كردستان، وبالتحديد داخل الحزب الديمقراطي الكردستاني- العراق خاصة بعد عام 1975م التي شهدت اتفاقية الجزائر المشؤومة بالنسبة للكرد؛ لتنقسم قوات البيشمركة إلى قوتين منفصلتين سياسياً وعسكرياً بين كلٍ من الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة إبراهيم أحمد وجلال الطالباني من جهة، والحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة عائلة الملا مصطفى البارزاني من جهة أخرى، وحدثت بين الطرفين نزاعات دموية تركت آثاراً من الحزن والأسى في الذاكرة السياسية الكردية؛ ويبدو أنّ تأثير هذا الانقسام امتد إلى قوات البيشمركة في شرق كردستان، ولا يزال هذا الانقسام مستمراً إلى وقتنا الراهن وفشلت مختلف الجهود التي بذلت لتوحيدها مجدداً.

---

61 مسعود البارزاني؛ ألبارزاني والحركة التحررية الكردية/ الجزء الثالث (ثورة أيلول 1961- 1975)؛ أربيل 2002؛ بدون ناشر ورقم طبعة. ص52.

62 نفس المصدر السابق؛ ص9.

63 للمزيد بخصوص هذه الفقرة راجع: مسعود البارزاني؛ ألبارزاني والحركة التحررية الكردية/ الجزء الثالث (ثورة أيلول 1961- 1975)؛ أربيل 2002؛ بدون ناشر ورقم طبعة.

يمثل البيشمركة الأصيل تطوراً للمقاتل الكلاسيكي الكردي، وتتميز عقيدة القتال لديه بمشاعر قومية سامية وبشجاعة في القتال، واستعداد تام للتضحية، وكراهية شديدة للعدو. يقاتل في سبيل حقوقه القومية وحماية شعبه من الإبادة الجماعية، ويشكل الجهاد طاقة معنوية له إلى جانب المشاعر القومية فهو بذلك يشبه باقي المقاتلين الكرد الذين انخرطوا في ثورات شيوخ الكرد في الماضي؛ أسلوبه القتالي يعتمد على الكمائن وعمليات الكر والفر في معاركه الهجومية، بينما يخوض قتال الجبهات في معاركه الدفاعية حيث يتوسطون أثناء القتال بين العدو والجبال، وقد اكتسبوا المزيد من الخبرات القتالية من خلال ثورة الشيخ محمود الحفيد على البريطانيين عام 1919م، وفي المعارك التي خاضوها ضد السلطات الاستبدادية المتعاقبة في بغداد، وفي بعض المعارك التي خاضوها إلى جانب بيشمركة جمهورية مهاباد؛ بالإضافة إلى الدورات العسكرية التي خضعوا لها إبان فترة لجوء قسماً كبيراً منهم إلى الاتحاد السوفيتي عام 1948م بعد انهيار جمهورية مهاباد؛ إلا أن نقطة الضعف لديهم فتكمن في العاطفة العشائرية أو المذهبية والصلة الوثيقة بالعائلة والممتلكات بشكل عام؛ قد يكون هذا الأمر من أبرز الأسباب الكامنة وراء الانقسام الذي حلّ بقوات البيشمركة.

يبدو أن تحول البيشمركة في الآونة الأخيرة إلى جيش منظم ومقسم بين طرفين سياسيين رئيسيين قد أضعف الكثير من عقيدة القتال لديه كتشكيل عسكري له خصوصياته ومظاهره، قد يعود سبب ذلك إلى كون جيش البيشمركة الحالي يضم أشخاص ليس بالضرورة ذوي صفة محاربين حقيقيين، قد يكون انضمامهم لدوافع مادية[64] أو بدون إرادة وفقا لنظام التجنيد الإجباري أو لدوافع حزبية. كما أن عدم خوض أي قوة عسكرية مهما كانت صفتها للقتال لسنوات طويلة يتسبب في ترهل عقيدة القتال لديها في عصر يمتاز بتقنيات عسكرية متطورة جداً. فمثلاً عندما كان عددهم لا يتجاوز الـ 5000 مقاتل في ثورة أيلول كان البيشمركة يحققون انتصارات مذهلة، حتى أنهم قاموا بتقديم المساعدة العسكرية للحركة السياسية الكردية في شرق كردستان؛ ولكن أصبح الآن عددهم أكثر من مئة ألف مقاتل مسلحين بأفضل الأسلحة مقارنة بسلاحهم في فترة الستينات وقبلها، وعلى الرغم من ذلك تعرض الإيزديون لمجازر وانتهاكات رهيبة على يد تنظيم داعش الإرهابي، وفقدت الكثير من المناطق الكردية، وانتزعت كركوك من الكرد إثر ما سمي باستفتاء انفصال كردستان العراق عام 2017م؛ يبدو أن هذا الأمر يتطلب تقييماً ذاتياً موضعياً ومعمقاً من قبل النخبة من قادة البيشمركة في جنوب كردستان وتنمية الروح الحربية الأصيلة في مؤسسة البيشمركة.

بالاستناد على ما سبق فأنّ صفة البيشمركة تخص المقاتل الكردي الذي يحارب أعداء الكرد، ويدافع عن أي كردي ضد أي عدو للشعب الكردي، ويحتل مكانة سامية في مشاعر جميع الكرد، بغض النظر عن الخلافات القبلية والعقائدية، تجلى ذلك في نصرة بيشمركة جنوب كردستان لجمهورية مهاباد واشتراك معظم بيشمركة عشائر جنوب كردستان في مقاومة كل من السلطات

[64] للمزيد عن حالة الانقسام في قوات البيشمركة وضعف عقيدة القتال لديها، راجع:
ماريو فومرتون- فلاديمير فيلغنبورغ؛ تحدّي توحيد قوات البيشمركة؛ الناشر: مركز مالكوم كير- كارنيغي للشرق الأوسط/ تحليل إقليمي؛ تاريخ النشر: 2015/12/16م

الاستبدادية العراقية والاستعمار الإنكليزي، ومشاركة العشرات من البيشمركة في تقديم الدعم لمقاتلي روجآفا في معارك المقاومة في كوباني إلى جانب الكيرلا، وكل ما يقع خارج هذا السياق لا يعتبر بيشمركة، ويفند ادعاءات بعض الميليشيات المرتزقة التي برزت أخيراً والمدعومة من الدولة التركية بكونها تمثل عقيدة البيشمركة، بل تشوه هذه العقيدة بتدبير من أعداء الشعب الكردي.

الكيريلا

الكيريلا، كلمة مشتقة من كلمة Guerrilla الإسبانية الأصل وتعني المقاتل الذي يخوض حرب العصابات ضد الأعداء المستبدين، برز مفهومه أثناء مقاومة الشعب الإسباني لجيوش نابليون في أعوام (1808-1813) للدفاع عن ممتلكاتهم وعائلاتهم ووطنهم لذا فأنه يمتاز بتعاطف عميق من قبل قاعدة شعبية واسعة. وقد فسرها أحد الضباط المنخرطين في حروب ضدها بأنها بمثابة "الحروب الصغيرة"[65] التي تناظر "الحروب الكبيرة" المعهود بها إلى "الجيوش النظامية"؛ أما أبرز تعريف لعقيدة القتال الخاصة بالكيرلا فقد قدمه الثوري العالمي جيفارا[66] باعتبار الكيرلا "مصلح اجتماعي، حمل السلاح تلبية لسخط الجماهير ضد مضطهديها، ويقاتل من أجل تغيير النظام الاجتماعي الذي يترك كل أخوته العزل رهن البؤس والعار. أنه يلقى بنفسه في لحظة معينة ضد شروط الأنظمة الحاكمة ويكرس نفسه لتمزيق عفونة هذه الأنظمة بكل ما تسمح به الظروف من عزم... وهو قائد نفسه لا يجوز أن يموت في كل معركة، أنّه على استعداد للتضحية بحياته ومستعد ليموت لا لحماية مثل أعلى بل لوضع المثل الأعلى في حيز الواقع...".

أصبحت كلمة (كيرلا) مرادفة لنموذج جديد من المقاتلين الكرد الذين يصنفون كممثلين للكادحين في المجتمعات الكردستانية. يشكل مقاتل الكيرلا تطوراً فريداً في شخصية المقاتل الكردي وفي عقيدة القتال لديه بشكل متمايز عن بقية مقاتلي الكيرلا في المجتمعات الإنسانية الأخرى، فبالإضافة إلى تمتعه بالروح الحربية الأصيلة التي يتمتع بها البيشمركة فأنه طور تكتيكاته القتالية بالارتكاز على تجارب مقاومة شعوب الصين وفيتنام وكوبا وإسبانيا وفلسطين وغيرها ضد المستعمرين والمستبدين؛ إلا انّ ما يميز مقاتل الكيرلا الكردي بشكل واضح هو مشاركة المرأة بفعالية أكبر في القتال وعلى قدم المساواة مع الرجل، والانفصال عن الحياة الدنيوية، وكأنه شكل من أشكال التصوف، وتركيز كامل الطاقات البدنية والنفسية والفكرية في سبيل تحرير المجتمعات الكردستانية من البؤس والقهر والاستبداد وفق ضوابط تندرج في إطار القيم الأخلاقية المترسخة في الثقافة الكردية العريقة البعيدة عن الدوغمائية وثقافة الكراهية؛ وتستند عقيدة القتال لديه على الدفاع الذاتي المشروع كونه يعتبر وطنه محتلاً من قبل دول استبدادية ويتعرض شعبه لإبادة ثقافية وجماعية ويقع على عاتقه الدفاع عن نفسه وعن ثقافته وعن شعبه، كما أنه مستعد لتقديم المساعدة لمجتمعات أخرى تنبذ ثقافة الكراهية وتعاني من الاستبداد وتناضل من أجل نيل حريتها في إطار براديغما الأمة الديمقراطية التي يتبناها، كتقديم الدعم للمقاومة الفلسطينية، ولسكان روجآفا، ولكلٍ من شرقي

[65] اللواء موشي دايان؛ محاضرات عن حرب العصابات/ الهجومية والدفاعية؛ مكتبة الإسكندرية؛ بدون تاريخ ورقم طبعة ومترجم. ص5.

[66] للمزيد راجع: ارنستو جيفارا؛ حرب العصابات؛ ترجمة ناهض منير الريّس؛ الناشر: الاتحاد العام لطلبة فلسطين؛ بدون تاريخ ورقم طبعة.

وجنوبي كردستان، وللإيزديين ولغيرهم، وقد بلغ المستوى التنظيمي إلى درجة إنشاء جيش خاص بالمرأة الكيرلا عام 1993م في بوطان وبهدينان واستنساخ تجربتها من خلال تأسيس وحدات حماية المرأة YPJ في روجآفا عام 2013م. وتندرج المقاومة التي أبداها المقاتلون الكرد في روجآفا في سياق الأزمة السورية منذ عام 2011م في إطار عقيدة القتال الخاصة بالكيرلا كون أغلب قادة المعارك كانوا في الأساس من الكيرلا الذين عادوا إلى روجآفا بعد تعرضها لهجمات كل من فرعي تنظيم القاعدة جبهة النصرة وتنظيم داعش وميليشيات الإخوان المسلمين المدعومين من قبل الدولة التركية وهجمات النظام السوري، وأسسوا قوات عسكرية منظمة بالاستناد على تجربة حركة حرية كردستان التي يبلغ عمرها أكثر من ثلاثين سنة، وكان لهم الفضل في مساعدة المجتمعات العربية والمسيحية والكرد الإيزديين في مقاومة هجمات تنظيم داعش وإسقاط دولته الاستبدادية. وهذا ما يفسر قدرتها على الصمود والمقاومة وإدارة المعارك بحرفية عالية ومهاجمة المدرعات والقتال لمسافات لا تتجاوز 20 مترا؛ هذه التجربة لم يتعلموها من المدراس العسكرية لأعداء الشعب الكردي بل وفقاً لنظرية التعلم الاجتماعي.

تتركز استراتيجية مقاتلي الكيرلا على تهيئة ظروف وأرضية مناسبة لإقامة جيش كردستاني من شأنه أن يؤمن الحماية الكاملة للمجتمعات الكردستانية، ومن أجل ذلك يبدو أنه يعتمد على تكتيك تجزئة الحرب الشاملة مع العدو إلى سلسلة متناسقة من المعارك الصغيرة نسبياً وفقا لقاعدة (الضرب والاختفاء) المستمر والمتناسق، الأمر الذي يقلل من خسائر الثوار وتزيد من خسائر العدو ويحقق التوازن النسبي في الفروقات المتعلقة بنوعية التسليح والقوة النارية واللوجستية؛ يبدو أن العدو يدرك حقيقة هذا الأمر، وفي سبيل تعويض خسائره فأنه يعتمد على إلحاق أكبر ضرر ممكن بالقرى والأرياف الكردية لموازنة خسائره لدى الرأي العام، يبدو أن هذا الأمر يُفشل محاولات العدو في تمكين سيطرته على المجتمعات الكردستانية. لم تعاني قوات الكيرلا من أية انقسامات، قد يعود ذلك إلى مرونة حزب العمال الكردستاني ونظرته الديالكتيكية في التعامل مع ضعاف الإرادة وفسح المجال لهم للعودة إلى عائلاتهم وعدم الانتقام من الذين ينشقون عنهم، يبدو أن هذا الأمر يندرج نسبياً في سياق نظرية الاصطفاء الطبيعي؛ إلى جانب الضوابط الثورية الصارمة التي يتقيدون بها، وبعكس الانقسام تمددوا إلى خارج شمال كردستان وأصبح لكل جزء من كردستان مقاتلوها من الكيرلا ولكن ذوي عقيدة قتال واحدة ويقدر عددهم بعشرات الآلاف.

على الرغم من ذلك لم تسلم قوات الكيرلا من التجربة المريرة التي مرت بها قوات البيشمركة مع الجحوش، حيث عمدت السلطات التركية المتعاقبة على تأسيس ميليشيات عسكرية مرتزقة تحت مسمى حماة القرى المعروفة بالكروجي وميلشيات مختصة في عمليات الاغتيال والأعمال الاستخباراتية القذرة تحت مسمى حزب الله التركي المعروف لدى الكرد باسم (صوفيك) من باب التحقير وتمييزهم عن الصوفية الكردية التي يعتبرها القائد الكردي أوجلان[67] جزء من الإسلام

[67] يعتبر القائد الكردي عبد الله أوجلان أن للتصوف علاقة وثيقة بالجوانب الأخلاقية والوجدانية المجتمعية... ويعرفه "بأنه تنظيم إسلامي مجتمعي قائم في وجه الإسلام المتجه سريعاً نحو التسلط... وهو شكل من أشكال التضامن الشعبي، وملاذاً يلجأ إليه...والطرائق (الصوفية) ضربٌ من تنظيمات الدفاع الذاتي...". عبد الله أوجالان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية/ القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية؛ المجلد الخامس- الطبعة الثالثة 2018م؛ ترجمة: زاخو شيار؛ بدون ناشر. ص95.

المجتمعي ونوعاً من الدفاع الذاتي ضد الاستبداد والتسلط، بدلاً من أن تعمد الدولة التركية على حل القضية الكردية وفقاً للمعايير الديمقراطية والوطنية. يبدو أن الكيرلا استطاعوا احتواء خطر هذه الميليشيات وتطوير تكتيكاتهم بطرح عقيدة قتال جديدة تحت مسمى الحرب الشعبية الثورية، لا تعتمد فقط على العنف المسلح وإنما على الإضرابات والمظاهرات والانتفاضات وغير ذلك بشكل يفسح المجال لمشاركة غير المقاتلين من المجتمعات الكردستانية في أعمال عنفية ليست ذات طابع مسلح ضد العدو، من المحتمل أن يكون هذا الأمر من الأسباب الرئيسية في صمود مقاتلي الكيرلا في مواجهة القوة العسكرية الكبيرة لكل من الدولتين التركية والإيرانية لأكثر من ثلاثين سنة على الرغم من أسر القائد الكردي عبد الله أوجلان وفقدان الكثير من القادة، ويبدو أنها تزداد قوة، قد يعود السر الكامن وراء هذا الأمر أتباع قادة حركة حرية كردستان استراتيجية تحويل جميع مقاتلي الكيرلا إلى قادة أي يمكن لأي مقاتل كيرلا أن يتحول إلى قائد في أي لحظة، وذلك بالاستناد على بعض الدروس العسكرية الخاصة بالحركة بعد اطلاعنا عليها.

لا يجد كلاً من مقاتلي البيشمركة والكيرلا حرجاً في التكاتف للدفاع عن المجتمعات الكردستانية؛ فمثلاً في معارك مقاومة كوباني ومعارك جنوب كردستان ضد الهجمات الوحشية لتنظيم داعش على سكان المدينة و(إقليم كردستان العراق) كان لتكاتف الكيرلا والبيشمركة (بقسميه) دوراً في تفجير طاقة معنوية هائلة للكرد وفي إلحاق هزائم كبيرة بالتنظيم؛ الأمر الذي يفسر الطاقة المعنوية المنخفضة لغالبية الكرد المتزامنة مع تأجج النزاعات داخل الحركة السياسية الكردستانية؛ يبدو أن أعداء الكرد يدركون هذه الحقيقة.

مقاتلو روجآفا

تشكل تجربة وحدات حماية الشعب والمرأة التي تشكل النواة الصلبة لقوات سوريا الديمقراطية، وقوات حماية المجتمع HPC وقوات مكافحة الإرهاب تجربة فريدة في التاريخ العسكري الكردي المعاصر؛ فانبثاقها في خضم الأزمة السورية القصيرة نسبياً والبطولات التي حققتها في المعارك التي خاضتها وانتصاراتها الكثيرة بمواردها وامكانياتها البسيطة تفرض احترامها بقوة، وتشفع لها بعض أخطائها؛ وأصبحت كلمة يَبَكَ/ YPG تسمية مميزة للمقاتل الكردي في روجآفا.

يشكل مقاتل روجآفا نموذجاً فريداً، فهو يبدو مزيجاً من مقاتل البيشمركة ومقاتل الكيرلا وجندياً يتعامل مع تشكيلات عسكرية شبه نظامية، قد يتعجب المرء من هذه النظرية؛ إلا أن الحقيقة تبدو هكذا؛ ففي بداية الأزمة السورية ومع مهاجمة الميليشيات المحسوبة على المعارضة السورية الموالية لنظام أردوغان على المناطق التي يتركز فيها الكرد؛ برزت الروح الحربية الكردية الكلاسيكية التي يمثلها مقاتل البيشمركة الأصيل، تجلى ذلك باندفاع المقاتلون الكرد شيباً وشباباً لمقاومة المعتدين والدفاع عن مناطقهم بشجاعة على الرغم من عدم خضوع الكثير منهم لتدريبات عسكرية مكثفة أو تجربة قتالية سابقة، وكأنه نمط حديث من مقاتلو البيشمركة الذين كانوا يهبون للدفاع عن قبائلهم ومناطقهم؛ إلا أن هذه الروح الحربية كانت معززة ومنظمة من قبل مجموعة من قادة الكيرلا من أبناء روجآفا الذين كانوا منخرطين في صفوف قوات الدفاع الشعبي HPG وعادوا للدفاع عنها بحسب العقيدة العسكرية لهذه القوات، وعمل هؤلاء القادة على تطوير القدرات الحربية

لمقاتلي روجآفا من خلال الخروج من إطار حرب الأنصار (حرب العصابات) إلى خوض حرب الجبهات بالاعتماد على الأسلحة الثقيلة كالمدرعات والدبابات والمدافع ضمن تشكيلات عسكرية شبه نظامية تمثلت مؤخراً في قوات سوريا الديمقراطية، قد يكون للتجربة السابقة لبعض المقاتلين الذين انخرطوا في الخدمة العسكرية للدولة السورية ومشاركة بعضهم في حروب السلطة المركزية في الجولان ولبنان دور مساهم في ذلك، وقد وصلت الكفاءة العسكرية إلى درجة إقامة علاقات دبلوماسية على المستوى العسكري مع عدد من القوى الدولية والإقليمية ونال أحد قادتها لقب الجنرال. تعد براديغما الأمة الديمقراطية التي طرحها القائد الكردي عبد الله أوجلان كحل للقضية الكردية الطاقة الكامنة لعقيدة القتال لدى مقاتلي روجآفا من خلال اعتماد عقيدة الدفاع الذاتي ذات الصلة بقسم كبير من أسلاف الكرد كالكاردوخ، وكقوات كارا لدى الميديين من خلال قوات حماية المجتمع HPC؛ أي الاستعداد والجاهزية المستمرة لقتال أي قوة تحاول الاعتداء على مجتمعات روجآفا من قبل المقاتلين وعامة أفراد المجتمع على حدٍ سواء، وبالفعل نجحت نسبياً في حماية مئات الألوف من المدنيين من القتل والاستعباد والسبي والنهب والسلب، يبدو أن هذه الاستراتيجية كان لها الفضل في الصمود وهزيمة كلٍ من تنظيم داعش الإرهابي وجبهة النصرة وميليشيات الإخوان المسلمين المعروفين باسم الجيش السوري الحر، وإجبار الدولة التركية على استخدام أفضل أسلحتها وقواتها ومرتزقتها لاحتلال بعض المناطق من روجآفا مؤخراً.

استناداً على ذلك يمكن اعتبار المقاتل الكردي في روجآفا نموذجاً لتوحد مقاتلي البيشمركة والكيرلا، ونموذجاً جديداً للمحارب الكردي القادر على التعامل مع حرب العصابات وخوض الحروب النظامية بشكلٍ متزامن، يبدو أن هذا الأمر هو السر الكامن وراء عجز الأنظمة المعادية لإرادة الشعب الكردي في كسر عقيدة القتال لدى مقاتلي روجآفا كتركيا وإيران والبعثيون وروسيا والتنظيمات المتطرفة الموالية لكلٍ منها، بدليل استخدام قوات عسكرية ضخمة في الهجمات التي تشن على روجآفا مؤخراً خاصة في عين عيسى والشهباء حيث تم إفشال معظمها.

يبدو أن مقاتلي روجآفا لم يسلموا أيضاً من تجربة البيشمركة مع الجحوش، وتجربة الكيرلا مع القروجي والصوفيك؛ حيث تشكلت مجموعة من الميليشيات المرتزقة من قبل الدولة التركية تحت مسميات مضللة لمحاربة الشعب الكردي في روجآفا كميليشيا آزادي وصلاح الدين ويوسف العظمة وغيرهم مقابل المال، أطلق عليهم الكرد اسم جتة، وشاركوا في الكثير من المعارك ضد وحدات حماية الشعب والمرأة لم يحققوا فيها انتصاراً واحداً على هذه الوحدات؛ وكانت لهم مساهمة في احتلال مناطق عفرين وكري سبي وسري كانييه من خلال تقديم الدعم الاستخباراتي والقتالي لجيش الاحتلال التركي الذي تسبب بمجازر رهيبة بحق الكرد في روجآفا[68] واحتل العديد من مناطقها؛ وحالياً يتم تنفيذ عمليات تغيير ديمغرافي وإبادة ثقافية للكرد من خلال سياسة تتريك ممنهجة في المناطق المحتلة.

[68] تم توثيق المئات من هذه الانتهاكات الفظيعة وعرض بعضها في المنتدى الدولي حول (التطهير العرقي والتغيير الديمغرافي في عفرين) الذي أقامه مركز روجآفا للدراسات الاستراتيجية في إقليم الجزيرة عام 2018م بعد احتلال عفرين من قبل الدولة التركية ومرتزقتها؛ ولا تزال هذه الانتهاكات مستمرة وهناك العشرات من الملفات الموثقة لدى المنظمات الحقوقية العاملة في روجآفا.

زاد القادة العسكريون في روجآفا من كفاءة فئة مميزة من المقاتلين وتطويرها من خلال اعتماد تشكيلات قتالية جديدة تعتمد الروح الحربية لدى الكيرلا وبنفس الوقت مدربة على أسس قتالية حديثة على يد بعض الخبراء في التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب؛ لتبرز قوات مكافحة الإرهاب HAT ووحدات مكافحة الإرهاب YAT كقوات نخبة ذات جهوزية قتالية دائمة وتعد بمثابة فدائيين في الصفوف الأمامية للقتال في مقاومة مختلف الاعتداءات على مجتمعات روجآفا، وتبدو بنفس الوقت خياراً فعالاً لمواجهة أي خمول في عقيدة القتال لدى مقاتلي روجآفا جراء التوقف المؤقت عن القتال بعد الهزيمة الميدانية لتنظيم داعش، وبروز مخاطر جديدة متمثلة في الدولة التركية المسلحة بأحدث الأسلحة، إلى جانب محاولات النظام السوري زعزعة الاستقرار في مناطق شمال وشرق سوريا.

بالنسبة للمناطق المحتلة من قبل الدولة التركية خاصة في إقليم عفرين بدأ المقاتلون الكرد هناك بمقاومة الاحتلال من خلال اعتماد تكتيكات الكيرلا الهجومية ضمن تنظيم عسكري يحمل اسم قوات تحرير عفرين، حيث تعمل على تهيئة الظروف العسكرية المناسبة والداعمة لعمليات تحريرها مستقبلاً من قبل أي كيان عسكري كردي متطور عن وحدات حماية الشعب والمرأة.

أخـــــــــيراً.

يعد توحيد عقيدة القتال عنصر رئيسي من عناصر تأسيس كيان عسكري متماسك وقوي؛ فالقتال مهنة دقيقة تتطلب قدرات فكرية ونفسية وبدنية كبيرة وضوابط أخلاقية ووجدانية متوازنة؛ لذلك من المفروض اختيار الأشخاص المناسبين لها وفقاً لمعايير متأطرة بتلك القدرات والضوابط؛ ويبقى التدريب العامل الرئيسي في تنمية هذه المعايير؛ كما أن عقيدة القتال تستمد طاقتها من المجتمع فلا يمكن للقوات مهما كان حجمها أن تستمر في المقاومة أو التحدي ما لم يزودها المجتمع بالمقاتلين المستعدين للتضحية بالذات.

على الرغم من امتلاك الكرد لعقيدة قتال متميزة ويصفون تاريخياً بالشعب المحارب إلا أن انتصاراتهم قليلة ولم يتمكنوا من إقامة كياناً سياسياً يحتضن الأمة الكردية في داخله، يبدو أن الأسباب الكامنة وراء هذا الأمر كثيرة لعل أبرزها:

افتقار كردستان إلى القادة الاستراتيجيين حيث هناك مقولة تنسب إلى الكاتب الكردي الكبير أحمدي خاني "لو كان لنا قائد لالتففنا حوله ولأصبح لنا دولة ووطن"؛ وقد فشل زعماء القبائل والشيوخ في خلق شخصية القائد المنقذ على غرار كاوى الحداد وكيخسرو، والافتقار إلى عقيدة وطنية جامعة، فهم يضعون الدين أو المذهب أو العشيرة أو الحزب أمام القومية والأمة بعكس أقربائهم الفرس الذين اتخذوا من المذهب الشيعي عقيدة جامعة لهم واستطاعوا بناء كياناً قوياً يجابه أقوى دول العالم ويحمي ثقافتهم وجغرافيتهم ونفس الأمر نسبياً بالنسبة لجيرانهم العرب.

كما أن تقسيم جغرافية كردستان بين أربع دول تسبب بانعزال الكرد عن بعضهم الأمر الذي زاد من القطيعة الثقافية بينهم، فالكردي في شمال كردستان يتعرض لسياسة تتريك ممنهجة بينما في إيران والعراق وسوريا يتعرض لسياسات تعريب وتفريس ممنهجة؛ المقاتل الكردي في شمال كردستان أصبح يمتلك طباعاً خاصة به فهناك مقاتل ثائر يقاوم استبداد الدولة التركية وهناك مقاتل

آخر منخرط في صفوف الجيش التركي لكل منهما عقيدة قتال خاصة به؛ وفي العراق وسوريا وإيران يتكرر الأمر على هذا المنوال؛ لذا فأن توحيد الكرد في هذه الظروف المعقدة يتطلب قادة استراتيجيين غير عاديين وأي مؤشرات توحد بتأثير خارجي لن تكون ذات فعالية كبيرة على غرار تجربة إقليم كردستان العراق. لذا يبدو أن بناء أجيال كردية جديدة بعيدة عن الجدالات الحزبية والأيديولوجية الحزبية العقيمة وزيادة الوعي السياسي والمعرفي قد يبعث بأمل لبروز قادة مستقبليين بارزين خاصة أن الإبادات الجماعية بحق الكرد تبدو أنها ستستمر بوتيرة أعلى نسبياً، وتشريد الكرد من عفرين وسري كانييه وكري سبي وشنكال سيهيئ أرضية مناسبة لديمومة فكرة الانتقام من مصادر البؤس والمعاناة، هنا يأتي دور النخب الفكرية الكردية لإعداد جيل كامل من القادة على غرار التجربة الميدية حوالي عام 612ق.م.

وهناك عامل آخر يتمثل في عدم إيلاء أهمية بالغة بالثقافة الكردية وإبراز دور الأبطال الكرد في الملاحم والميثولوجيا الكردية لدى المجتمعات الكردستانية، وكذلك الترويج لوصايا القادة والمقاتلين الكرد قبل تصفيتهم من قبل الأعداء، حيث يمكن أن تشكل مناهج فكرية ومعنوية لتأطير عقيدة قتال كردية واحدة، علماً أن الأدبيات الحزبية المُسيّسة تطغى على النتاجات الثقافية والفكرية الكردية؛ فمثلاً هناك العشرات من المنشورات الفكرية ذات الطابع السوسيولوجي الكردي، العسكري والأمني، لقائد حركة حرية كردستان عبد الله أوجلان، إلا أنه يتم إهمالها من قبل مجموعة من التيارات السياسية الكردية الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك يبدو أن القادة الكرد يفتقرون إلى رؤية استراتيجية لإفشال أو تثبيط أو شل عقيدة القتال لدى الخصم، قد يكون سبب ذلك الانقسامات والاختلافات والخصومات داخل البيت الكردي، وضعف التسليح التكتيكي والاستراتيجي بما يتناسب مع الجغرافيا العسكرية في ميادين المواجهات. من ناحية أخرى يشكل التأثر بالعولمة وتنامي الليبرالية لدى العديد من الكرد كرد فعل على الخلافات داخل الحركة السياسية الكردية عوائق كبيرة في تنمية عقيدة القتال لدى هذه الفئة التي يتنامى فيها الأنانية وإنكار الهوية وترسخ روح الانهزامية أمام الأخطار التي تهدد الأمة، حيث تشكل عاملاً يؤثر سلباً على المقاومة تجاه أي عدوان محتمل أو تنفيذ عمليات عسكرية لتحرير الأراضي المحتلة؛ لذلك تبرز الحاجة إلى تنمية الوعي السياسي والمعرفي فيما يخص الأخطار التي تهدد وجود الكرد والأجندات التي تحاك ضده ويقع على عاتق النخب الثقافية والسياسية الاستجابة لتحقيق هذه الحاجة، إلى جانب تأسيس أكاديميات عسكرية على أسس الدفاع الذاتي ومراكز أبحاث عسكرية، تُذكّر بالملاحم العسكرية التاريخية الكردية، واحترام الشعوب التي تحترم إرادة الشعب الكردي، وتبحث في الأخطار والتهديدات على الأمن القومي الكردي، وتطوير المهارات في استخدام ما يتوفر من مختلف صنوف الأسلحة، والتدريب على التعامل مع مختلف أشكال الحروب النووية والبيولوجية والتقليدية والهجينة والإرهابية وغيرها، وتنمية الوعي العسكري لدى المجتمع.

لذلك من المفروض مراعاة هذا الأمور قبل التفكير والبحث في أفق توحيد الصف العسكري الكردي في روجآفا؛ وأي مقترح يجب أن يبنى على أساس تطوير القوات الموجودة لا إلغاء خصوصياته العقائدية أو إيجاد تشكيلات أخرى متمايزة عنها؛ وتبدو فكرة المجالس العسكرية لمناطق روجآفا مناسبة للواقع السياسي الحالي التي تعيشها المنطقة وهي قابلة لإعادة النظر فيها في

حال تطور الوضع السياسي نحو الأفضل؛ لذلك فأن قيام القوى السياسية في الحركة السياسية الكردية في روجآفا باتباع هذا الخيار في دمج التشكيلات القتالية الأخرى التي ينخرط فيها عدد من أتباع هذه القوى في هذه المجالس سيوفر الكثير من الوقت والموارد وتوحيد عقيدة القتال في الدفاع عن تخوم روجآفا من خلال تأسيس تشكيل عسكري جديد تحت مسمى (حرس الأقاليم) على سبيل المثال، يضم أفراد من نخبة مقاتلي المجالس العسكرية وتخضع قيادتها للقيادة العسكرية العامة لروجآفا والمؤلفة بدورها من مجلس عسكري قيادي يضم ممثلين عن كافة المجالس العسكرية في مناطق روجآفا ينتخب قائدها العام بشكل ديمقراطي، يبدو أن هذا الأمر يذكرنا بالتجربة العسكرية الميدية قبل حوالي أكثر من 2500 سنة؛ هذا الأمر سيشكل قوة معنوية ومادية كبيرة تعزز من مشاعر الأمن القومي لدى الكرد، وما سيدعم هذا الأمر هو الهندسة الدقيقة والمدروسة للجغرافيا العسكرية في روجآفا.

الإرهاب، التطرف والفوضى الخلاقة

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

المقدمة.

يعجُّ العالم بمئاتٍ من المعتقدات الروحانية من أديان وطوائف ومذاهب، توغل جذور بعضها عميقاً في التاريخ، ويكاد كل شعب يمتلك معتقدات خاصة به، حتى باتت تعد بمثابة الهوية التي تميّز الفرد أكثر من هويته الإثنية. لدى سبر أغوار التاريخ نجد أن الشرق الأوسط يعتبر منبعاً لعددٍ كبيرٍ من المعتقدات الروحانية، يبدو أنها كانت بمثابة أولى الثورات الفكرية على الأساطير، متمثلة بالديانات التي تبلورت بالتزامن مع التطورات التي شهدتها الثورة الزراعية؛ حيث تشكل الديانات الإيزدية والتوحيدية (الزرادشتية والإبراهيمية) والمندائية وغيرها خلاصة أفكار تلك العصور تجاه مفاهيم الموت والحياة والظواهر الطبيعية، في محاولة منها لتقديم تفسير آخر للمفاهيم التي تمّ تناولها بشكل أسطوري؛ على الرغم من ذلك تبدو أن الديانات نفسها لم تستطع أن تنأى بنفسها عن تغلغل الموروث الثقافي الشعبي المتأسطر إليها، وكان للديانات التوحيدية النصيب الأكبر في تشتت أفكارها حيث تفرقت إلى عشرات الطوائف والمذاهب؛ قد يكون ذلك نتيجة لمحاولة المجتمعات التوفيق بين موروثها الثقافي والديانات الجديدة كخيار دفاعي ذاتي للحفاظ على هويتها الإثنو-ثقافية، وهذا ما نجده لدى مختلف الإثنيات التي اعتنقت الديانة الإسلامية على سبيل المثال.

في هذا السياق عانت المجتمعات على مر التاريخ من طفرات فكرية شاذة عن قيمها الأخلاقية والروحانية أخطرها تلك التي تبرر العنف المتوحش كإرضاء لأحد الآلهة، ويزخر التاريخ بالعشرات من الجماعات التي قدست العنف كوسيلة لإرضاء الآلهة في سبيل الخلاص والفوز بنعيم الحياة لما بعد الموت، كجماعة الخنّاقين Thugge في الهند وطائفة أوم شينريكيو اليابانية ومنظمة الهاغاناه اليهودية والحشاشين والقاعدة وكل الفرق الأخرى التي تتبنى الجهاد العنفي كمنهج سياسي (إسلامي أو مسيحي أو يهودي أو هندوسي أو أي معتقد آخر)[1] وموّجه إلى الهيمنة على الأوطان والشعوب وحتى على العالم. هذا الأمر طرح الكثير من الإشكاليات في سياق تمييز الثورة في وجه الاستبداد عن التمرد على المبادئ العقائدية والتي تعبّر الطوائف والمذاهب الدينية عن المثال الأقرب لها، علماً أن الكثير من الأديان كانت في بداياتها ثورات فكرية ضد التسلط الاستبدادي من قبل الطبقات القوية في المجتمعات إلا أنها انحرفت عن مبادئها بعد غياب أو تهميش حكمائها، وارتداء أصحاب الطموحات والمصالح، السياسية والاقتصادية، لرداء الدين وإقامة كيانات توصف بالثيوقراطية.

لقد استطاعت العديد من المجتمعات التخلص من الثيوقراطية في ثقافاتها المجتمعية وقدمت الكثير من التضحيات في سبيل ذلك، حيث يشكل عصر النهضة في أوروبا ولاحقاً الثورات الكبرى، الفرنسية والبلشفية وغيرهما، نماذج يمكن الإشارة إليها؛ وقد كانت ردة فعل الطبقات المهيمنة على ذلك استبدال النظام الإقطاعي تدريجياً هناك بالنظام الرأسمالي لإعادة تمكين هيمنتها

[1] للاطلاع على التحليل النفسي لهذا الأمر راجع: جيمس جونز؛ لماذا يتحول الدين إلى عنف (الإرهاب الديني من منظور التحليل النفسي)؛ ترجمة إبراهيم جركس؛ 2012، بلا ناشر ورقم طبعة.

على الشعوب؛ وأصبحت العنصرية وعقدة التفوق على الثقافات الأخرى الدافع وراء العنف المقدس في سياق تأمين المصالح الاقتصادية والسياسية بعد أن كانت ترتكز على الدوافع الدينية على الرغم من تطور هذه الدوافع في أزمان ومناطق مختلفة حول العالم، حتى أنّ تلك الطبقات توجهت إلى تطوير استراتيجياتها باستغلال المشاعر الدينية لمختلف الشعوب والتأثير في إعادة تنظيمها بشكل يخدم أجنداتها، وتشهد مشاريع الهيمنة والاستعمار على حقيقة ذلك؛ بينما بقيت المجتمعات التي توصف بالإسلامية في الظروف البائسة التي خلقتها الطبقات الاستبدادية، وفي بعض الأحيان بلغ التطرف- كسلوك ناجم عن رد الفعل على الواقع المعاش- مستويات عالية في التوجهات الراديكالية المتعلقة بالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع لتظهر العشرات من التنظيمات أو الحركات المختلفة وصلت بعضها إلى مستويات التوحش لم يسلم منها أي شخص يقع خارج حدودها الفكرية؛ هذه الأمور شكلت تراكماً من المعنويات السلبية مع الزمن حتى عصرنا الراهن، حيث تشكل الجماعات السياسية المتبنية للأصولية المتطرفة خلاصة هذا الموروث. تتمحور أفكار هذه الجماعات على أنّ العالم يعيش في ديستوبيا أي يسوده الشرّ والدمار والخراب يقوده الشياطين وأعوانهم ويقع على عاتقهم إنقاذ العالم وإيصالهم إلى بر الأمان وحمايتهم من الخطايا، فهم يستمدون طاقتهم من احتكارهم لقوة الخير المتمثلة في (الله) ويعتبرون أنفسهم صالحين وقديسين وعلماء؛ وتبدو أي وسيلة في تحقيق ذلك مباحة استناداً إلى المبدأ البراغماتي "الغاية تبرر الوسيلة"، وهذا ما يجسده تنظيم داعش. لقد تعددت الدراسات التي تناولت الأسباب والعوامل التي أدت إلى نشوء هذا التنظيم؛ اتفقت معظمها على أن التنظيم يشكل ذروة الفكر المتطرف، الأمر الذي يؤكد على أن هذا التنظيم يشكل خلاصة الطاقة الكامنة المتوحشة للفكر السياسي الأصولي المتطرف؛ فقد تسبب خلال زمن قياسي نسبي منذ نشوئه إلى هزيمته الميدانية في آذار 2019م بفظائع كارثية تقشعر لها الأبدان، بعد أن استحضر مختلف صنوف وأساليب القتل والتعذيب والإخضاع الرهيبة وكأنه أعاد أحياء الأنظمة العبودية والرِقّ التي عانت منها البشرية كثيراً.

على الرغم من الهزيمة الميدانية لتنظيم داعش إلا أن أيديولوجيته لا تزال متعشّشة في ذهنية الكثيرين، إلى جانب سعي بعض القوى الدولية والإقليمية إلى استثماره خدمة لأجنداتها، وباعتبار أن الجغرافيا السورية تحولت إلى ما يشبه البرلمان للتنظيمات الأصولية المتطرفة على المستوى العالمي، فمن المتوقع ترشح وبروز تنظيمات جديدة قد تكون أكثر وحشية من تنظيم داعش نفسه كنتيجة حتمية لتهجين الأفكار الظلامية، علماً أن الكثير من المؤشرات تشير إلى أن داعش نفسه هو نتيجة التهجين بين الفكر العنصري البعثي والسلفي الجهادي في سجن بوكا جنوب البصرة في العراق، لذلك ليس من المستعبد أن تظهر تنظيمات جديدة مهجنة في إدلب المحاصرة، أو داخل المحتجزات في سوريا والعراق، أو في المناطق التي يرسل إليها المتطرفون كمرتزقة في ليبيا واليمن وغيرها، أو حتى إحياء تنظيم داعش بنسخة جديدة.

التطرف واستراتيجية الهيمنة

إنَّ الكون بكافة موجوداته قائم على مبدأ التوازن المحكوم بمجموعة من الضوابط والمعادلات، تشكل الحياة المحور الرئيسي فيها، وأي خلل سيؤدي حتماً إلى حالات أو ظواهر شاذة قد تكون ذات تأثير سلبي في الكثير من الأحيان، والإنسان بدوره يخضع إلى هذا القانون وفق نظام تراتبي، كونه جزء حيوي وجوهري من الكيان الكوني. من الصعب التعمق في ماهية الإنسان إلا أنه مبدئياً يمكننا القول بأنّه يتكون من مواد وطاقات تجمعت بشكلٍ منظم ومتوازن في هيئة معينة ليصبح الكائن الذي نعرّفه باسم الإنسان، ونفس الأمر بالنسبة للكائنات الأخرى ولكن بمستويات مختلفة ومتنوعة؛ يمتاز مبدأ التوازن بقدسية معينة أو بأهمية كبيرة لدى الإنسان سواء أكانت في المشاعر أو في السلوكيات أو في الأعمال، ويبدو أنه كان في صراع مستمر منذ الأزل مع الطبيعة المتمثلة

في ذاته وفي البيئة المحيطة به للحفاظ على هذا المبدأ، فاختلاله يمكن أن يؤدي إلى الفيضانات أو الجفاف أو المجاعات أو الحروب أو الجنون أو الفناء أو إلى أية مخاطر أخرى، وقد سعى الإنسان جاهداً لمواجهة هذا الأمر وفق مبادئ الديالكتيك في محاكمة القضايا والظواهر وتحليلها واتخاذ التدابير المناسبة أو اللازمة لها بحسب طاقاته الذهنية المتوفرة، الأمر الذي أدّى إلى تطورٍ في الجوانب المادية والمعنوية والروحانية في بيئته وتكوّن وعي جمعي[2]، لتتشكل الثقافة المجتمعية من التفاعل بين البيئة والمشاعر والسلوكيات والأعمال؛ قد يكون هذا الأمر من أحد الأسباب الرئيسية في نشوء الحضارات.

كما سعى الإنسان إلى تحقيق التوازن مع بيئته المادية المحيطة وسعى أيضاً إلى إقامة التوازن في بيئته المعنوية لتبرز الأفكار الروحانية وتتطور على شكل معتقدات متمثلة بالأساطير والأديان بالتزامن مع بروز الفلسفة وتطورها. مع التبدلات المناخية التي شهدها العالم والازدياد النسبي لكلٍ من اعداد البشر وموجات الهجرة الجماعية انحرفت العلاقات الإنسانية عن مبادئ المقايضة والتكاتف إلى مبادئ التنافس والاحتكار، قد يكون للعامل الاستغلالي الاقتصادي أو الاقتصاد المركزي[3] دور محوريٌ في ذلك، فمثلاً كما هو معروف في المجتمعات التي كانت تمتهن الجمع والالتقاط والصيد وبعدها الزراعة وتعتمد على المقايضة[4] أو المساومة كأشكال بدائية للتجارة تسودها ديمقراطية وعدالة نسبية باعتبار أن قيمة الأشياء ليست في الطاقة المبذولة للحصول عليها وإنما بدرجة الحاجة إليها إذا ما اعتبرنا ذلك كأحد مقاييس القيمة، بينما في المجتمعات الرعوية كان يسودها الاستبداد أحياناً عندما يتولى أقوى الرجال الزعامة ويتحول إلى سلطة مركزية داخل مجموعته، بينما في المجتمعات الزراعية يبدو أنّه كان للكاهن دور كبير في السلطة وهذا ما نلاحظه كميزة رئيسية بعد انتهاء العصر النيوليثي حوالي عام 4500 ق.م في حضارات ضفاف الأنهار كمجتمعات ميزوبوتاميا والهلال الخصيب على سبيل المثال، خاصة بعد نشوء الدولة السومرية، ربما كنتيجة التزاوج السياسي بين سلطات المجتمعات الرعوية والزراعية ظهرت دولة الملك- الكاهن كأول عملية تهجين سياسية، ومفرزة النظام العبودي؛ لتبدأ معها مسيرة حياة جديدة للبشرية وتنحرف مشاعر الغيرة والحسد إلى مشاعر الكراهية والحقد التي أصبحت سمة ملازمة في المجتمعات الطبقية حتى عصرنا الراهن؛ يبدو أنّ هذا الأمر تسبّب بخلل نسبي في أجزاء من مبدأ التوازن الكوني من خلال الإنسان حيث نتلمس ذلك في الحروب والأوبئة والتلوث والاحتباس الحراري التي حدثت لاحقاً، بالتزامن مع هذه الأمور برزت معادلة جديدة في العلاقات الإنسانية بين كلاً من مشاعر المظلومية الناجمة عن المعاناة من الاستعباد الجسدي والفكري، ومشاعر الطغيان السادّية النابعة من الغطرسة في المتعة والهيمنة؛ وبالنتيجة بروز الصراع كسمة جديدة في العلاقات الإنسانية والتي أخذت في بعض الأحيان شكل الطابع الدموي؛ يحتمل أنّ لذلك دورٌ

---

[2] الضمير الجمعي أو الوعي الجماعي هو مصطلح في علم النفس ابتكر من قبل عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم (1858-1917) ليشير إلى المعتقدات والمواقف الأخلاقية المشتركة والتي تعمل كقوة للتوحيد داخل المجتمع... ويرى دوركايم بأن الدين الطوطمي لعب دوراً هاماً في توحيد الأفراد من خلال خلق ضمير مشترك؛ ويكون محتوى الضمير الشخصي في مثل هذا النوع من المجتمعات مشترك بشكل كبير مع جميع الأفراد في نفس المجتمع وهذا يخلق تضامن اجتماعي آلي من خلال الشبه المتبادل... ويكيبيديا؛ الضمير الجمعي.

[3] للمزيد راجع: عبد الله أوجالان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية/ القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية (دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكّي الإبادة الثقافية)؛ المجلد الخامس؛ الترجمة: زاخو شيار؛ الطبعة الثانية 2014م؛ بدون ناشر؛ ص41.

[4] "المقايضة هي عملية مبادلة شيء بشيء آخر بدون استعمال النقود. وترتكز المقايضة على القيمة الاستعمالية للسلع بينما يرتكز السوق، حيث تستعمل النقود، على القيمة التبادلية للسلع أي للبضاعة...". سامي ذبيان وآخرون؛ قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ الطبعة الأولى 1990؛ رياض الريّس للكتب والنشر؛ لندن؛ ص424.

محوري في ظهور ثنائية الخير والشر [5] في الكثير من الثقافات بالتزامن مع تطور وجهة نظر كل ثقافة إلى طبيعة هذه الثنائية لتبرز اتجاهات فكرية مختلفة أو متنوعة.

مع تنامي مدارك الإنسان في سلسلة التطور الطبيعي، سعت الطبقات المهيمنة أو الأوليغارشية[6] إلى تطوير استراتيجيات الاحتكار والهيمنة على مجتمعاتها والمجتمعات المجاورة، حيث طورت إلى جانب وسائل وأساليب العنف والعدوان الموجّهان إلى الفئات الضعيفة، تسخير الأفكار الروحانية للهيمنة على الفئات الأقوى نسبياً، وسعت إلى تطويرها بأسلوب ديماغوجي وشيطنة كل من يخرج عن إرادة السلطة، يبدو أن هذا الأمر بدأ حوالي 5000 ق.م حيث "أثبت المؤرخ لويس ممفورد في كتابه (المدينة والتاريخ) أن الحروب لم تبدأ إلا بعد أن اجتمع الناس للعيش في تجمعات كبيرة هي المدن- حوالي 5000 ق.م- حين بدأ الإنسان البدائي يكوّن جماعات للإغارة على جماعات أخرى، ولم تكن الإغارة بهدف قتل الآخرين وحرق مساكنهم، بل كانت لأسر بعض منهم والتضحية بهم لآلهتهم التي كانوا يقدمون لها أضاحي بشرية لنيل رضاها..."[7] وقد تطور هذا الأمر إلى الوضع الكارثي للصراعات التي يعيشها العالم في عصرنا الحديث، بالمقابل كانت ردة فعل الفئات المتضررة عبر اعتماد براديغما مغايرة لنهج السلطة القائمة سواء أكانت سياسية أم اجتماعية، ويبدو الإصرار على رفض الواقع السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي المفروض دفع بالإنسان المعارض إلى المغالاة في معتقداته الخاصة كرد فعلٍ طبيعي على السلوكيات الاستبدادية للسلطات، فالإصرار والمغالاة يشكلان جوهر التطرف في أية قضية كانت خاصة في القضايا ذات الطابع الراديكالي ويتجلى الجانب المظلم في ذلك بتبني العنف الشامل من منطلق دوغمائي. إنَّ نسبة التطرف غالباً ما تتناسب مع مقدار الرفض الذي يبديه فرد ما تجاه أي واقع سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي والذي يتناسب بدوره مع مقدار مشاعر الفرد بالمظلومية والبؤس أو الكبت تجاه هذا الواقع أو رفضه.

مع تدهور العلاقات الإنسانية بمستويات عالية خاصة تحت ظل الهيمنة بمختلف مسمياتها (احتلال، استعمار، استبداد، احتكارات،...إلخ) أصبحت المغالاة في الانتماء الفكري والاثني سمة جديدة في الحفاظ على الذات وعلى الهوية الثقافية أو الإثنية وأصبحت التبعية العمياء لكاهنٍ أو سيدٍ وتفويض الأمور إليهم نمط حياة شائعاً في الكثير من العصور؛ الأمر الذي أدّى إلى زيادة في ارتفاع الحواجز بين المجتمعات الإنسانية نتيجة الصراع بين الكهنة أو السادة على الثروات والنزوات والأمجاد والمزايا، مما عزّز من الدوغمائية في الكثير من تلك المجتمعات وأعاقت عجلة التطور التنموي والازدهار إلى درجة وصولها إلى نظام قائم بذاته؛ توّضح إحدى وجهات النظر السيكولوجية هذا الأمر بالشكل التالي[8]: "إنّ الجماعات المغلقة وليدة الإحساس بالتهديد الخارجي، أكان مصدره بشرياً أم طبيعياً. ينقسم العالم في هذه الحالة إلى عالمين متناقضين تماماً: الخارج والداخل. أما الخارج فهو العدو ومصدر الخطر والشرّ، العلاقة معه عدائية اضطهادية، والموقف

---

[5] للمزيد عن تحليل المفاهيم الشخصية في تحديد طبيعة (الخير والشر) والتحول إلى العنف واسقاط الشر على من يقع خارج الجماعة راجع دراسة: د. هاني الجزار؛ أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب)؛ الطبعة الأولى 2011م؛ هلا للنشر والتوزيع؛ الجيزة- مصر.

[6] الأوليغاركية Oligarchy الأوليغارشية أو حكم الأقلية، وهي شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية... الموسوعة السياسية؛ الأوليغارشية- Oligarchy؛ الرابط:

[7] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/ سيكولوجية العنف البشري؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الناشر جماعة حور الثقافية الطبعة الأولى 2001؛ القاهرة؛ ص161.

[8] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور/؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص113.

منه إما انسحابي تجنبي أو تهجمي تدميري أما الداخل فهو الخير كله وهو مصدر الأمن والشعور بالانتماء مصدر الهوية الذاتية؛ ويحدث في هذه الحالة نوع من الانشطار العاطفي بشكل يجعل المواقف قطعية. كل الشر والخطر والسوء، كل العقبات والموانع الذاتية والموضوعية كل العدوانية الذاتية المقموعة والمتراكمة تسقط على الخارج وليس من موقف تجاهها إلا العنف والتدمير وأما العواطف الإيجابية تتوجه إلى الداخل وإنكار الصراعات والتناقضات الداخلية والذوبان الكلي في الجماعة لدرجة يفقد معها الفرد استقلاليته وهويته الذاتية ولا يعود له من هوية سوى الهوية الجماعية..."، وتبدو مقاومة الكثير من المفكرين في مختلف أنحاء العالم وفي مختلف العصور لهذا النظام والتضحيات التي قدموها تشكل تعبيراً دقيقاً عن هذا الأمر، ويمكننا اعتبار تلك الجهود ثورة حقيقية على التخلف والظلم والكراهية وإعادة التوازن إلى نصابه الطبيعي.

من حيث المبدأ يمكننا الجزم بأن كلاً من مشاعر المظلومية ومشاعر الطغيان السادية على حدٍ سواء أيضاً تدفعان بالإنسان إلى تبني التطرف في المعتقدات أو الأيديولوجيات التي يعتنقها وصبغها بالأخلاق والإرادة الإلهية لتبريرها، وكأنه محاولة يائسة للحفاظ على مبدأ التوازن الكوني في بعض جوانبه من أجل استمرار الحياة وفق إرادة ما ووجهة نظر معينة؛ يبدو التطرف من خلال هذا الطرح وكأنه غاية مشروعة للحفاظ على الذات لأياً كان؛ إلا أنه بالمقابل يجب ألا ننسى وجود آليات أخرى أكثر فعالية في تحقيق مبدأ التوازن، كالمواثيق الاجتماعية ومبادئ الديمقراطية والأخلاق الإنسانية وبراديغما الأمة الديمقراطية، لذا يعد التطرف سلاحاً ذو حدّين وغالباً ما يتم فقدان السيطرة عليه وينحرف نحو توجهات شريرة يلحق الضرر بالحياة والبيئة وينتهك الأخلاق.

التطرف في اللغة كاسم يعني "المُغالاة السياسية أو الدينية أو المذهبية أو الفكرية، وهو أسلوب خطر مدمر للفرد أو الجماعة ..."[9] والتطرف في الأفكار يعني تجاوز حد الاعتدال والحدود المعقولة والمبالغة فيها؛ وهناك تعريف آخر للتطرف بأنه "اندفاع غير متوازن إلى التحمس المطلق لفكر واحد يصبح معه صاحبه أحادي الشعور، وفي حالة اضطراب نفسي يفقده حاسة التمييز بين الحسن والأحسن، والسيء والأسوأ"[10]. بينما في اللغة الكردية المصطلح الذي يعبر عن التطرف هو Tunderw أو Tundperest ويشير بشكل مباشر إلى العنف المقترن بالأفكار والسلوكيات السلبية، وهناك العشرات من التعاريف والتفسيرات الأخرى.

استناداً إلى ذلك يمكننا تقديم تفسير آخر للتطرف، بأنه السلوكيات التي توجهها الدوغمائية والمشاعر المتأثرة بالمغالاة في المعتقدات تجاه الطبيعة المتمثلة بالذات والبيئة المحيطة ويمتد تأثيرها ثقافياً وجغرافياً إلى أبعد الحدود بحسب مقدار الطاقة التي تؤججها، وقد تُعطّل بنفس الوقت الحسّ النقدي الموضوعي لدى الفرد وتحرّضه على التنمّر وفرض رأيه بالقوة والعنف، فهو احتكار للحق والحقيقة ولا يحق للآخرين أن يمتلكوا آراء أو معتقدات خاصة؛ ويتجلى تناقضه مع مفهوم الثورة من خلال منهجه الرجعي والدوغمائي، فمن الممكن أن يتسبب باستبدال استبداد باستبداد آخر؛ وللتطرف ميزانه الخاص به، حيث يمكن أن يؤدي إلى دوامة عنف لا نهائي في حال اختلاله. والتطرف موجود في مجتمعات متعددة ولا ينحصر في حدود محددة، أو في دين وأيديولوجية معينة.

[9] معجم المعاني؛ تعريف ومعنى تطرف في معجم المعاني الجامع / معجم عربي- عربي؛
[10] د. علاء زهير الرواشدة؛ التطرف الأيديولوجي من وجهة نظر الشباب الأردني- دراسة سوسيولوجية للمظاهر والعوامل؛ المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب؛ المجلد 31؛ العدد (63) 81-122؛ الرياض 2015م؛ ص87.

معادلات التطرف ومفرزاته؛ ثقافة الكراهية- الإرهاب- التوحش.

يشكل التطرفُ عنصراً فعّالاً في تفاعلات تفكيك الروابط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المسبّبة للفظائع والأزمات، خاصة في الأخلاق والحقوق والعلاقات الإنسانية؛ ويعدّ طاقة الحياة لثقافة الكراهية المتمحورة حول رفض الآخر واستباحة حقوقه وحياته أو الاستهتار بها، وهذا ما يشكل النواة في التوجهات السلوكية والفكرية المُسيّرة من قبل الدوغمائية الدينية أو العنصرية أو المشاعر المقوّلبة في نظرية المؤامرة، أما المقصود من إرفاق مصطلح الثقافة بمصطلح الكراهية فلأنه أصبح موروث اجتماعي خاص لدى الكثير من الجماعات وتحول إلى سلوكٍ ومعيارٍ اجتماعي يحدد الهوية الإثنو- ثقافية (الاثنية والثقافة) للفرد في المجتمعات المتطرفة والمتقوقعة على نفسها في الكثير من الأحيان؛ من المؤكد أن ثقافة الكراهية مرتبطة بشكل وثيق مع اضطرابات الشخصية، حيث تُعبّر البارانويا[11] والسيكوباتية[12]عن ذلك بشكلٍ واضح.

تعتبر ثقافة الكراهية طاقة الحياة للشرّ في ثنائية الخير والشر المتجذرة في الثقافات الإنسانية وتعتبر وسيلة معطلة للتطور الارتقائي الفكري والازدهار في مختلف المجالات، وتعد الدافع الرئيسي لمعظم الأعمال السلبية أو الهدّامة التي توصف بالإرهاب أو الجريمة أو الاستبداد، وتكمن خطورة الأمر في سعي بعض القوى الراغبة بالهيمنة إلى تسخير ثقافة الكراهية لتحقيق أجنداتها عبر توجيهها بشكلٍ تآمري ممنهج ضد مجتمعات متنوعة معينة بغرض تحطيم الروابط الاجتماعية والثقافية فيما بينها وخلق حالة من الفوضى الخلاقة[13] في حياتها السياسية والاقتصادية، بهدف الوصول إلى مرحلة يمكن اخضاعها إلى هيمنتها؛ هذا الأمر يعتبر من الأساليب الجوهرية في الحرب النفسية. إنّ ثقافة الكراهية كمعيار لتحقيق التوازن يعتبر أمراً سيئاً ومنبوذاً من قبل البشر وذات تداعيات هدّامة، فهي أشبه ما تكون بكائن ينهش الروابط بين المجتمعات الإنسانية ونتيجته الحتمية هي الهلاك لجميع الأطراف.

قدّم الكثير من المفكرين مصطلحات متنوعة لوصف السلوكيات المنبثقة عن ثقافة الكراهية وذلك بحسب التوجهات الأيديولوجية أو الدينية أو السياسية، ويعد مصطلح الإرهاب Terrorism الأكثر تداولاً في هذا السياق، وهو مصطلح سياسي وأمني حديث نسبياً ذو منشأ غربيّ ولا يمتلك

---

[11] البارانويا ويطلق عليه أيضاً "جنون الارتياب، جنون الاضطهاد، وجنون العظمة". وهو مرض نفسي مزّمن يتسم بالوهم، أي يؤمن المريض إيماناً وثيقاً بتعرضه للاضطهاد والملاحقة، ويفسر سلوك الآخرين تفسيراً ينسجم مع هذا الاعتقاد. الميزات الأساسية ثلاثة: الخوف من حصول شيء سيئ، الظن أن المسؤولية تقع على الآخرين، والاعتقاد أو الإيمان المفرط وغير المبني على أسس واقعية....
للتعرف على المزيد من تأثير وهم الاضطهاد أو البارانويا في الأعمال الإجرامية مراجعة كتاب الباحث (ديفيد كانتر؛ علم النفس الشرعي/مقدمة قصيرة جداً؛ ترجمة ضياء ورّاد؛ الطبعة الأولى 2014م؛ الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة؛ القاهرة.).

[12] السيكوباتية هو السلوك المعادي للمجتمع وهو مرض عقلي؛ لا يتفاعل المريض مع الناس ويعاني من قلة المشاعر والميل إلى العدوانية، ويرى متعة في المكر والاحتيال، والشعور المتضخم بالكبرياء وتوهم امتلاك قدرات أكبر من الاخرين والثقة الزائدة بالنفس... للمزيد راجع المرجع السابق.

[13] مفهوم الفوضى الخلاقة. ربما يعتقد الكثيرون أنَّ مُصطلح الفوضى الخلاقة مصطلح جديد ظهر بعد التفرد الأمريكي بزعامة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، والواقع أنَّ المصطلح ظهر لأول مرَّة عام 1902 م على يد المؤرخ الأمريكي تاير ماهان - Alfred Thayer Mahan، ليتوسع فيما بعدها مايكل ليدين - Michael Ledeen ويسميها الفوضى البنَّاءة أو التدمير البناء وذلك بعد أحداث سبتمبر بعامين في 2003 ، وهذا يعني الهدم، ومن ثم البناء، ويعني هذا إشاعة الفوضى، وتدمير كل ما هو قائم، ومن ثم إعادة البناء حسب، المخطط الذي يخدم مصالح القوى المتنفذة، وقد يكون أكثر المفكرين الذين تحدثوا عن هذا الأمر هو الأمريكي اليميني صامويل هنتنجتون - Samuel P. Huntington صاحب نظرية صراع الحضارات...".
نظرية الفوضى الخلاَّقة - Creative Chaos Theory؛ الموسوعة السياسية (الإلكترونية)؛

تعريفاً محدداً، فهناك حوالي 109 تعريفاً لمصطلح الإرهاب بحسب إحدى الدراسات[14]؛ يستخدم بشكلٍ عام لوصف الجماعات الإسلامية الراديكالية المناوئة للغرب، واتسع نطاقه ليشمل الحركات اليسارية وبعض أنظمة الحكم الشمولية؛ فقد تحول إلى مصطلح متعدد الأوجه أو حمّال أوجه، أحياناً يستخدم كوصف دقيق لأعمال إجرامية بدوافع سياسية، وأحياناً أخرى يستخدم لغايات سياسية أو خدمة لأجندات تآمرية بهدف تجريم سلوك أو عقيدة أو نظامٍ ما بعيداً عن المفهوم الحقيقي له؛ وبعد أحداث 11 أيلول 2001م أصبح مصطلح الإرهاب سمة أساسية للتنظيمات الإسلامية الأصولية المتطرفة؛ وأصبح يستخدم بفعالية في السياسة الدولية وإدارة الصراع الدولي على الهيمنة، فمثلاً في عام 2014م تحالف عسكرياً أكثر من 50 كياناً دولياً ومحلياً لمحاربة تنظيم داعش الإرهابي (الدولة الإسلامية في العراق والشام) تحت اسم "التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب" وتفوقت القدرات العسكرية والمالية لهذا التحالف قدرات حلف الشمال الأطلسي، الذي شكل النواة الصلبة في هذا الحلف.

من جملة التفسيرات لمصطلح الإرهاب ما أشار إليه تقرير لمكتب التحقيقات الفدرالي FBI إلى أنّه[15] " لا يوجد تعريف واحد مقبول للإرهاب. يعرف الإرهاب في قانون اللوائح الفدرالية بأنه الاستخدام غير القانوني للقوة والعنف ضد الأشخاص أو الممتلكات للتخويف أو إكراه الحكومة أو السكان المدنيين أو أي جزء منها، في تعزيز الأهداف السياسية أو الاجتماعية..." واعتبار كل عمل يخالف القوانين الجنائية للولايات المتحدة أو أي دولة تندرج كأعمال إرهابية؛ بينما رؤية الإنتربول الدولي حول هذا الأمر فأنها تفيد "بأنّ الإرهاب يشتمل على مجموعة من التهديدات المعقّدة من أبرزها الجريمة المنظمة في مناطق الصراع، والمقاتلين الإرهابيين الأجانب، و(الذئاب المنفردة) التي تشرّبت ثقافة التطرف، والاعتداءات باستخدام المواد الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية والنووية والمتفجرات."[16]، استنادا إلى ذلك يعتبر الإرهاب جريمة بحد ذاتها[17] كونهما يشيران إلى سلوك منتهك للقواعد الأخلاقية وللقوانين التي تحميها وتتبناها الدول، فهو سلوك ضد المجتمع، وموجه ضد المصلحة العامة؛ لذا فإنّ الأعمال القتالية التي تهدف إلى حماية المجتمع من كلٍ من الإبادة والاستبداد والقهر فأن وصفها بالإرهاب يعدُّ أمراً غير دقيقاً وتشويهاً لحقيقتها الثورية.

بشكلٍ عام يمكننا تقديم تفسير للإرهاب بأنه مفهوم ناتج عن مزاوجة التطرف مع ثقافة الكراهية ويُعبّر عن انتقال التطرف المعزّز بالكراهية من الفكر إلى الفعل، فهو يشير إلى أي توجّه عدواني، سلوكي أو فكري منحرف عن القيم الأخلاقية ومبادئ الديمقراطية، يستمد طاقته من ثقافة الكراهية ويهدف إلى بثّ الرعب في شخص أو مجتمع أو كيانٍ ما بغرض الهيمنة عليه أو إلحاق الضرر به، ويغطي أعماله بهالة من القدسية كتبرير للقصد الجرمي، وهو من العوامل التي تدفع بالمجتمعات الإنسانية نحو الديستوبيا كونه ينبذ الحوار والسلام؛ ويجب أن يكون هذا الأمر المعيار الذي نميّز به التنظيمات الإجرامية عن التنظيمات الثورية؛ وفي أعمال العنف الدموية ضد المجتمعات الإنسانية لا فرق بين الإرهابي والمرتزق فكلاهما مجرم ويقدمان خدماتهما مقابل مكاسب شخصية، مادية أو

---

[14] د. عبد الحسين شعبان؛ التطرف والإرهاب (إشكاليات نظرية وتحديات عملية/ مع إشارة خاصة إلى العراق)؛ كراسات علمية 42؛ الناشر وحدة الدراسات المستقبلية- برنامج الدراسات الاستراتيجية بمكتبة الإسكندرية؛ 2017م؛ مصر؛ ص16.

[16] موقع الرسمي للإنتربول؛ الإرهاب؛ بلا تاريخ نشر؛ الرابط: https://www.interpol.int/ar/4/17

[17] لمعرفة المزيد عن هذا الأمر راجع مقالة للباحث في العلوم السياسية: يونس زكور؛ الإرهاب والإجرام المنظم، أية علاقة؟؛ موقع الحوار المتمدن 2007/1/30م؛ الرابط:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=87313&r=0

معنوية، دون أي اعتبار لقيمة الحياة والقيم الأخلاقية، ولا يمكن أن يتجاهل الإرهاب عالم الجريمة المنظمة[18] فكلاهما يكملان بعضهما البعض، وغالباً ما يكون هناك تداخل أو تحالف بينهما.

إنّ ما تم ذكره يشير إلى أنّ كلاً من التطرف وثقافة الكراهية والإرهاب يشكلون الأضلاع الثلاثة في المثلث[19] الذهبي للتوحش الذي هو عبارة عن سلوك ساديّ موجه إلى الآخرين بشكل ممنهج ومنظّم ليشمل المجتمع وحتى المجتمعات الأخرى بأكملها، ويعد من التعاريف المباشرة لمفاهيم الهمجية والإجرام، كونه يتسبب بمعاناة ومآسي فظيعة للإنسان والبيئة، ويدفع بالمجتمعات نحو الديستوبيا؛ ولا يقيم أي اعتبار للقيم الأخلاقية في العلاقات الإنسانية.

بمجرد تحول التوحش إلى وعي جمعي نسبي تصبح طاقة الشر جاهزة للبزوغ أو الانفجار في وجه عدو وهمي محتمل في الزمان والمكان المختارين؛ ويستلزم الأمر وجود نخبة قيادية منها لتنظيمها وتوجيهها قد تعتمد على الإمكانات المتوفرة لديها أو تتلقى الدعم والتوجيه من أطراف خارجية تتقاطع مصالحهما أو تتبع لها، أو امتلاك تلك الأطراف للكثير من الأدوات والوسائل للتأثير عليها وتوجيهها بإرادتها (تأثير مباشر من خلال العملاء والمندسين والصفقات- غير مباشر من خلال التأثير الاقتصادي والسياسي والعسكري) وفقا لاستراتيجيات الهيمنة على الشعوب من ضمنها الحرب النفسية؛ بشكل عام يؤثر في نشوء هذه التنظيمات وجاذبيتها العاطفية ثلاثة عوامل أساسية محرّضة وهي البيئة والايديولوجيا والدعم الخارجي؛ وتتم إدارة عملية التفاعل بين هذه العوامل والتأثير عليها من خلال مستويين، المستوى الذاتي المتعلق بذهنية الفرد المتطرف وردة فعله استناداً إلى تصوراته تجاه واقعه، وتفاعله مع سياق ما بات يعرف بـ "التفكير الجماعي أو تفكير القطيع أو عقلية القطيع" وهو نوع من التفكير يحاول عبره أفراد الجماعة تحليل وتقييم الأفكار بشكل يحافظ على تماسك الجماعة واستمراريتها وتجنب الجدالات والأفكار المتسببة في إضعاف الروح المعنوية التي من شأنها أن تتسبب بتصدع في الجماعة، والميل السلوكي لاتباع رأي الجماعة التي ينتمون إليها؛ والمستوى الخارجي المتعلقة باستراتيجيات الدول وأجنداتها حيث تدير أجهزة المخابرات العلاقات والمؤامرات. وتلعب ذهنية قادة التنظيمات وطموحاتهم دوراً محورياً في صياغة المواقف لدى كلا المستويين.

وبالتالي فإنّ مفاهيم التطرف وجذوره الفكرية وتحوله من مشاعر فردية إلى وعي جمعي أدّى إلى تبلوره في صيغة كيان منظم (جماعة أو منظمة أو حزب) يتبنى السلوكيات والمشاعر المتوحشة كناتج حتمي عن التفاعل بين التطرف وثقافة الكراهية والتي تشكل جوهر الإرهاب الخارج عن السيطرة الوجدانية والأخلاقية. لقد تنامت ظاهرة الإرهاب بشكل دراماتيكي في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، متجاوزة للحدود ومشتتة للمجتمعات ليصبح للخوف حضوراً

---

[18] "الجريمة المنظمة: هي السلوك الإجرامي المضاد للمجتمعات الذي يقوم به أعضاء تنظيم إجرامي معين، يمارس أنشطة خارجة على القانون. ويتم في إطار هذه التنظيمات الإجرامية تقسيم العمل، وتحديد الأدوار، ووضع تسلسل للمكانة والسلطة، ويكون بهذه التنظيمات نسق للمعايير وولاء تنظيمي واضح، كما يكون لها علاقات بأفراد معينين داخل المجتمع لحمايتهم، أو خارج المجتمع لامتداد نشاطهم الإجرامي، وفي هذا ما يوحد أركان حياتهم الإجرامية وامتدادها..". د. محمد شحاتة ربيع، د. جمعة سيد يوسف، د. معتز سيد عبد الله؛ علم النفس الجنائي؛ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع؛ القاهرة، بلا طبعة وتاريخ نشر؛ ص43.

[19] لقد تمت الاستعارة المجازية لكلمة (مثلث التوحش) من مصطلح (مثلث الحريق) في مجال عمليات إطفاء الحرائق، حيث يتكون أضلاع مثلث الحريق من المادة المؤكسدة (الأوكسجين) والحرارة والمادة القابلة للاشتعال، ويلزم لإطفاء الحريق إزالة أو حجب أحد الأضلاع، الأوكسجين أو الحرارة أو المادة المشتعلة، وكذلك هناك مثلث القوة لأي كيان والذي يتكون من القوة الصلبة والقوة الناعمة والقوة الذكية ويشكل جوهر الاستراتيجيات للقوى العظمى؛ ونفس الأمر بالنسبة للتوحش، فمن أجل القضاء عليه يتوجب إزالة أو حجب أحد المحرضّات الرئيسية التي تؤججه، التطرف كمشاعر وثقافة الكراهية كأفكار والإرهاب كسلوك...

طاغياً في حياة الكثير من المجتمعات بالتزامن مع انتعاش ثقافة الكراهية إلى مستويات مقلقة، وتشهد بلدان الشرق الأوسط انتشاراً متسارعاً لهذه الظاهرة التي أصبحت تحتل المرتبة الأولى في أولويات المواجهة بالنسبة للأعداء والخصوم التقليديين من بعض الدول، وتحولت إلى تهديداً مباشراً للأمنين الوطني والإنساني؛ وبما إن التنظيمات الإرهابية تختلق لنفسها مفاهيم أخلاقية نسبية خاصة بها وفقاً لوجهة نظرها تصبح كافة الثقافات والمجتمعات والدول معرضة لخطرها، الأمر الذي يُحتّم على تلك الكيانات تنسيق جهودها وتوثيق تعاونها وتجاوز خلافاتها للتصدي لهذه الظاهرة والحد من انتشارها.

الفكر الأصولي المتطرف المعاصر.

إنّ تنسيق الأعمال والسلوكيات في إطار أيديولوجي لمجموعة من الأفراد يؤدي إلى بروز ما يسمى "بالتنظيم" الذي يستمد طاقته واستمراريته وتماسكه من المعتقدات واعتماد قيم معنوية وأخلاقية نسبية مشتركة تجذب الأتباع وتوثق العلاقة بينهم، وهذا أمرٌ طبيعي في سياق العلاقات البشرية؛ يأخذ التنظيم أشكال متنوعة تبعاً للمجالات التي يتفاعل معها، فمثلاً تشكل الكومينالية أرقى أشكال التنظيمات الاجتماعية؛ بينما تشكل المذاهب والطوائف تنظيمات دينية قد تتفق في جوهر العقيدة الأم ولكنها تختلف في تفسيرات الظواهر والحوادث والفتاوي، وهناك التنظيمات السياسية كالفرق والأحزاب والجماعات ونفس الأمر بالنسبة للمجالات العسكرية والاقتصادية والعلمية والثقافية؛ تعدّ السياسة بمفهومها العام الطاقة التي تضمن قيام التنظيمات واستمراريتها وجدولة أعمالها واستراتيجياتها؛ بينما الأمر الذي يمنح التنظيم خصائصه هو طريقة تفاعله مع ثنائية "الخير والشرّ" وتفسير طبيعتها من وجهة نظره، يبدو أن ذلك يؤدي إلى نشوء الإيديولوجية التي يتبناها التنظيم ويجعلها منهجاً ودستوراً له. وأي تنظيم يمكن أن ينحرف نحو التطرف.

من خلال رصد الأحداث التي سطّرت تاريخ البشرية منذ آلاف السنين نلاحظ تسبب التنظيمات (أو شبه التنظيمات) المتطرفة بمآسي وويلات فظيعة للبشر والبيئة خاصة تلك التي تمجّد وتقدّس العنف كوسيلة للتقرب من أحد الآلهة أو لتمجيد عرقٍ ما، حيث يبدو أنّ العنف والكراهية والدوغمائية يشكلون مؤسسات رسمية للتنظيمات المتطرفة؛ ويعتبر هذا الأمر ميزة رئيسية لبعض الكيانات السياسية والعسكرية التي قامت في الشرق الأوسط التي تعد بؤرة صراع عقائدي، ديني أو مذهبي أو طائفي أو قومي، هذا الأمر ليس وليد هذا العصر بل يمتد بجذوره إلى آلاف السنين، وتبدو الميثولوجيا السومرية التي صاغها كهنة الزقورات- يبدو أنهم شكلوا أولى التنظيمات المتطرفة- والتي صوّرت الصراعات الدموية بين الآلهة للهيمنة على العالم معبّرة عن هذا الأمر وتشير إلى ما يسمى بالعنف المقدس، ولاحقاً أصبحت كل دولة منتصرة تفرض آلهتها على الشعوب المنهزمة وتقوم بنفس الوقت بإذلال آلهة المنهزمين من خلال تحطيمها واستعباد أتباعها، ونجد استمرارا لهذا الأمر في الصراع البابلي والآشوري في سياق فرض الإله آشور على الإله مردوك، بالإضافة إلى الصراع العقائدي في مصر بين أخناتون والكهنة وكذلك يشير السبي اليهودي إلى هذه الحقيقة إلى جانب الصراعات التي نشبت بين الديانات التوحيدية وطوائفها، ضد بعضها من ناحية وضد الديانتين الزرادشتية والإيزدية؛ والمعتقدات الوثنية من ناحية أخرى، وهناك العشرات من الأمثلة المشابهة.

لقد هيمنت التنظيمات المتطرفة، سواء أكانت القومية أو الدينية، على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمنطقة وشكلت في الكثير من الأحيان دعماً لاستبداد أنظمة الحكم الشمولية، وعانت الشعوب من أجنداتها وتداعيات أعمالها، علماً أنّ التنظيمات المتطرفة ذات

النزعة الدينية تسببت بالقسم الأكبر من الأزمات والكوارث للمجتمعات المحلية دون أن تقدم أي حلول أو إنجازات تعالج مشاكل الناس بل تسببت، كما النزعة القومية، بتصدع عميق في العلاقات بين المجتمعات الإنسانية ويبدو أن المحتكرين والمتآمرين تمتعوا بمرونة وذكاء كاف مكّنهم من الهيمنة على ذهنية وطاقة باقي أفراد التنظيم والتسلط على المجتمع. لقد كان هناك صراع محتدم بين المفاهيم القومية والدينية للتنظيمات المتطرفة؛ ويبدو أنها تلاقحت في مرحلة ما لتبرز تنظيمات هجينة، ويمكن اعتبار تنظيم داعش في بداية ظهوره نموذجا لهذا الأمر من خلال التزاوج بين أيديولوجيتي القاعدة وحزب البعث العربي الاشتراكي العراقي في سجن بوكا (جنوب البصرة) الذي كان خاضعاً لسيطرة قوات التحالف التي أسقطت نظام صدام حسين في عام 2003م، حيث كان يكتظ بسجناء من التنظيمين. إنّ حجم تأثير الكارثة والمأساة التي تسبب بها تنظيم داعش يعادل نسبياً حجم جميع المآسي التي عانى منها سكان المنطقة مجتمعة في سياق المئة عام المنصرمة، وقد قدم السكان الكثير من التضحيات للتخلص من سلطة التنظيم ويبدو أن محاولة استئصال أيديولوجيته تصطدم بأجندات الهيمنة لبعض الكيانات الإقليمية والدولية.

إنّ التحولات الكبرى التي أصابت البنى والكيانات الدولية والإقليمية في مطلع القرن العشرين أدت في بعض جوانبها إلى انبثاق تنظيمات متطرفة تولت إدارتها ممن يؤججون الاختلافات الثقافية والخلافات الدينية والمذهبية، خدمة لطموحات أو مشاعر أو مصالح معينة، ويبدو أن الأنظمة الاستبدادية والاستعمارية والإمبريالية قد غذّت من جانبها هذه التنظيمات بشكل ممنهج، بغية توجيهها وفقاً لأجنداتها.

يتصاعد التطرف في الشرق الأوسط بوتيرة متسارعة؛ هذا الشرق يعدّ مهداً للعديد من الديانات والأساطير، تقطنها شعوب يغلب عليها جانب الروحاني والعاطفي على الجانب العلمي الموضوعي والمجرد؛ والتنظيمات المتطرفة المنبثقة عن تسيّس الإسلام (الشيعي والسني وطوائفهما) وتفاعلاتها مع أجندات القوى الكبرى الساعية وراء الهيمنة والنزاعات بينها أثرت سلباً على التنمية والازدهار للمنطقة في مختلف المجالات. لاشكّ أنّ الديانات في بداياتها كانت ثورات اجتماعية وثقافية ضد الظلم والاستبداد المقترن بالفوارق الطبقية وتوفر رفاهية فئة صغيرة على حساب المجتمع وداخل المجتمع الواحد، ويندرج الإسلام في بدايته ضمن هذا السياق؛ حيث يشير المفكر عبدالله أوج آلان[20] إلى أنّ عظمة النبي محمد تكمن في براعة مواجهته لعهده الذي كان يسوده ظروف اجتماعية متخلفة وفظّة للغاية، وذلك بمستوى عالٍ ورفيع من الفكر والمعنويات. إلا أن الإسلام لم يتمكن من الاستمرار ككيان واحد متماسك، بل شهد أزمات كبيرة بعد وفاة النبي ونشوء مؤسسة الخلافة التي يبدو أنها لم تستطع التوفيق بين القيم الأخلاقية للدين وسياسة الغزو المتجذرة ثقافياً تجاه البلدان المجاورة، لينقسم الإسلام في فترة خلافة علي بن أبي طالب إلى ثلاثة تيارات سياسية رئيسية مختلفة في شكل ومضمون مؤسسة الخلافة، ويبدو أن شجاعة علي بن أبي طالب وحكمته وإخلاصه للإسلام لم تكن كافية لردع المنشقين والمتآمرين والناقمين، وقد تطور هذا الخلاف لاحقاً إلى التسبّب بظهور العشرات من الطوائف والتنظيمات المتناحرة. وقد أشار أحد الباحثين[21] إلى إنّ هذا الأمر "يجعل الفرد المنتمي إلى هذه الحركات-التنظيمات- يعاني من تناقض بنيوي: إن محاولة إخضاع السياسي للديني يؤدي إلى تشكيل حركة سياسية يكون فيها الدين في النهاية خاضعا

[20] عبد الله أوج آلان؛ "الإصرار على الاشتراكية إصرار على بناء الإنسان"؛ الطبعة الأولى 2003م؛ منشورات اتحاد التنوير الديمقراطي؛ مطبعة آزادي؛ الكتاب رقم 20 من سلسلة الكتب العربية؛ ص58.

[21] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة (ما وراء صدام الحضارات)؛ ترجمة د. جان ماجد جبور؛ هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الطبعة الأولى 2009م، ص105.

بالضرورة..."، في حين يشير الباحث علي الوردي في كتابه وعّاظ السلاطين[22] إلى حالة الازدواجية في الشخصية تحت تأثير عاملين متناقضين (البداوة والإسلام) والتي يعاني منها نسبة كبيرة من سكان سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية ودور ذلك في التناحر المستمر في سبيل الوصول إلى السلطة وتأمين المصالح والمنافع الشخصية.

لقد تحول الإسلام من عقيدة تتمّم مكارم الأخلاق بحسب مؤسسها إلى عقيدة محتكرة من قبل بعض المستبدين المتسلطين على رقاب الشعوب الذين ساروا على خطى أسلافهم من ملوك وأباطرة في العصور السابقة، وأصبح الاستيلاء على السلطة والمبالغة في بناء القصور وامتلاك أكبر قدر ممكن من الجواري والسبايا والغلمان والثروات المغتنمة من الشعوب مقدماً على الاهتمام بشؤون الرعية وتحقيق الازدهار وحل المشاكل المختلفة للناس؛ حيث تمتاز الطبقات المهيمنة الإنتهازية في مختلف الأزمنة بقدرة عجيبة على التأقلم والتكيّف مع التحولات الاجتماعية والسياسية من خلال استيعابها ومن ثم الهيمنة عليها وتسييرها وفقاً لإرادتها ومصالحها وهذا ما نجده في مواقف الطبقات المهيمنة لدى مختلف الشعوب والتي دخلت الإسلام وضمنت هيمنتها على السلطة والثروات أو أجزاء منها، وتطورت العصبيات القبلية إلى عصبيات طائفية ومذهبية، في هذا السياق يرى الباحث علي الوردي[23] بأنّ"...الدين لا يردع الإنسان عن عمل يشتهي أن يقوم به، إلا بمقدارٍ ضئيل. فتعاليم الدين يفسرها الإنسان ويتأولها حسب ما تشتهي نفسه...".

استناداً إلى ما سبق يبدو أن الإشكاليات المقترنة بالصراع الفظيع بين الفرق والجماعات المتبنية لنهج تسيُّس الدين وإحياء نظام ثيوقراطي وأوتوقراطي[24] بنفس الوقت وفق معايير العصور الماضية من جهة، وبين القوى الكبرى المزدهرة علمياً ومادياً والساعية وراء الهيمنة على المقدّرات من جهة أخرى؛ تعدّ من العوامل الرئيسية للكوارث والأزمات المختلفة التي تعيشها الشعوب الرازحة تحت وطأة هذا الصراع، قد يكون هذا الأمر من العوائق الرئيسية التي تعترض عجلة الازدهار والتنمية التي تخلفت عنها مجتمعات المنطقة ردحاً طويلاً من الزمن. إن تعقُّد مسارات هذا الصراع وتشعباته تحوّل إلى مصدر تشتيتٍ للطاقة اللازمة لتحليله وفكّ عقده في سياق بلورة الأفكار وصياغة الحلول واتخاذ التدابير؛ يبدو أن تحليل طبيعة التربة التي احتضنت بذرة الأفكار الموّلدة لهذا الصراع والتعرف على محرّضات نموّها ومخصّباتها ستفسح المجال لاستيعاب هذه الإشكاليات وتأثيرها في تركيب القوى الراغبة بالهيمنة على المنطقة لاستراتيجياتها.

---

22 للمزيد راجع الكتاب: د. علي الوردي؛ وعّاظ السلاطين؛ الطبعة الثانية؛ 1995م؛ الناشر: دار كوفان- لندن.

23 نفس المصدر السابق؛ ص83.

24 ثيوقراطية وتعني حكومة الكهنة أو حكومة دينية. تتكون كلمة ثيوقراطية من كلمتين مدمجتين هما" ثيو" وتعني الدين، "وقراطية" وتعني الحكم. وعليه فأنّ الثيوقراطية هي نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته أو بالأحرى شرعيته مباشرة من الإله. حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين. وتعتبر الثيوقراطية من أنواع الحكم الفردي الذي كان يحكمها الملك عن طريق الوراثة ولا يجوز لأحد مخالفته باعتباره خليفة الله حتى قيل من يخالف الخليفة فقد يخالف الله... موسوعة المعرفة (الإلكترونية)؛ ثيوقراطية.

أوتوقراطية – Autocracy مصطلح يقصد به نظام الحكم الذي تكون فيه السلطة مركّزة في يد فرد واحد يمتلك وحدَه كل السلطة التي لا يحدّها شيء، وهذا لا يعني دائماً غياب القوانين والدساتير في هذا النظام، ولكن يعني بالأساس قدرة الحاكم الأوتوقراطي (الفرد) من الناحية الواقعية، على تخطي القوانين والدساتير في حالة وجودها استناداً إلى عدم وجود آلية مستقلة في النظام قادرة على أن تفرض القوانين فتجبره على احترامها . ويتمثل هذا الاستبداد في الحكم في إطلاق سلطات الفرد أو الحزب المترئس، وتوجد الأوتوقراطية في الأحزاب الفاشية أو الشبيهة بها، وتعني باللاتينية الحكم الإلهي أي أنّ وصول الشخص للحكم يتم بموافقة إلهية. وتختلف الأوتوقراطية عن الديكتاتورية من حيث إن السلطة في الأوتوقراطية تخضع لولاء الرعية، بينما في الديكتاتورية فإن المحكومين يخضعون للسلطة بدافع الخوف وحده... الموسوعة السياسية (الإلكترونية)؛ أوتوقراطية – Autocracy؛

نلاحظ أن طبيعة القوى المتصارعة المتفاعلة في هذه الفوضى والتي يتمّ معايشتها اليوم هي نفسها تقريباً الفاعلة والمؤثرة في القرن التاسع عشر، مع تبادل الأدوار أحياناً بين بعض القوى المتشابهة، أي أنّ بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا وفرنسا والسلطنة العثمانية والدولة الشيعية والجماعات الراديكالية المتطرفة لا تزال حاضرة في المشهد السياسي والعسكري والاقتصادي وحتى الثقافي في المنطقة المركزية[25] للشرق الأوسط. كلٌ من هذه القوى تخوض صراعاً في سبيل تحقيق هيمنة نسبية وفقاً لعقيدتها السياسية. يبدو أن أسس هذا الصراع بشكله الحالي تبلورت مع بدء تضعضع احتكار السلطة العثمانية للدين وبروز أفكار جديدة مصدرها شخصيات دينية غير رسمية في تبعيتها للسلطة القائمة، استناداً إلى صياغة معايير وتفسيرات ووجهات نظر ديالكتيكية[26] نسبية تعكس اتجاه تفكيرهم ومحاكماتهم للمسائل والقضايا والظواهر في بيئاتهم؛ تجلّى ذلك في بروز الحركة الوهابية- السعودية التي يبدو أنّها كانت ردة فعل مباشرة لنخبة من العرب على تراكم مشاعر المظلومية والمعاناة والأسى بعد استيلاء السلاطين العثمانيين على الخلافة العربية الإسلامية (العباسية) وانتقال مركز الحكم الإسلامي من العالم العربي إلى عاصمة غير عربية[27]- إسطنبول أو القسطنطينية سابقاً- والخضوع لسلطة أجانب تسبّبوا بانتشار المزيد من الفقر والجهل بين عامة الناس، وإفساح المجال لدخول معتقدات جديدة إلى الإسلام وغريبة على الذين توارثوا تعاليمه مباشرة عن أجدادهم في تلك المناطق والتي تمتد بجذورها إلى بدايات الدعوة الإسلامية، بالإضافة إلى محاولات السلطويين في السلطنة نسف المنظومة الأخلاقية للمجتمعات المحتلة وجعلهم جنود تحت الطلب كوقود لحروب السلاطين في الاستيلاء على ممتلكات الشعوب الأخرى واستعبادها واستباحة حرماتها، وبنفس الوقت إيجاد زمرة من الأشخاص التابعين كشهود زور لتشريع سياسات السلطنة وانتهاكاتها؛ على الرغم من نجاح السلطنة العثمانية في تحقيق استقرار سياسي بين القوى المتصارعة على السلطة في إطار الدولة الإسلامية وتحقيق أمجاد ورفاهية شخصية مفرطة، وذلك من خلال احتكارها للسلطة والقضاء على المنافسين. لقد وفرت الطبيعة الصحراوية لشبه الجزيرة العربية ظروف سمحت لسكانها بنوع من الاستقلال عن الهيمنة الفكرية للسلطنة العثمانية، الأمر الذي كان له دور في ضعف التأثير العقائدي للسلطنة على الكثير من رجال الدين هناك. لقد أهمل العثمانيون اللغة العربية التي هي لغة (القرآن الكريم) و(الحديث الشريف) وهما المصدران الرئيسيان للتشريع آنذاك ولم يكونوا يعرفون من الإسلام سوى العبادات، إلى جانب انتشار الطرق الصوفية[28] كردة فعل على الظلم الذي كانت تتعرض له المجتمعات

---

25 نقصد بالمنطقة المركزية للشرق الأوسط، كردستان والعراق وسوريا وشمال شبه الجزيرة العربية.

26 "... أخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية (ديالیغو) ومعناها المحادثة والمجادلة. وكان الديالكتيك يعني، في عهد الأولين، فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها استدلال الخصم، وبالتغلب عليها...". ستالين؛ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية؛ ترجمة ونشر دار دمشق للطباعة والنشر؛ 2007م؛ ص22.

يقول لينين: "ان الديالكتيك بمعناه الاعتيادي هو دراسة التناقضات في جوهر الاشياء بالذات".

أي هو فن المجادلة والوصول الى الحقيقة عبر حوار ودّي صريح بعيداً عن شراسة التعابير بل بصحة الموضوعة المطروحة وصواب تعليلها؛ وذلك في سياق تناقض الأضداد؛ والسبب والنتيجة، الضرورة والصدفة، والمحتوى والشكل؛ هلاك الظواهر القديمة وبزوغ الظاهرة الجديدة أي مثلاً حرق الخشب يتحول الى فحم، وتحول القمح الى طحين...

27 للمزيد راجع الكتاب؛ د. فيليب حتّي؛ العرب/ تاريخ موجز؛ الطبعة السادسة؛ 1991؛ دار العلم للملايين؛ بيروت.

28" الصوفي من اتبع طريقة التصوف واتسم بسمات أصحابها. وأشهر الآراء في تسميته أنه سمي بذلك لأنه يفضل لبس الصوف تقشفاً. وقيل أيضاً أن اسمه مأخوذ من الصفاء، لأنه هو الذي يصفو قلبه بكف النفس عن الهوى، والاستغراق بالكلية في ذكر الله... والصوفي في اصطلاح الفلاسفة هو الذي يزعم أنه يستطيع أن يرتقي من المعطيات التجريبية والرموز الحسية إلى الكشف عن الحقائق الخفية، أو الذي يزعم أنه يستطيع أن يحرك الحقائق الإلهية بحدس متعال، إما بطريق الإلهام، وهو طريق الأولياء، وإما بطريق الوحي، وهو طريق الأنبياء...". د. جميل صليبا؛ المعجم الفلسفي؛ الجزء الأول؛ الناشر: الشركة العالمية للكتاب ش م ل؛ بيروت/لبنان؛ 1994م؛ بلا رقم طبعة؛ ص747.

المحلية والعجز عن مقاومته؛ إلى جانب تقلص الإنتاج الاقتصادي المحلي في عموم المناطق الخاضعة لهيمنة السلطنة بالتزامن مع الضرائب المستمرة والجمود العلمي والشلل الفكري في العلوم والفنون المختلفة بما فيها الدينية، وذلك في سياق المقارنة مع بعض الدول الأوروبية المجاورة، وقيام بعض السلاطين بقتل إخوانهم حتى لا ينافسونهم في السلطة؛ كما أنّ زواج البعض من الأوروبيات اعتبره البعض إساءة للأمة الإسلامية[29].

تحشّد الفكر الأصولي المعاصر.

إنَّ ما يحدد طبيعة أي تنظيم وقوته هي أخلاقيات قادته وثروته وأيديولوجيته وأعداد المنتسبين إليه. بشكلٍ عام هناك ثلاثة صفات شائعة لأي تنظيم متطرف وهي الراديكالية، والأصولية أو الرجعية، والإصلاحية[30]. إنَّ أي تنظيم يمكن أن ينحرف نحو التطرف نتيجة عوامل ودوافع متحرضة بفعل الخوف أو التفكير الدوغمائي والمتدني أو البيئة البائسة أو المستويات العالية من الجوع أو الكبت الفيزيولوجي والعاطفي والروحاني، أو المعاناة من تآمرات الفئات الاحتكارية والمهيمنة الساعية وراء تكديس الثروات والاستحواذ على المزيد من السلطات...إلخ، فهناك الكثير من العوامل التي تدفع إلى التطرف ويصعب عدّها جميعاً، أبرزها العوامل الذاتية التي تستند على مستوى الحسّ النقدي لدى الفرد ومستواه الذهني في تفسيره للبيئة المحيطة به والسياسات الموجهة إليه سواء من قبل الأسياد المتآمرين أو من قبل الكيانات الساعية وراء الهيمنة على الفرد ومجتمعه وبلاده؛ وكذلك تستند على معدلات تنامي مظاهر الفقر أو التخلف أو انعدام الأمان أو الانحلال الأخلاقي، يبدو أن هذه العوامل الذاتية تتأثر سلباً وبدرجة كبيرة بالسياسات القمعية لسلطة محلية ما وغياب مبادئ الديمقراطية؛ هذه الأمور تحرّض على تنامي وعي جمعي في هذا الإطار الأمر الذي يفرز فئة راديكالية داخل المجتمع تتولى زمام المبادرة وفق وجهة نظر وقناعة خاصة بها للتخلص من السلطة القائمة واستبدالها بسلطة تناسب أفكارها وثقافتها، قد تكون الأفكار مستوردة من الخارج كالإيديولوجيات والاستراتيجيات أو متحورة داخلياً من مذاهب أو معتقدات؛ كما أنّ الأفراد الذين يعيشون في وسط اجتماعي مشبع بالتطرف وحتى أن كانوا يمتلكون أفكاراً مخالفة نسبياً خاصة بهم إلا أنهم مضطرون لمسايرة الواقع والانخراط بشكل اضطراري في السلوكيات التي يفرضها هذا الوسط وتبني مشاعرهم، يحرضهم على ذلك الفقر أو الجهل أو الخوف أو حماية المصالح وتنميتها، ومع الزمن يجد الفرد نفسه متعصباً لأفكار جماعته كنتيجة للذوبان في هذا الوسط الذي يمتهن الديماغوجية[31] ويمتلك آليات دعائية ووسائل إقناع وتحريض مختلفة؛ أحيانا يمكن للفرد من أن ينأى بنفسه عن هذا الأمر ويبدو أنه لا يمتلك خياراً سوى الهجرة وهو ليس بالخيار السهل اتخاذه، استناداً إلى مبدأ الخروج من المصفوفة. كما أنّ التحريض على التحول إلى التطرف المتوحش يشبه تماماً التحول إلى عالم الجريمة، فعملية تصنيع مجرمٍ ما[32] لا تتعلق بنوعية معينة من الأشخاص،

---

[29] ياسين بن علي؛ خروج الوهابية على الخلافة العثمانية (قراءة تاريخية ومناقشة شرعية)؛ النسخة الثالثة 2019م- ناشر النسخة الإلكترونية مجلة الزيتونة؛ ص197.

[30] الراديكالية أي التغيير الجذري في الكيان القائم، والأصولية أو الرجعية أي الرجوع إلى أصل المعتقد المتبنى وبدايته وفق وجهة نظر خاصة، والإصلاحية أي اعتبار المعتقدات (مهما كان نوعها) التي تنظم الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية فاسدة ويتوجب فرض عقيدته السياسية لإصلاحها...

[31] الديماغوجية: وتسمى أيضاً بالغوغائية، وهي بشكلٍ عام سياسة الاحتيال على الجماهير واستغلال ميولها بغرض كسب تعاطفهم وتأييدهم في سبيل الحصول على السلطة أو النفوذ، وهي إحدى استراتيجيات الإقناع غير الأخلاقية وغير الموضوعية التي تستند إلى إثارة مخاوف الجماهير وترهيبهم من أمور وهمية، وتضليلهم بشكلٍ يفسح المجال للمتآمر بأن يطرح نفسه كمنقذ وحامي عبر خطابات ودعايات تجذب العواطف وتتخللها شعارات ووعود كاذبة...

[32] ديفيد كانتر؛ علم النفس الشرعي/مقدمة قصيرة جداً؛ ترجمة ضياء ورّاد؛ الطبعة الأولى 2014م؛ الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة؛ القاهرة. ص47.

بل تتعلق بوجود سياقٍ إجرامي للفرد ينشأ داخله، والذي يتضمن الأسرة والعشيرة والمجتمع والثقافة، أي أن خلق الشخصية الإجرامية تحتاج إلى أرحام اصطناعية تؤثر فيها وتنمّيها، وكيانٍ يوفر الحماية والرعاية، وبيئة فاسدة تطور سلباً الأفكار والتصورات، وثقافة تشرّع الجريمة وتبرّرها وتغيّب الوعي بنتائج الأفعال، وتدفع إلى الاعتقاد بأنّ الجريمة تفيد؛ ومن الأمور التي تؤجج التطرف هو تطرف الآخر الساعي أيضاً وراء احتقار من يقع خارج حدوده المعنوية والثقافية، هنا تتولد عملية الثأر الهادفة إلى محو الإذلال الجماعي، فمثلاً الرسوم والمقالات المسيئة للإسلام زادت من حضور الأصوليين ونفوذهم وتولدت قناعة لدى جماهير البلدان الإسلامية بأن الغربيين يحتقرونهم ويذلّونهم، وبالتالي توفر مسوّغات للتفتيش عن أية مناسبة من أجل الثأر[33] أي أنّ احتقار معتقدات الآخرين قد تؤدي إلى جنوحهم نحو التطرف، حيث تتولد ردود أفعال مؤجّجة لمشاعر الكراهية كنتيجة عن الإساءة إلى الرموز المقدسة لعقيدة ما بغرض إظهار تمايز معتقد ما عن معتقد آخر أو نتيجة لتطرف الجهة المسيئة أو عدم امتلاكها لوسائل موضوعية من شأنها أن تراعي مشاعر الآخرين في سياق فرض ثقافتها ونمط حياتها؛ ومن الأمور الأخرى المحرّضة على التحول إلى التطرف افتخار بعض الدول بماضيها الاستعماري، فمثلاً تحتفظ بعض المتاحف الفرنسية بجماجم مفصولة عن أجسادها تعود للمقاومين والرافضين للاستعمار الفرنسي[34] في مختلف المناطق التي احتلتها فرنسا، وكذلك تمجيد الدولة التركية للمعارك الدموية مع البلدان الأخرى في فترة السلطنة العثمانية يندرج في هذا السياق أيضاً، الأمر الذي يثير ثقافة الكراهية في نفوس من يعتبرون الضحايا أسلافاً لهم أو يتعاطفون معهم.

كما وتلعب قاعدة "الفعل وردة الفعل" دوراً في التحريض على التطرف فقد يتم تفسير مواقف البعض تجاه معتقد ما وطريقة تعامله مع أتباعه وفق وجهة نظر تآمرية عاملاً مؤججاً آخر، فمثلاً في كتاب أجنحة المكر الثلاثة[35] يعتبر الكاتب (التبشير والاستشراق والاستعمار) من سلسلة أعداء الإسلام إلى جانب اليهود والملحدين والشيوعيين والحملات الصليبية، ويعتبر الكاتب تسليط جيوش الصليبيين بحسب تعبيره على بلاد المسلمين لوناً من ألوان التأديب الرباني بسبب الجبن والبخل واتباع الشهوات والتحاسد والتباغض والفرقة ومعصية الله والرسول، وباعتقاده فقد ردّ هذا التأديب للمسلمين شيئاً من كيانهم الذاتي، وكذلك يتهم الكاتب أهل الذمة والطوائف والفرق المنحرفة (باعتقاده) بتقديم المعونة للصليبيين إلى جانب الكيد اليهودي والمجوسي والصليبي، ويشير إلى أنّ الصليبيين بعد هزيمتهم انتهجوا حرب أخرى تبعد المسلمين عن أسس دينهم وتخمد فيهم روح الجهاد في سبيل الله من خلال الغزو الفكري والنفسي والخلقي والحضاري والمدني والاقتصادي متسترين بالعلم أو بالتجارة أو بالصناعة أو بتحسين مظاهر المدنية أو بالتعاون والمحبة الإنسانية أو بالطب والمستشفيات أو بالخبرات الفنية في مختلف المجالات. إنّ ما يعزّز هذه الآراء والأفكار ما يطرحه الجانب الآخر ونخص بالذكر هنا على سبيل المثال دراسة (حدود الدم نحو نظرة أفضل للشرق الوسط) التي قدمها الباحث السياسي الأمريكي (رالف بيترز) الذي يدعو لتقسيم بلدان معظمها عربية وإسلامية وفقاً لروابط الدم (الاثنية) والروابط الدينية الطبيعية مبرّراً هذا الرأي بكونه عاملاً رئيسياً في إيقاف بحار الدم في المنطقة بما فيها دماء الغربيين، ويستغل المتطرفون هذه الدراسة كغيرها للترويج لنظرية المؤامرة وتعزيز الديماغوجية في خطابهم الأيديولوجي؛ يبدو أن هذا رأي الكثير من الفئات المتطرفة، قد يفسر هذا الأمر تنفيذ المتطرفين لعلميات إرهابية

---

33 تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة (ما وراء صدام الحضارات)؛ ترجمة د. جان ماجد جبور؛ هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الطبعة الأولى 2009م، ص154.

34 مقالة بعنوان "جماجم" الجزائريين في فرنسا.. نسخة "داعشية" من القرن الـ 19؛

35 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني؛ أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها/ التبشير- الاستشراق- الاستعمار؛ الطبعة الثامنة 2000م؛ الناشر دار القلم؛ دمشق؛ ص23-20.

عشوائية داخل المجتمعات الغربية والشرقية والإفريقية دون تمييز بين الأبرياء والجناة بحسب وجهة نظرهم، فالحالة أقرب ما تكون بصراع أزلي بين قوى تُخيّر نفسها وتشيطن الآخرين، وما يدعم هذا الأمر الحرب النفسية والسياسات الاقتصادية والعسكرية الخاصة بأجندات بعض الدول الساعية وراء الهيمنة، كما أن فشل نظام أي حكم في مواجهة العقوبات الاقتصادية أو العسكرية يفسح المجال للتنظيمات المتطرفة لاستلام زمام المبادرة وجذب العناصر كما في التجربة العراقية، وأحيانا قد تتلقى هذه التنظيميات بشكل متزامن للدعم المالي والعسكري وبالتالي وجود أجندات لإحياء أو تشكيل تنظيمات متطرفة كاستراتيجية لبث الفوضى والدمار في بلاد ما بغرض خلق الظروف المناسبة للهيمنة عليه.

لقد تضافرت مجموعة من العوامل لنشوء هذه التنظيمات لعل أبرزها استثمارها وتطويعها خدمة لأجندات الهيمنة فمثلاً استطاعت السلطنة العثمانية الهيمنة على شعوب المنطقة لمدة طويلة من خلال توظيف الدين خدمة لأجندات سلطوية في الوقت الذي لم تكن تملك فيه أي شرعية لخلافة المسلمين وفقاً للمفهوم الإسلامي، ويبدو أن بريطانيا الدولة الاستعمارية قد سارت على خطاها لضمان هيمنتها وفقاً لقاعدة "فرق تسد" وبنفس الوقت لمواجهة خصميها التاريخيين، الدولة الفرنسية وروسيا القيصرية، التي من جانبها سعت إلى تطويع الأقليات الدينية والقومية لضمان هيمنتها، وقد اتبع الاتحاد السوفيتي لاحقا استراتيجية دعم الحركات القومية اليسارية والشيوعية لمواجهة نفوذ بريطانيا وحلفائها.

التطرف الديني والصراع الدولي.

تمتاز منطقة الشرق الأوسط بأهمية جيوبوليتيكية واستراتيجية ولا تزال هدفاً للهيمنة عليها من قبل مختلف القوى الكبرى المؤثرة، بالتزامن مع خضوعها لأنظمة سلطوية استبدادية دخيلة لا تمت بأي صلة للثقافات المجتمعية المحلية المتعايشة بجوار بعضها منذ آلاف السنين.

إنّ بروز الحركة الوهابية- السعودية في فترة الصراع المحتدم بين القوى العثمانية والفرنسية والبريطانية والشيعية شكّلت بادرة تطور جديد في هذا الصراع، وقد كانت من خلال دعوتها إلى إقامة خلافة عربية محرّضة لبروز الفكر القومي العربي المتطرف المتأثر أيضاً بالشوفينية الغربية والتركية حيث يرى الباحث برنارد لويس[36] "...بسبب كره العرب القديم للأتراك وعدم الثقة بالغرب تبلورت فكرة القومية التي زحفت اليهم من الغرب وإحياء مجد اللغة والثقافة العربيتين، وازدادت هذه الميزة باحتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830م والبريطانيين لعدن في سنة 1839م ومصر سنة 1882م التي تؤلف قلب العالم العربي وقد أدى احتلالها إلى اشتداد الحركة القومية فيها...".

لقد كانت حكومة الهند البريطانية[37] من السبّاقين للتواصل مع هذه الحركة وتقديم الدعم لها بغرض تعزيز هيمنتها على الخليج بشقيه الفارسي والعربي وانتزاعها من السيطرة العثمانية وضمان هيمنتها على المنطقة في مواجهة الخصم الفرنسي، وقد عزّزت من هذا الأمر بتطوير

---

[36] برنارد لويس؛ العرب في التاريخ؛ تعريب نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد؛ دار العلم للملايين؛ بيروت 1954؛ الطبعة الأولى؛ ص247.

[37] الهند البريطانية أو الراج البريطاني هي المرحلة التاريخية التي استعمرت فيها مناطق الهند وباكستان وبنغلاديش وميانمار من قبل الإمبراطورية البريطانية منذ بداية القرن 19 حتى منتصف القرن 20. في اللغة الهندية، كلمة "راج" تعني "الحكم"، أي فترة الحكم البريطاني في المنطقة. كانت المناطق المستعمرة تمثل دولة واحدة. الحكم البريطاني في الهند انتهى في 15 أغسطس 1947... الهند البريطانية؛ موسوعة المعرفة (الإلكترونية)؛

علاقاتها مع عائلة الأشراف[38] في مكة لاحقاً، وقد كانت للسلطنة العثمانية ردة فعل من خلال التأثير السلبي في الحركات الصوفية، خاصة النقشبندية، وإخراجها من إطارها الروحاني إلى التنظيم العسكري؛ بينما قام الفرنسيون إلى جانب دعم المكونات المسيحية والأقليات الدينية غير السنية في المنطقة بالتركيز على دعم المعارضين للسلطنة العثمانية والساعين وراء طموحات سياسية، ونخص بالذكر هنا محمد علي باشا[39] الذي شجعته فرنسا وقدمت له الدعم لتلبية طلب السلطان العثماني في ضرب الحركة الوهابية- السعودية، وقد يكون ذلك بغرض تهيئة الظروف المناسبة لتمدد النفوذ الفرنسي إلى هناك.

أما موقف الحركات ذات النزعة الدينية فقد انقسموا بين مؤيد للتحالف مع الغرب من الحركة الوهابية وقسم من التيار القومي العربي في سياق صراعه مع استبداد السلطنة العثمانية وفق القاعدة الشرعية "جواز الاستنصار بالكفار على البغاة من أهل الإسلام"[40] بشرط عدم توليتهم وتمكينهم من دار الإسلام وهدمها؛ وبين مؤيد للسلطنة العثمانية باعتبارها الممثلة الوحيدة للخلافة الإسلامية السنية وكان هذا لسان حال بعض الحركات السياسية النقشبندية وبعض تيارات جماعة الإخوان المسلمين لاحقاً. لقد ظهرت الكثير من الآراء والتحليلات التي اتهمت هذه الحركات بالعمالة للغرب وهناك من أشار إلى أنها حاولت اتباع سياسة مهادنة كتكتيك بغرض الحصول على مكاسب سياسية يمكن استثمارها لاحقاً لتحقيق أجنداتها واستراتيجياتها.

في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي اندلعت عام 1914م أصابت المنظومة الفكرية والسياسية للمنطقة تحولات جذرية، حيث برز التيار القومي المتطرف (التركي والفارسي والعربي) بموازاة التيار الديني المتشدد وظهرت مجموعة من التنظيمات الأيديولوجية.

استناداً إلى براغماتيتها[41] وانطلاقاً من سعيها للهيمنة على القيادة الروحية للعالم الإسلامي، وتحويل الجماعات الإسلامية إلى أسلحة تحت الطلب في مواجهة الخصوم، دعمت بريطانيا

---

38 الأشراف ومفردها شريف لقب يطلق على الذين يدّعون نسبهم إلى النبي محمد أو عائلته (بنو هاشم) وينتشرون في معظم البلدان المعتنقة للديانة الإسلامية، وهناك تسابق بين الحركات الصوفية والشيعية والإخوانية على تبني هذا اللقب أو التصبغ به، وهو يعود بجذوره إلى التداعيات التي أعقبت الصراع على الخلافة الإسلامية في بداية العهد الأموي وتطور بشكل كبير في العهدين المملوكي والعثماني، حيث كانوا معفيين في الكثير من الأحيان من الخدمة العسكرية وبعض الضرائب خاصة في العهد العثماني، ومن أشهر شخصياتها الشريف حسين قائد الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين عام 1914م ووالد الأمير فيصل ملك العراق وسوريا في بداية تحريرهما، وحالياً يتولى أحفاده حكم المملكة الأردنية الهاشمية...

39 سعى محمد علي باشا ذو الأصول غير العربية إلى إقامة إمبراطورية عربية سنية عاصمتها القاهرة، وتضم معظم الجغرافية الناطقة في غالبيتها باللغة العربية، وكاد أبنه إبراهيم باشا من أن يقضي على الدولة العثمانية في حوالي العام 1840م لولا تدخل الدول الأوروبية الرئيسية آنذاك بريطانيا والنمسا وبروسيا وفرنسا وروسيا واتفاقهم في مؤتمر عقد بلندن لتسوية هذه المسألة فيما بينهم وتقاسم المناطق الخارجة عن السيطرة العثمانية التي وُصفت حينها بالرجل المريض، وذلك تحاشياً لظهور دولة إسلامية فتية على أنقاض الدولة العثمانية المريضة قد تشكل عائقاً أمام أجنداتها في المنطقة؛ وكان للشريف حسين في فترة الحرب العالمية الأولى طموحات مشابهة وقد تمّ إعاقتها بدليل تخلي البريطانيين عن وعودهم له والتوجه إلى دعم السعوديين الذين كانوا يطالبون بالسلطة فقط على الجغرافيا التي تعرف الآن بالمملكة العربية السعودية... للمزيد راجع: د. فيليب حتي؛ العرب/ تاريخ موجز؛ الطبعة السادسة؛ 1991؛ دار العلم للملايين؛ بيروت.

40 للمزيد راجع: ياسين بن علي؛ خروج الوهابية على الخلافة العثمانية (قراءة تاريخية ومناقشة شرعية)؛ النسخة الثالثة 2019م- ناشر النسخة الإلكترونية مجلة الزيتونة.

41 البراغماتية أو البراجماتية، هي تصورات تلامس خصائص المجتمع الرأسمالي من جملتها اعتبار قيمة الأفكار والأعمال في نتائجها التي تحقق المنفعة المادية الخاصة بغض النظر عن تداعياتها الأخرى خاصة على الأخلاق، وتنكر الموضوعية والمبادئ؛ وتحصر العلاقات بين البشر على أسس اقتصادية نفعية لذلك تشكل أداة هدم للمجتمعات الإنسانية؛ ويمكن اعتبار الفاسد والناجح في مستوى واحد وفق وجهة نظرها طالما يعملان بحرية لهدف مادي واحد كما

الحركات الإسلامية الأصولية حيث كان القادة البريطانيون آنذاك يعتقدون[42] "...أنّ الإسلام يمكن التلاعب به واستغلاله بشراء قيادته الدينية أو الاحتيال عليها. كانوا باختصار يعتقدون أنّ من يسيطر على الخليفة أياً كان يسيطر على الإسلام السنيّ..." ونفس الأمر بالنسبة للتعامل مع اليهود، فإقامة وطن قومي لليهود في محيط من الأعداء سيخلق كياناً موالياً في هذه المنطقة الاستراتيجية ويشكل حاجزاً أمامَ تمدد كلٍّ من الحركة القومية العربية والهيمنة الفرنسية والسوفيتية في كلٍ من سوريا ولبنان وفلسطين ومصر وغيرها. بشكلٍ عام كان هناك دعم بريطاني وبمساندة أمريكية في الكثير من الأحيان للعديد من الجماعات الإسلامية وغيرها المعارضة للأيديولوجية الشيوعية والحركات القومية.

أهم التنظيمات المتبنية للفكر الأصولي المتطرف.

استناداً إلى ما سبق سنسرد عدداً من أهم التنظيمات المتبنية للفكر الأصولي المتطرف التي ترفع رايات العنف المقدس:

الحركة الوهابية- السعودية.

تعد الحركة الوهابية/ السعودية أول تنظيم أصولي راديكالي، ومتطرف بحسب وجهة نظر المخابرات البريطانية والدراسات اللاحقة التي اهتمت بها، كونها انتهجت العنف ضد خصومها وضد كل من لا يتفق مع مذهبها، فهي تعتبر نفسها ممثلة عن الإسلام الصحيح وما تبقى مجرد بدع ومعتقدات بعيدة عنه بحسب وجهة نظرها. والأصولية تعادل في الكثير من جوانبها السلفية، وفي بعض الظروف البائسة تشكل السلفية ملجأ فكري ونفسي للعديد من المقهورين العاجزين عن مواجهة الضغوطات الاستبدادية والفقر والعدوان، وبحسب وجهة النظر السيكولوجية[43] "... تشيع السلفية بشقّيها (الرضوخ للتقاليد والأعراف، والاحتماء بالماضي وأمجاده) من الناحية النفسية، بمقدار درجة القهر التي تمارس على إنسان العالم المتخلف، وبمقدار إحساسه بالعجز والضعف والغلبة على أمره إزاء غوائل الطبيعة وعنت المتسلطين. وهي لذلك أولية دفاعية إزاء تحديات لا قبل له بها، تشلّ مبادراته في الحاضر وتسد أمامه آفاق الخلاص المستقبلي... وعندما يتعرض إنسان العالم الثالث لغزو متسلط خارجي ويعجز عن مجابهته وإيقاف اجتياحه لأرضه وكيانه وثرواته ورزقه تبرز السلفية بوضوح كوسيلة حماية من خلال الإنكفاء على الذات، والرجوع إلى الماضي التليد..."؛ لقد أفرزت السياسة الداخلية الاستبدادية للسلطنة العثمانية ظروف بائسة على معظم المناطق الخاضعة لسيطرتها، وأصبح السكان تحت رحمة ولاة السلاطين ونزواتهم، أما في المناطق البعيدة عن مراكز الولايات فقد كانت الحياة فيها لا تطاق وكان العيش تحت رحمة الطبيعة المتقلبة.

ظهرت الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر على يد فقيه من نجد- شرق السعودية- يدعى محمد بن عبد الوهاب (1703-1791) تقوم على التشدّد في تطبيق تعاليم الدين ونبذ

يقول المثل الشعبي في سوريا "حلال عالشاطر" في معرض مدح الفاسدين الأذكياء؛ ويبدو أنّ المقولة الشهيرة المنسوبة لميكافيلي "الغاية تبرر الوسيلة" تندرج في هذا السياق، فالساعي وراء جني الثروة كغاية لا يجد مشكلة في امتهان السرقة أو الاحتيال كوسيلة لتحقيق هذه الغاية استناداً على هذه المقولة. فمثلاً في المعيار البراغماتي يبقى الحق حقاً إذا كان نافعاً، ومتى ما لم يكن نافعاً فهو ليس بحق... مجموعة من المصادر.

[42] مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص42.

[43] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص103.

الصوفية- تلك التي كانت مدعومة من السلطان العثماني- التي اعتبر معتقداتها "بدعاً" خرافية غريبة على الإسلام من تقديس الأولياء والأماكن، والاستعانة بغير الله من الموتى والزعامات الدينية، والتبرك بالجوامد والأضرحة أو القبور بغرض جلب النفع ودفع الضرّ؛ ويبدو أنّ هذه الأمور كانت سائدة في الحياة الدينية لسكان المنطقة. لقد بنى مؤسس هذا المذهب أفكاره وتصوراته بالاستناد على أفكار كلٍ من (تقي الدين أحمد ابن تيمية) المتوفى سنة 1327م وتلميذه (ابن قيم الجوزية) المتوفى سنة 1350م، خاصة رأي ابن تيمية في ضرورة العودة في أمور الدين، إلى الكتاب والسنة (أي القرآن الكريم وكل الأعمال والأحاديث التي بدرت عن النبي)، وهذا ما يشكل جوهر السلفية أو الأصولية. يبدو أن عبدالرحمن الكواكبي[44] رجل الدين وأحد رواد النهضة العربية وأحد مؤسسي الفكر القومي العربي له رأي مماثل في هذا السياق[45] حيث يرى أنّ قيام الحكّام المستبدين بمن فيهم السلاطين الأعاجم في الإسلام " بالانتصار لغلاة الصوفية وبنائهم للتكايا لم يكن إلا بقصد الاستعانة بممسوخ الدين وببعض أهله المغفّلين على ظلم المساكين، وأعظم ما يلائم مصلحة المستبد ويؤيدها أن الناس يتلقون قواعده وأحكامه بإذعان بدون بحث أو جدال فيودون تأليف الأمة على تلقي أوامرهم بمثل ذلك، ولهذا القصد عينه كثيراً ما يحاولون بناء أوامرهم أو تفريعها على شيء من قواعد الدين...".

وقد تحولت هذه الحركة من حركة دينية دعوية إلى حركة دينية سياسية وعسكرية بعقدها تحالف مع أحد أمراء قبيلة عنزة في نجد "محمد بن سعود" الذي كان أميراً على منطقة الدرعية[46]، حيث تمحور الاتفاق على تولي الأمير السلطة السياسية في أي منطقة تهيمن عليها هذه الحركة مقابل تولي عائلة محمد بن عبد الوهاب السلطة الدينية فيها (المشيخة أو الإمامة أو منصب الإفتاء العام) لتتأسس أول إمارة لهذه الحركة سنة 1744م، وقد كان لضعف هيمنة السلطنة العثمانية على المنطقة وصراعات أمراء مكة من الأشراف التابعين للسلطان على إمارة المدينة، إلى جانب الظروف المعيشية الصعبة للسكان قد ساهم في تمدد هذه الحركة بشكل قياسي لتشمل معظم شبه الجزيرة العربية وتصل إلى حدود سوريا والعراق وخوض معارك دموية مع الشيعة هناك. اعتبرت الحركة السلطان العثماني فاسقاً ومغتصباً للخلافة ولا يجوز تمجيده واعتبرت الموالين له وثنيين ومرتدين وشواذ ومنحرفين أخلاقياً، أي أنّ علماء الحركة الوهابية كانوا متفقين على كفر الدولة العثمانية[47] فقد كانت بمثابة حركة دينية عربية ضد استبداد العثمانيين إلا أنها قامت في نفس الوقت بتكفير كل من يرفض سلطتها الروحية والسياسية واستباحة أمواله وحتى حياته (كغنائم)؛ ففي اجتماع لمجلس العموم البريطاني عام 1921م وصف رئيس الحكومة البريطاني السابق ونستون تشرشل أعضاء هذه الحركة بأنهم[48]"...متزمتون قساة، ومسلحون جيداً

---

44 عبد الرحمن أحمد بهائي محمد مسعود الكواكبي ولد في حلب عام 1855م وتوفي في مصر عام 1902م نتيجة دسّ عملاء السلطان العثماني عبد الحميد الثاني السمّ في فنجان قهوته؛ ويعدّ أحد مؤسسي الفكر القومي العربي، وأحد رواد النهضة العربية ومفكريها في القرن التاسع عشر من خلال دعوته إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية ومقاومة الاستبداد العثماني، إلى جانب العلوم الدينية اهتم بالعلوم الطبيعية والإنسانية، واضطر إلى السفر إلى مصر والاستقرار فيها بسبب التهديدات العثمانية له... عبد الرحمن الكواكبي؛ مؤسسة هنداوي للنشر؛

45 عبد الرحمن الكواكبي؛ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد؛ بلا رقم طبعة؛ الناشر كلمات عربية للترجمة والنشر؛ القاهرة؛ ص21-23.

46 برنارد لويس؛ العرب في التاريخ؛ تعريب نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد؛ دار العلم للملايين؛ بيروت 1954؛ الطبعة الأولى؛ ص230.

47 للمزيد راجع: ياسين بن علي؛ خروج الوهابية على الخلافة العثمانية (قراءة تاريخية ومناقشة شرعية)؛ النسخة الثالثة 2019م- ناشر النسخة الإلكترونية مجلة الزيتونة؛ ص180...197.

48 مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص47.

ومتعطشون للدماء، وأنهم يرون أن من واجبهم مثلما هو من إيمانهم، أن يقتلوا كل من لا يشاركونهم آراءهم وجعل أطفالهم ونسائهم عبيداً. وقد جرى إعدام النساء في قرى وهابية لمجرد ظهورهن في الشوارع. وكان لبس زيّ من الحرير جريمة جنائية. وتم قتل الرجال لتدخينهم للسجائر..." إلا أنه كان يبدي اعجابه بأميرهم السعودي.

إنّ ما ساهم أيضاً في تغلغل هذه الحركة داخل المجتمع العربي والبدوي بشكلٍ خاص هي الحملات الدموية التي وجّهت للقضاء عليها وما رافقها من انتهاكات دون تقديم أية حلول لإصلاح مشاكل الوضع القائم آنذاك، وسرعان ما تحولت الحركة إلى قوة مجتمعية رئيسية في شبه الجزيرة العربية؛ على الرغم من النجاح في ضرب الإمارة الوهابية- السعودية والسيطرة على الدرعية وتدميرها بالكامل عام 1818م من قبل محمد علي باشا[49] الوالي العثماني على مصر والمدعوم من قبل الدولة الفرنسية، وأسر أمير الدولة السعودية آنذاك (عبدالله بن سعود) ونقله إلى إسطنبول حيث تم إعدامه لاحقاً، إلا أنّها لفتت نظر القوتين الاستعماريتين الرئيسيتين آنذاك، فرنسا وبريطانيا، اللتان كانتا تمتلكان مشاكل فيما بينها من جهة ومع السلطة العثمانية من جهة أخرى بالإضافة إلى الحضور المؤثر لسلاطين الشيعة في إيران. لقد أدى التفاعل في صيغ التحالفات والصراعات بين هذه القوى إلى بلورة الصراع على السلطة والثروات والهيمنة لا يزال مستمراً إلى الزمن الحالي بالتزامن مع تطورات سياسية وأيديولوجية واقتصادية لتلك القوى في سياق بات ما يُعرف باسم " الفوضى الخلّاقة" هذا الأمر يعدّ من أبرز الأسباب الرئيسية في تخلف ومعاناة مجتمعات المنطقة وما يتعرضون له من انتهاكات فظيعة منذ حوالي قرنين من الزمان.

منذ أكثر من مئة عام يؤكد عبد الرحمن الكواكبي في سياق وجهة نظره حول الاستبداد على أنه:

"...تضافرت آراء أكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان على أنّ الاستبداد السياسي متولّد من الاستبداد الديني... وأقل ما يعنون به الاستبداد تفريق الأمم إلى مذاهب وشيَّع متعادية تقاوم بعضها بعضاً فتتهاتر قوة الأمة ويذهب ريحها فيخلو الجو للاستبداد ليبيض ويفرخ، وهذه سياسة الإنكليز في المستعمرات لا يؤيدها شيء مثل انقسام الأهالي على أنفسهم وإفنائهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الأديان والمذاهب... ويحكمون بأن بين الاستبدادين السياسي والديني مقارنة لا تنفك متى وُجد أحدهما في أمة جرّ الآخر إليه أو متى زال رفيقه، وإن صلح، أي ضعف، أحدهما صلح، أي ضعف، الثاني. ويقولون إن شواهد ذلك كثيرة جداً لا يخلو منها زمان ولا مكان. ويبرهنون على أنّ الدين أقوى تأثيراً من السياسة إصلاحاً وإفساداً...".

عبد الرحمن الكواكبي؛ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد؛ بلا رقم طبعة؛ الناشر كلمات عربية للترجمة والنشر؛ القاهرة؛ ص21-23.

جماعة الإخوان المسلمين.

مع انهيار السلطنة العثمانية وهيمنة الفكر القومي العربي العلماني على الحياة السياسية على غرار الفكر القومي التركي بقيادة أتاتورك، وقيام جمعية البنائين الأحرار (الماسونيين) بإقامة محافل[50] لهم في بلدان المنطقة (المحافل الشرقية) تحت اسم "أخويات أو نوادي"، حاولت العديد من التيارات الدينية مجاراة التطورات السياسية الحاصلة والبروز كقوة مؤثرة فيها، ليتمّ في عام

[49] هنري لورنس؛ اللعبة الكبرى/الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية؛ الترجمة: د. محمد مخلوف؛ الطبعة الأولى 1992؛ دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث؛ قبرص؛ ص15.

[50] محافل مفرده محفل ومعناه في اللغة العربية المجلس أو مكان الاجتماع...

1928م تأسيس أخوية تحت مسمى (جماعة الإخوان المسلمين) على يد حسن البنا[51] واعتمدت منهجية تعتمد على تحديدها لأعداء المسلمين بحسب تأويلها للآيات القرآنية والسنة النبوية وفقاً لوجهة نظرها، أي الذين لا يخضعون لسلطتها الروحية والسياسية، ووجوب قتالهم حتى إبادتهم؛ وقد عزّز هذا الاتجاه المدعو سيد قطب الذي انضم إلى الجماعة سنة 1950م عبر صياغة فرضية تكفيرية شاملة اعتبرت بموجبها المجتمعات الإسلامية المعاصرة مجتمعات جاهلة، ودعا إلى ضرورة استخدام القوة لفرض الشريعة على الدول المعتنقة للإسلام وإقامة دولة إسلامية جامعة بزعامتهم كسبيل للخروج من الجاهلية إلى الحضارة وفقاً لوجهة نظر الجماعة. وقد استطاعوا استثمار القضية الفلسطينية ومحاربة اليهود ومعاناة الشبان المقهورين[52] من الظلم السياسي والاقتصادي لجذب الكثيرين إلى صفوفهم، وقد تلقوا من أجل ذلك بعض الدعم من الألمان في فترة العشرينات والثلاثينات من خلال أحد انصارهم، الحاج أمين الحسيني نجل المفتي الأكبر للقدس، الذي كان يتلقى الدعم من المخابرات الألمانية (الجستابو) وأثناء فترة لجوئه إلى ألمانيا خلال فترة الحرب العالمية الثانية ساعد النازيين في تجنيد مسلمي البلقان ضد صربيا وروسيا الأرثوذوكسيتين[53]. سرعان ما انخرطت الجماعة في الصراع السياسي والعسكري على المنطقة وذلك باتخاذها موقفاً معادياً من المعارضة ضد النظام الملكي المصري الموالي للبريطانيين، وفي عام 1942م طوروا علاقاتهم مع بريطانيا[54] وبعد ذلك الولايات المتحدة الأمريكية على مبدأ مناهضة الشيوعية والفكر القومي العربي اللذان كانا يحظيان بدعمٍ من الاتحاد السوفيتي وكانت هذه رغبة المملكة العربية السعودية أيضاً، بالإضافة إلى الرغبة البريطانية في إبعادهم عن ألمانيا النازية وضمان هيمنتها على مصر وخاصة قناة السويس، حيث تلقوا الدعم المادي اللازم في سبيل ذلك، على الرغم من أن مسؤولي السفارة البريطانية في مصر آنذاك وفي اجتماع مع الحكومة المصرية الملكية عام 1942م وصفوا الجماعة بأنها " ... تنظيم ديني وظلامي محدود، لكنه يمكن أن يحشد قوات للصدام في وقت الاضطرابات بما في ذلك الفرق الانتحارية، وبعضوية تقدر بنحور 100-200 ألف..." بينما وصفت لجنة المخابرات السياسية البريطانية الإخوان باعتبارهم "خطراً محتملاً، لكنهم بقيادة ضعيفة.". لقد استطاع الإخوان التغلغل في مختلف البلدان العربية واتخذوا موقف الداعم للسلطة في سياق الصراعات السياسية داخل البلدان العربية، ففي الأردن دعمت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية الملك حسين المدعوم من قبل البريطانيين ضد الحركات القومية الفلسطينية واليسارية العربية وكذلك نفس الأمر في مصر وفي سوريا تم استخدامهم في محاربة

---

[51] د. لبيد عماد و أ. سعود الحاجة؛ جامعة سطيف2؛ دور خطاب مؤسسات المجتمع المدني في الحد من ظاهرة الإرهاب في المنطقة العربية. الناشر مجلة الدراسات الاستراتيجية والعسكرية المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية - برلين. المجلد الثاني؛ العدد الخامس: أيلول/سبتمبر 2019؛ ص32.

[52] للمزيد راجع: تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة (ما وراء صدام الحضارات)؛ ترجمة د. جان ماجد جبور؛ الناشر: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الطبعة الأولى 2009م؛ ص134.

[53] منصب المفتي الأكبر للقدس أنشأه البريطانيون بغية إضعاف المشاعر القومية العربية وضمان الهيمنة البريطانية، وقد فرّ نجل المفتي الحاج أمين الحسيني إلى الصف النازيّ بسبب مشاكله مع اليهود، وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية التجأ إلى مصر بدعم من جماعة الإخوان المسلمين هناك التي كانت تحت حكم الملك فاروق الموالي لبريطانيا، وتم رفض طلبات اليهود بمحاكمته كمجرم حرب، حيث عاد إلى حضن المخابرات البريطانية عام 1946م ...
مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص55.
إنّ هذا الأمر بالإضافة إلى المآسي التي تسببت بها المعارك الدموية بين العثمانيين وشعوب البلقان يبرز الأسباب الكامنة وراء ثقافة الكراهية المنتشرة هناك بين الصرب والكروات والألبان والبلغار...

[54] للمزيد حول هذه الموضوع راجع المصدر السابق؛ ص60.

نظام الأسد الأب من قبل نظام صدام حسين والمخابرات الغربية، ولا يزالون مساهمين في الأزمات السياسية والاقتصادية المتصاعدة التي شهدتها بعض بلدان الشرق الأوسط بعد عام 2011م.

في فترة الحرب الباردة ومع تصاعد الثورات ضد الأنظمة الاستبدادية في العديد من البلدان، والصراع مع الاتحاد السوفيتي سعت بريطانيا بحكم تجربتها وبدعم من حلفائها الغربيين إلى إقامة رابطة إسلامية تضم مختلف الحركات السياسية الإسلامية الراديكالية بغية إيقاف التمدد الشيوعي كخيار استراتيجي ومصيري للحفاظ على أمنها القومي وهيمنتها العالمية، في هذا السياق تمكن الحلفاء الغربيون من تحريض مسلمي الهند بقيادة (محمد علي جناح) ضد الحركة القومية الهندية بقيادة غاندي وقد نجم عن ذلك انفصال باكستان عن الهند سنة 1947م وإنشاء دولة إسلامية سنية مستقلة، والتي تحولت إلى قاعدة استراتيجية للغرب ودولة مؤثرة في العالم الإسلامي، وقد قام الجيش البريطاني بنقل جميع قواعده العسكرية وجنوده إلى الدولة الجديدة وسارت أمريكا على خطاها، لتتحول إلى مركز للعمليات العسكرية والاستخباراتية ضد القوات السوفيتية في أفغانستان والحركات الشيوعية واليسارية والقومية في المنطقة، وقد قدمت الدعم للمجاهدين الشيشان في هذا السياق أيضاً. بشكلٍ عام تجمع مختلف الدراسات، كما التحقيقات الرسمية، التي أمرت بها حكومات مثل الحكومة البريطانية في عهد ديفيد كاميرون، على أن المرجع المؤثر لمختلف التنظيمات المتبنية للفكر الجهادي العنفي عموماً هو أدبيات جماعة الإخوان المسلمين[55].

تنظيم القاعدة.

لم يقتصر ظهور التنظيمات الأصولية في الشرق الأوسط فحسب بل تنامت أيضاً في أواسط آسيا، حيث الصراع المحتدم بين القوى الرأسمالية والشيوعية، وظهرت العشرات من هذه التنظيمات وتطورت نتيجة فسح المجال لها من قبل القوى الغربية والسلطات المحلية الموالية لها التي سعت إلى أسلمة المجتمعات الخاضعة لها، وذلك من خلال تطوير أفكارها وصياغة تأويلاتها بما يتناسب مع محاكمتها للقضايا المختلفة وفق ذهنياتهم ومصالحهم؛ فبحسب دراسة سيكولوجية[56] "...يشجع المتسلط الداخلي السلفية بشقّيها ويعززها لأنها تكرّس امتيازاته وتعطيها صبغة الأمر الطبيعي وتُصرف الانسان المقهور عن النهوض بواجب التغيير وتقديم التضحيات... يعمل المتسلطون على تعزيز الدين ويبرزون الجوانب التي تؤكد القناعة بالأمر الواقع وتقبله والتي تؤكد سلطتهم، أما الجوانب الثورية في الدين، التحرر والإبداع والتغيير والعدل والعدالة والتصدي والشجاعة والجهاد في سبيل الحق وفي سبيل كرامة الإنسان فيسدل عليها ستار كثيف من التعتيم...".

شكلت الجماعات والمدارس والجامعات الدينية وبعض المساجد في كلٍ من مصر والسعودية وباكستان وأفغانستان المنابع الرئيسية للفكر الجهادي المسلح من ناحية الأيديولوجيات والتمويل، حيث يرى رئيس الحكومة البريطاني الأسبق توني بلير[57] على أن جماعة الإخوان المسلمين والمتطرفين الوهابيين في السعودية والمدارس الدينية الباكستانية يشكلون العناصر الرئيسية للإرهاب بحسب وجهة نظره، إلا أنه يمكن الجزم بشكل عام بأن مرتكزات الحركات الإسلامية

55 مركز روابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية؛ مرحلة ما بعد داعش: المعركة ضد الإرهاب تبدأ الآن؛ تاريخ النشر 7 آذار 2018م.

56 د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص105.

57 مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص445.

الحالية قد تأسست في الفترة ما بين الحربين العالميتين[58] وتحت أعين أجهزة الاستخبارات الغربية ووكلائها المحليين، وبتأثير كلٍ من جماعة الإخوان المسلمين في مصر والجماعة الإسلامية الباكستانية التي أنشأها الباكستاني (أبو الأعلى المودودي) في شبه القارة الهندية، كردة فعل على إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية من قبل أتاتورك والرغبة في إقامة خلافة إسلامية بمعايير جديدة؛ بنفس الوقت سعت القوى الغربية إلى خلق توازن يضمن السيطرة على هذه التنظيمات في حال خروجها عن الأجندات المرسومة عبر ضمان استمرار الأنظمة الشمولية في الحكم لتكون بمثابة مصدّات لتمدد الفكر الجهادي العنيف؛ وقد تمخض عن التلاقح بين الأجندات لمختلف تلك القوى بروز تنظيم القاعدة في عام 1988م. يعدّ هذا التنظيم ثمرة التزاوج بين الفكر السلفي الجهادي والفكر الإخواني من جهة، وردة الفعل على السياسات الغربية المدروسة تجاه البلدان من جهة أخرى، حيث أن أبرز مؤسسيه كأسامة بن لادن وأيمن الظواهري كانوا في الأساس من أتباع جماعة الإخوان المسلمين وقاتلوا في أفغانستان ضد السوفييت. تعود جذور بلورة أيديولوجية هذا التنظيم إلى بداية الستينات عندما تم تأسيس رابطة العالم الإسلامي من قبل كلٍ من مفتي القدس الأكبر الحاج أمين الحسيني، وسعيد رمضان المنظم الرئيسي لتنظيم الإخوان المسلمين الدولي الذي كتب دستور الرابطة وعبد الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية الباكستانية عقب المؤتمر الإسلامي الدولي الذي انعقد في مكة عام 1962م برعاية المملكة العربية السعودية[59]، وقد كان أتباع جماعة الإخوان المسلمين في مختلف بلدان الشرق الأوسط الذين التجؤوا إلى السعودية دور في إنشاء هذا الرابطة وكان من بينهم الأستاذ الجامعي الفلسطيني في جامعة جدة (عبد الله عزام) معلم أسامة بن لادن والمحرّض على الجهاد ضد السوفييت في أفغانستان؛ لقد ساهم التزاوج الفكري بين علماء الدين الوهابيين وجماعة الإخوان المسلمين على أساس فكرة الجهاد العالمي في خلق التربة الخصبة لنمو أيديولوجية تنظيم القاعدة؛ والذي تطور لاحقاً بعد مقتل العديد من قياداته وفقدانه القيادة المركزية على معظم مجموعاته في العالم إلى بروز تنظيمات فرعية تبايع التنظيم الأم وتتمسك بأيديولوجيته ولكنها تستقل باستراتيجياتها وقراراتها، حيث تعد تنظيمات داعش وجبهة النصرة، وبوكو حرام وأنصارو في نيجيريا وحراس بيت المقدس في مصر، وحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين والتنظيمات الفرعية التي تحمل اسم القاعدة نماذج من هذه التنظيمات. في عام 1996م أعلن زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن الجهاد ضد الأمريكيين بدعمٍ مباشر من سلطة طالبان الأفغانية، وقد طورت القاعدة من فكرها التنظيمي المتطرف بتأسيس الجبهة الدولية للجهاد ضد (الصليبيين واليهود) في عام 1998م واتهم ابن لادن الدول الغربية بالمسؤولية عن تدمير نظام الخلافة وخلق المشكلة الفلسطينية ومشكلة كشمير والتسبب بمقتل ملايين المسلمين خاصة في العراق وأفغانستان والبلقان، وضمت هذه الجبهة معظم التنظيمات الأصولية المتطرفة المتبنية للفكر الجهادي العنيف، ليتمخض عن تلك الجهود تنفيذ هجمات انتحارية استهدفت أماكن حسّاسة داخل الولايات المتحدة الأمريكية في أيلول من عام 2001م وفي بلدان أخرى لاحقاً. لم تسلم هذه التنظيمات من التناحر الفكري أيضاً في سياق أيديولوجيتها المتشابهة وقد وصل بها الأمر إلى درجة تخوين بعضها البعض على الرغم من اتفاقها على مناهج وأهداف سياسية واحدة، كالخلاف الفكري الذي نشب بين القاعدة وجماعة الإخوان المسلمين[60].

---

58 للمزيد راجع: تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة، ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة د. جان ماجد جبور؛ الناشر: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الطبعة الأولى 2009م.

59مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ الناشر: المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص140.

60bbc arabic ؛ مرشد جماعة الإخوان المسلمين مهدي عاكف يرد على أسئلتكم؛ تاريخ آخر تحديث للمنشور 10 مارس/آذار 2007م؛

الفكر الجهادي في المنطقة.

للجهاد مفاهيم كثيرة لا تتعلق فقط بالعمل المسلح بل تركّز بالدرجة الأولى على بذل الجهد في الأعمال والعبادات في إطار الشريعة؛ وتختلف المصادر في تحديد تاريخ دقيق لدخوله إلى المنطقة إلا أنّ مفهومه العسكري كعنف مقدس بدأ مع وصول جحافل الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام والعراق وكردستان؛ حيث تمّ استثماره من قبل مختلف السلاطين والحكام للحصول على خدمات مقاتلين وبتكلفة زهيدة نسبياً، خاصة بعد تحول المؤسسة الدينية من رعاية المسائل الروحانية للسكان إلى مشرّع لسياسات الحاكم مقابل امتيازات مادية وسياسية[61]. مع تنامي الأفكار القومية واليسارية والشيوعية والديمقراطية وتعرض المنطقة لاعتداءات من قبل مختلف القوى الخارجية سعت التيارات الدينية إلى إنعاش هذا المصطلح خاصة بين الفئات المقهورة داخل المجتمعات المعتنقة للإسلام بغية تأطير أفكارهم وفق منهج الجماعة المنظمة.

في فترة الحرب العالمية الأولى اكتسب الفكر الجهادي العنفي زخماً كبيراً في منطقة الشرق الأوسط خاصة بعد إعلان السلطان العثماني الجهاد ضد القوى الغربية وضد الثورات المحلية التي تلقت جزءاً من الدعم منها؛ بالتزامن مع إعلان الشريف حسين والحركة الوهابية الجهاد ضد العثمانيين، لتظهر لاحقاً في الثلاثينات حركة المريدين[62] النقشبندية في جبل الكرد- عفرين شمال حلب- التي تلقت في بداياتها الدعم من الدولة القومية العلمانية التركية ضد القوات الفرنسية في سوريا، وبعد ذلك ظهرت حوالي عام 1945م جماعة الإخوان المسلمين السورية المناهضة للنظام العلماني الديمقراطي في البلاد ولاحقاً نظام الحكم الشمولي (الأسد الأب والابن)، وتحولت إلى الزعيمة الرئيسية للفكر الجهادي العنيف في البلاد، وتعرض إثر ذلك الكثير من السكان لانتهاكات فظيعة من قبل الجماعة والسلطات الحاكمة كان ذروتها في معركة حماه عام 1982م حيث تسبب الصراع على السلطة بإزهاق أرواح آلاف المدنيين. بعد فرار قيادات الجماعة إلى خارج البلاد سعى النظام إلى تحويل الأفكار الجهادية باتجاه الإسرائيليين والصهيونية والدول الغربية، وفسح المجال لتمدد التيار النقشبندي (الصوفي) وإلزامهم بانتهاج مسار دعوي لا عنفي عبر تركيز نشاطاتهم في المجالات التعليمية والاجتماعية فيما يخصّ الموقف من السياسات الداخلية للسلطة القائمة، وقد قامت استخبارات النظام بتفريغ طاقات الفكر الجهادي المكبوتة لدى الكثيرين عبر فسح مجال السفر السرّي إلى أفغانستان ولاحقاً محاربة القوات الأمريكية وحلفائها في العراق بعد احتلالها له عام 2003م حيث سافر عشرات السوريين وتحت أعين أجهزة الاستخبارات إلى القتال في العراق، ويبدو أنّ الشخصية المثيرة للجدل (محمود غول آكاسي) الملقب بأبو القعقاع السوري الذي نشط علناً بمدينة حلب ومدناً سورية أخرى في عام 2006م ودعوته للجهاد ضد الأمريكيين في العراق من المؤشرات التي تدل على ذلك وكذلك التحريض الفكري للمدعو أبو مصعب السوري؛ يضاف إلى ذلك الأفكار التي تولّدت بعد سيطرة الخميني على مرحلة ما بعد سقوط نظام الشاه القمعي إثر الثورة الإسلامية في إيران عام 1979م والتوجه لإقامة نظام حكم شمولي في إطار نظام ديمقراطية الطائفة المتعصبة لنظام ولاية الفقيه، حيث تم طرح مفهوم العنف المقدس من

د. أكرم حجازي؛ مسائل جوهرية في فكر السلفية الجهادية (من التوحيد إلى صناعة القيادة)؛ تنسيق: ذروة السنام؛ بلا ناشر ورقم طبعة؛

[61] للمزيد راجع: د. علي الوردي؛ وعاظ السلاطين؛ الطبعة الثانية؛ 1995م؛ الناشر: دار كوفان- لندن.

[62] للحصول على معلومات عن هذه الحركة راجع: رشيد حمو، ثورة جبل الاكراد "حركة المريدين"، (دراسة حول مقاومة الجبل وحركة المريدين ضد الاستعمار الفرنسي 1941-1921م)، الطبعة الأولى 2001؛ بلا ناشر.
Rojê Lêsko; Çiyayê Kurmênc û Tevgera Murûdan; Wergerandin: AMED, Lênêrîna ZîNĚ; Çiriya Pêşin 1990 Parîs.

وجهة النظر الطائفية وأصبح في حالة تناحر فكري مع التنظيمات السنّية بالتزامن مع السيطرة العسكرية المباشرة للسوفييت على أفغانستان، وقد شهدت فترة الثمانيات الكثير من الأعمال التي وصفت بالإرهابية أو صبغت بالكراهية. يبدو أن هذه الظروف وغيرها زادت من بؤس وقهر المجتمعات المحلية بشكل متراكم، ولتصبح السبب الكامن الرئيسي وراء الأزمة التي تشهدها المنطقة، فالعوامل الفاعلة فيها تعد امتداداً لتلك النزاعات التي تم الإشارة إلى بعضها مسبقاً في سياق الفقرات السابقة.

بعد فقدان السلطة المركزية قبضتها الأمنية على مناطق كثيرة في سوريا بعد عام 2011م على سبيل المثال، أصبحت مشاهد التوحش من ذبح وسحل وتنكيل ومجازر واستباحة الحرمات المقوّلبة بقالب ديني من الأمور الشائعة، خاصة في ظل هيمنة التنظيمات الأصولية الراديكالية المتطرفة من جماعة الإخوان المسلمين وفرعي القاعدة تنظيما جبهة النصرة وداعش وبعض الميليشيات الموالية لإيران على الحراك الشعبي في مناطق متفرقة من البلاد، والتي اتبعت استراتيجية استبدال السلطة القائمة بسلطة ثيوقراطية أو إقامة دولة إسلامية رجعية مستقلة تتجاوز الحدود السياسية المرسومة، وهذا ما فعله تنظيم داعش الإرهابي في صيف عام 2014م في المنطقة الجغرافية المحددة بوسط غرب العراق وشرق سوريا، نظراً للرمزية التاريخية للبلدين التي توحي بدولة الخلافة (دمشق عاصمة الأمويين وبغداد عاصمة العباسيين) على غرار مكة وتمثلان طاقة جذب مكانية لاستقطاب مختلف الجهاديين حول العالم والتمركز حول هوية تنظيمية جامعة تلغي الهوية الاثنية والمذهبية، كما أنّ فقدان الحكومتين المركزيتين لقبضتهما الأمنية على البلدين وفّر مناخاً ملائماً لنشاط التنظيمات الأصولية المتطرفة وعلى رأسها تنظيم داعش بغض النظر عن الفكر التكفيري لهذه التنظيمات.

لقد اعتمدت هذه التنظيمات على تأويل القرآن والسنة النبوية بما يتناسب مع منهجها ويبرر عنفها وانتهاكاتها وجرائمها، وأوهمت اتباعها بالسعي وراء إقامة خلافة إسلامية وتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية والجهاد ضد الكفار عبر التضليل بخوض حربٍ مقدسة والعمل على تغليب العاطفة المتوحشة على العقل. لقد تعرضت القيم الاجتماعية المحلية ومنظومتها الأخلاقية والهويات الوطنية في المنطقة لضربة قاصمة من قبل هذه التنظيمات وأصبح الوضع السيء أشدّ سوءاً حيث فقد مئات الآلاف (بمن فيهم من المسلمين) لحياتهم أو تعرضوا لإصابات مختلفة بالتزامن مع تهجير الملايين عن ممتلكاتهم ومنازلهم وتنفيذ عمليات تغيير ديمغرافية وتطهير عرقي في العديد من المناطق، إلى جانب تدهور الاقتصاد المحلي والصحة النفسية لغالبية السكان بشكل حاد وأصبح ازدواج الشخصية سمة ملازمة للكثير من الأفراد، بالإضافة إلى التدمير الهائل للبنية التحتية؛ حيث عادت البلاد كما سعت تلك التنظيمات مئات السنين إلى الوراء.

الفكر الأصولي المعاصر

من المحتمل أن يكون الفكر الأصولي المتطرف قد شهد تطوّراً في سياق الصراع بين المجتمعات وأنظمة الحكم المحلية المدعومة من قبل القوى الخارجية، في سبيل تمكين أحد الأطراف على إدارة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وفق إرادة معينة، وقد دخل الفكر المتطرف كطرف ثالث يمتلك أجندات خاصة في هذا الصراع، ويبدو أنها امتلكت تأثيراً في بعض مفاصل هذا الصراع. إنّ الطبيعة السلمية للمجتمعات المتبنية للقيم الأخلاقية كثيراً ما كانت تفشل في التخلص من استبداد الحّكام والسلاطين والمستعمرين لذلك كانت التنظيمات المتبنية لمفهوم العنف المقدس تملك جاذبية مغرية خاصة من قبل الفئات الشابة في مقاومة الظلم والاستعباد ونيل الحقوق كونها تُزيّن الموت بشكل مغري وإغوائهم لحياة أخرى ما بعد الموت، وبنفس الوقت

سعت الطبقات المهيمنة إلى استثمار هذا الفكر لتشريع سلطتها وترويض أتباعها؛ لقد تعرضت المجتمعات المعتنقة للديانة الإسلامية لسلسلة من العمليات العسكرية وقد نتج عن ذلك مقاومة مسلحة تبنت العنف المقدس كمحرض معنوي ضد الخوف من الموت والتنكيل من قبل العدو المفترض وكسبيل محتمل للتخلص من الاستبداد والاستعباد. إلا أنّ جزءاً من السياسات التي اتبعت في هذا السياق كان لها دور مؤثر في تحول الآلاف من السكان إلى الفكر المتطرف.

تعيش غالبية الشعوب المعتنقة للديانة الإسلامية في حالة تخلف اقتصادي وسياسي وعلمي حيث المستويات العالية من التخلف والفقر والأمية والتلوث والاستبداد على الرغم من امتلاك تلك الشعوب المقومات اللازمة للرقيّ الحضاري والازدهار في مختلف المجالات؛ بالتأكيد السبب الذهنية الدوغمائية الاستبدادية والإنتهازية للفئات المتسلطة. لقد أفرزت الحالة المأساوية لهذه الشعوب بيئات قاسية وبائسة وخشونة في العلاقات المتنوعة، وبمجرد تتبع الصفحات الإخبارية المتنوعة نجد تميّز البلدان التي ينشط فيها الإسلام السياسي بحالة من الفوضى والاقتتال والبؤس في الوقت الذي تتمتع فيه الزعامات السياسية والدينية والاجتماعية برفاهية مفرطة مقارنة بوضع باقي أفراد المجتمع؛ إنّ هذا الواقع يفرض تربة خصبة للتمرد واحتمال الجنوح إلى الانحراف الفكري والأخلاقي تدريجياً نحو التوحش والإجرام، وهذا ما يشكل طاقة الحياة للتنظيمات المتطرفة المسلحة التي بدورها عزّزت هذه التربة بالمزيد من المخصّبات؛ أي أن الشعوب المعتنقة للديانة الإسلامية أبتلت بمجموعة من المتسلطين والتنظيمات الأصولية الراديكالية المتطرفة التي لم تجلب سوى القتل والدمار والتخلف والفقر للمجتمعات التي تغلغلت فيها وارتقت أعمالها إلى مستويات كارثية إلى درجة إعدام الهوية الوطنية وتعزيز الاستبداد بشكل أكبر، في الوقت الذي أعطت فيه مسوّغ للقوى الأجنبية بالتدخل في شؤون البلدان وحتى حصارها واجتياحها خدمة لأجنداتها المتمحورة بشكل رئيسي حول الهيمنة على الثروات والمواقع الجيوبوليتيكية الهامة. يعدّ تنظيم داعش الإرهابي مثالاً للتوحش ولتلك الكوارث خاصة بعد تحوّله إلى الدولتية[63] وهذا ما حدث بالفعل في سياق إعلان دولة الخلافة الإسلامية في العراق والشام عام 2014م التي هيمنت نسبياً على أجزاء من العراق وسوريا، علما أن هذين البلدين شهدا أكبر نشاطاً للتنظيمات المتطرفة، الدينية والقومية. يشكل تنظيم داعش الإرهابي واحد من التنظيمات الأصولية المتطرفة التي سعت إلى إنشاء كيان تحت اسم دولة الخلافة وتبدو الأفكار المتطرفة شأنها شأن الفيروسات قادرة على إحداث طفرات في جيناتها لمقاومة الأفكار التي تحاول تحجميها وإيقاف تمددها الكارثي، ويعدّ التنظيم سليل لمجموعة من الجماعات الإسلامية الأصولية المتعاقبة منذ ما يزيد عن مئة سنة.

هناك مجموعة متسلسلة من الأحداث المؤثرة على تنامي مفهوم العنف المقدس وتطوره في الفكر الأصولي المتطرف وقد سبقت الإشارة إلى بعضها؛ حيث يلاحظ مدى خدمة هذه الأحداث للأجندات المكرّسة في خدمة مصالح الدول القوية ودورها في الواقع المأساوي للمجتمعات التي شهدتها. على الرغم من امتلاك الحركات الأصولية وفقاً لأيديولوجيتها اتجاهاً رافضاً للغرب وثقافته، خاصة في مواضيع التعددية السياسية والتسامح الديني وحقوق المرأة، وقد تمّ تنفيذ سلسلة من العمليات ضد المدنيين والتي وصفت بالإرهابية في العديد من المدن الأوروبية والأمريكية وباقي أنحاء العالم تقريباً من قبل أشخاص يتبنون الفكر الديني المتطرف؛ إلا أن هذا لم يمنع أجهزة

---

63 الدولتية أو الدولانية أو الدولاتية، Statism؛ تعني أنّه يجب على الدولة أن تسيطر أما على الاقتصاد، أو على السياسة الاجتماعية، أو الاثنين معاً، وتعتبر سيطرة الدولة نقيضاً للاسلطوية، ويمكن لها أن تتخذ أشكالاً عدة بدئاً من الدول الملكية حتى الشمولية...ويكيبيديا؛ سيطرة الدولة.
أي هي النزعة إلى تقديس وتأليه الدولة، وجعل إرادتها مفروضة على إرادة المواطنين والمجتمع بامتلاكها سلطة مطلقة بعكس الشعبوية...

الاستخبارات للدول القوية في توظيفها أو توجيهها أو التأثير فيها خدمة لتكتيكات واستراتيجيات متنوعة؛ وبالنسبة لهذه التنظيمات أصبح التعامل مع العدو الكافر يمتاز بالأفضلية عن التعامل مع القريب المخالف، ويبدو أن الخلافات المذهبية والطائفية والدينية لا حدود نهائية لها، بل تتحور من صيغة إلى أخرى.

فيما يلي نسرد كرونولوجيا بروز التنظيمات المتزمتة دينياً والأحداث التي رافقتها، بغرض الوصول إلى فكرة عامة عما يمكن أن نسميه مجازياً بسلسلة تطور الفكر المتطرف المعاصر:

في عام 1744م تأسست الحركة الوهابية- السعودية في شبه الجزيرة العربية ضد استبداد السلطنة العثمانية. في عام 1830م احتلت فرنسا الجزائر؛ وفي عام 1839م احتلت بريطانيا عدن في جنوب اليمن، حيث نشأت مقاومة إسلامية شعبية لكلا الاحتوري كانت الحياة فيها ا، وأصبح السكان تحت رحمة الولاة ونزواتهم؛ في عام 1853م نشبت حرب القرم بين الإمبراطورية الروسية والسلطنة العثمانية في سياق الصراع بين المسلمين والمسيحيين، الأرثوذكس والكاثوليك، على الأماكن المقدسة في فلسطين. في عام 1882م احتلت بريطانيا لمصر؛ في عام 1914م (فترة الحرب العالمية الأولى) أعلن السلطان العثماني الجهاد ضد الحلفاء بالتزامن مع ارتكاب مذابح بحق الأرمن والسريان وقد لاقى السلطان تأييداً كاملاً من قبل بعض زعماء التيار النقشبندي المتبني للإسلام السياسي؛ وفي نفس العام أعلن الشريف حسين الجهاد ضد العثمانيين بدعم من البريطانيين والحركة الوهابية- السعودية، بهدف إقامة دولة عربية إسلامية بزعامته؛

انهيار السلطنة العثمانية في عام 1923م من قبل نظام أتاتورك العلماني؛ في عام 1925م إعلان الشيخ سعيد الثورة النقشبندية الكردية ضد نظام أتاتورك؛ في عام 1928 تم تأسيس جماعة الإخوان المسلمين (الأم) في مصر؛ وفي عام 1936 ازدادت وتيرة التناحر الديني بين اليهود والمسلمين في فلسطين؛ في فترة الحرب العالمية الثانية حرّض نجل المفتي الأكبر للقدس وجماعته الشبان المسلمين في البلقان بالقتال إلى جانب القوات النازية؛ في عام 1942م نشأت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية في شرق الأردن. حوالي عام 1945م تأسست جماعة الإخوان المسلمين السورية. وفي عام 1947م اشتدّ التناحر الدموي بين المسلمين والحركة القومية الهندية وأتباع الديانة الهندوسية وانفصال باكستان عن الهند كنتيجة لذلك. في عام 1962م تمّ تأسيس رابطة العالم الإسلامي من قبل كلٍ من مفتي القدس الأكبر الحاج أمين الحسيني، وسعيد رمضان المنظم الرئيسي لتنظيم الإخوان المسلمين الدولي الذي كتب دستور الرابطة وعبد الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية الباكستانية عقب المؤتمر الإسلامي الدولي الذي انعقد في مكة برعاية المملكة العربية السعودية. في عام 1966م قام الجنرال محمد سوهارتو بإسقاط حكومة أحمد سوكارنو الوطنية وإقامة سلطة قمعية وأمر بارتكاب مذابح وحشية بحق الشيوعيين والقوميين واليساريين وعمل على أسلمة المجتمع الاندونيسي وتعزيز الفكر الأصولي. في عام 1977م قام الجنرال ضياء الحق الذي انقلب على حكومة بوتو الوطنية في باكستان بتقديم الدعم والتمويل اللازم للجماعات الدينية المتشددة ضد الحكومة الأفغانية المتحالفة مع السوفييت ولاحقاً ضد القوات السوفيتية التي تدخلت عسكريا في البلاد، وكان قد اعتمد التدين المتعصب سياسة للدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية بشكل دوغمائي. في فترة السبعينات سعى نظام أنور السادات إلى أسلمة المجتمع المصري بشكل كامل بغرض تمكين سلطته حيث فسح المجال لمختلف التيارات والأفكار الدينية بالتوغل داخل المجتمعات المصرية. تأسس الرابطة الإسلامية الكردستانية في عام 1978م وكان أحد منظريها سيد محمد شهروزي وقد قام الشيخ محمد نجيب البرزنجي بتحويله إلى تنظيم جهادي عسكري. في عام 1979م اجتاحت القوات السوفيتية أفغانستان بالتزامن مع اندلاع الثورة الإسلامية الشيعية في إيران حيث كان الإمام الخميني يتمركز في باريس؛ في عام 1987م تأسيس الحركة

الإسلامية لكردستان العراق وتحولت إلى فرع للقاعدة لاحقاً. الإعلان عن نشوء تنظيم القاعدة في عام 1988م. شهد عام 1992م أعمال عنف فظيعة في البوسنة والهرسك، وفي الجزائر بين السلطة الحاكمة والجماعات الأصولية، وتأجّجت الحرب على السلطة والثروات بين الجماعات الأصولية في أفغانستان. في عام 1992م تأسيس حزب الله التركي المتأثر بجماعة الإخوان المسلمين والفكر الجهادي الشيعي وارتكاب أعمالٍ وحشية بحق الكرد في شمال كردستان/ جنوب شرق تركيا بدعم من جهاز المخابرات التركية والدولة العميقة فيها. في عام 1995م ازدياد وتيرة العنف بين الجماعات الأصولية في كشمير والحكومة الهندية. في عام 1995م قام جهاز المخابرات التركي بتجنيد مرتزقة من المقاتلين الجهاديين الذي شاركوا في حرب البلقان منذ عام 1992م ضد الكرد وبمعاونة جهاز المخابرات الخارجية البريطانية وبتغطية من حزب الرفاه الإسلامي وذلك بعد تلقي تدريبات مدروسة في قاعدة في شمال قبرص، بالإضافة إلى نقل قسم منهم إلى الشيشان وكشمير وأفغانستان بمساعدة إدارة كلينتون. في عام 1993م انطلاق الحملة الإيمانية برعاية حزب البعث العراقي وبإشراف عزّت إبراهيم الدوري الذي أسس لاحقاً تنظيم (رجال الطريقة النقشبندية) حيث سعت الحملة إلى نشر الفكر المتطرف بين المجتمع والتعمق في تطبيق قانون العقوبات الإسلامي. في عام 1996م سيطرت حركة طالبان على الحكم في أفغانستان التي طبقت الشريعة الإسلامية بشكل دوغمائي مطلق. في عام 1996م أعلن زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن الجهاد ضد الأمريكيين. في عام 1998م أعلن بن لادن عن تأسيس الجبهة الدولية للجهاد ضد (الصليبيين واليهود) وضمت هذه الجبهة القاعدة وجماعة عسكر طيبة الباكستانية وحركة المجاهدين، والجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد الإسلامي المصريتين، وكثيرين غيرهم. في عام 2001م تم الإعلان عن تأسيس جماعة جند الإسلام في شمال العراق/جنوب كردستان وغيرت تسميتها لاحقاً إلى جماعة أنصار الإسلام وتمركزت في المنطقة الجبلية للمنطقة وهناك تكهنات بإيوائها لزعيم تنظيم القاعدة السابق في العراق أبو مصعب الزرقاوي. وصول نظام أردوغان إلى سدة الحكم في تركيا عام 2002م. في عام 2003م سقوط نظام صدام حسين الذي كان قد انتهج استراتيجية أسلمة المجتمع العراقي بالفكر الديني المتطرف من خلال اطلاقه حملة دينية تحت مسمى الحملة الإيمانية. في عام 2006م ازدياد وتيرة الدعوة للجهاد ضد الغرب في سوريا وتحت أعين أجهزة الاستخبارات بالتزامن مع الهجوم الإسرائيلي على جنوب لبنان وخوضه معارك شرسة مع حزب الله اللبناني. بعد عام 2011م برزت جماعة الإخوان المسلمين مجدداً في سياق الفوضى السياسية والاقتصادية التي سميت بالربيع العربي في معظم البلدان التي شهدتها. في عام 2012م تمّ الإعلان عن تأسيس جبهة النصرة فرع القاعدة في سوريا؛ وفي عام 2013م الإعلان عن تأسيس تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الذي ضمّ فرعي القاعدة في سوريا والعراق وقد انشقت عنها جبهة النصرة لاحقاً. وفي نفس العام تمدد الحرس الثوري الإيراني بفعالية أكبر في كلٍ من العراق وسوريا. في عام 2016م وبعد محاولة الانقلاب المزعوم تفرد نظام أردوغان بالهيمنة على الدولة التركية ومقدّراتها وعمل على زيادة شحن المجتمعات القاطنة في الجغرافية السياسية التركية الحالية بالفكر الأصولي المتطرف. في نهاية عام 2019م تمّ محاصرة معظم التنظيمات الأصولية الراديكالية وفروع القاعدة في منطقة إدلب بموجب سلسلة من التفاهمات والصفقات بين نظامي أردوغان وبوتين وتحت سمع ونظر الدول الغربية، يبدو أنّ المزاوجة بين هذه التنظيمات في مساحة ضيقة سينتج عنه تنظيم هجين جديد يتبنى منهجاً أكثر دموية.

استناداً إلى ما سبق تمتلك التنظيمات الأصولية المتطرفة المعاصرة قناعة بأنّ تعرض المجتمعات المعتنقة للديانة الإسلامية للقهر والظلم من قبل مختلف القوى، طاقة جاذبة للمؤيدين وبنفس الوقت توفر مسوّغ يبرر عنفها المتطرف، وهذا ما نلاحظه في تداعيات الصراعات السياسية في كلٍ من كشمير وأفغانستان وإيران في عهد الشاه وبعده وفي العراق والشيشان والبلقان

وبعض البلدان الإفريقية وحالياً سوريا، وتبدو مأساة مسلمي الروهينغا في ميانمار الواقعة في جنوب شرق آسيا قضية مناسبة للاستثمار؛ وبالتالي فهي تتغذى أيضاً على فشل كيانات الحكم المحلية وعدم قدرتها على معالجة المشاكل التي تعانيها مجتمعاتها. لقد تحولت مناطق الأزمات التي تدفق إليها المجاهدون فرصة للتعارف والترابط والتواصل فيما بينهم لاحقاً، الأمر الذي ساهم في تطور البنية التحتية والفوقية للفكر المتطرف؛ كما ويشكل ترويج رجال الدين للفكر الجهادي المقترن بالنشاطات الخيرية والخطب الدينية عاملاً محرّضاً في التحول إلى التطرف، ويبدو أنّ لبعض الفئات المتدينة المتشددة التي تنشط في المملكة العربية السعودية وباكستان ومصر وإيران وحالياً تركيا تأثيراً في هذا الأمر باعتبارها تحولت إلى منابر للفكر المتطرف العنيف.

من ناحية أخرى فإنّ تعرض الكثير من المجتمعات المعتنقة للإسلام للهيمنة من قبل القوى غير الإسلامية وانتهاجها سياسة هادفة إلى قمع العقيدة قد لاقى ردة فعل عنيفة من قبل الكثير من الأفراد لأسباب تتعلق بالحفاظ على المصالح أو التمسك بالعادات والأعراف أو نتيجة لقناعات شخصية، قد يكون هذا الأمر أيضاً من أسباب التحول إلى التطرف العنيف؛ وأيضا تلعب سياسة السلطات في البلدان الأخرى غير الإسلامية بقمعها للمسلمين وارتكاب انتهاكات فظيعة بحقهم بدعوى الحفاظ على أمنها القومي دوراً في هذا السياق أيضاً. من ناحية أخرى استفادت الحركات المتطرفة في تنمية قدراتها من كلٍ من العولمة وسرعة انتقال رؤوس الأموال واقتناء الأسلحة وتصنيع المتفجرات والدعاية عبر الاستثمار الجيد لوسائل التواصل الاجتماعي وأجهزة الإعلام المرئي والمسموع والمقروء إلى جانب المناشير والمؤلفات؛ وعملت كل جماعة على تعزيز أيديولوجيتها ومعتقداتها عبر المدارس والمراكز والجامعات الدينية والنشاطات الاجتماعية الخيرية والخطب الدينية في المساجد وغيرها، كما أنها تتغذى على فشل أنظمة الحكم والأيديولوجيات في حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقضاء على الفساد وتحقيق التنمية في مختلف المجالات بحسب وجهة نظر المخابرات البريطانية[64]. كما أدى العنف والقمع الوحشي المتبادل بين التيارات القومية والدينية إلى إضعاف في المنظومة الأمنية الوطنية للعديد من البلدان، وسهّلت أجندات القوى الراغبة بالهيمنة والاحتلال على الشعوب ومقدّراتها؛ لتصل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى مستويات قياسية.

القسم الثاني:

تقهقر داعش، وإعادة تهجين الأفكار المتطرفة.

أولاً- عوامل صعود وسقوط دولة داعش.

يُشكّل كلٌ من الاقتصاد والقوة العسكرية والعقيدة، مثلث القوة الرئيسي لأي كيان مهما كانت صفته وطبيعته، وتنمية هذه العناصر من شأنه أن يكفل زيادة القوة وبالتالي استمرارية الكيان في البقاء؛ وقد أدرك تنظيم داعش حقيقة هذا الأمر، وسعى إلى تأمين مثلث قوته عبر استغلال مجموعة من الوسائل والأدوات والسلوكيات، مركّزاً على تحريض الرغبات الأنانية لدى الأتباع من جوع وجنس وعنف التي تضمن جلب المتعة وتجاوز المعاناة، وهي من الأمور الجوهرية في الميادين الرئيسية للدافع البشري المتمثل (بالمال والقوة والجنس) بحسب فلاسفة الشكّ ماركس

[64] مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ الناشر: المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص256.

ونيتشه وفرويد الذين اهتموا بدراسة الطبيعة البشرية[65]. أنّ استراتيجية تهجين الأفكار السلبية في ذلك السياق بغرض تعزيز ثقافة الكراهية تعدّ من الوسائل المهمة في تحقيق الأجندات المكرّسة في سبيل تمكّين الهيمنة والاحتلال. لقد كان هذا الأمر الشأن الرئيسي لبعض أجهزة استخبارات الدول الغربية وأنظمة الحكم الاستبدادية حول العالم بالدرجة الأولى في سبيل ضمان مصالحهم والسيطرة على المواقع ذات الأهمية الجيوبوليتيكية والاستراتيجية، وتحقيق أمنهم الداخلي وفق منهجية براغماتية معينة موضوعة بحسب وجهة نظرهم.

تشكل السجون والمحتجزات أو أي مكان ضيق ومحصور نسبياً يجمع أفراداً من ذوي ذهنياتٍ وأفكارٍ مختلفة ومتنوعة ومن بيئات متعددة، فرصة جيدة لتزاوج وتلاقح، الأفكار والتصورات والذهنيات، فعلى سبيل المثال كانت هناك تجربة سابقة في أفغانستان (جبال تورا بورا) بنشوء تنظيم القاعدة من خلال التهجين بين أفكار جماعة الإخوان المسلمين والجماعات الأصولية الراديكالية المحلية على أرضية معاداة كلٍ من الديمقراطية والشيوعية والحركات القومية العلمانية واليسارية ولاحقاً الثقافات الغربية وباقي المعتقدات الأخرى التي تقع خارج حدودهم المعنوية والفكرية؛ ويبدو أن التجربة تكررت في سجن بوكا الواقع جنوب البصرة في العراق والذي كان خاضعاً لإدارة تحالف القوات التي أطاحت بنظام صدام حسين عام 2003م، حيث كان يجمع شخصيات جهادية متعصبة لفكر القاعدة من اثنيات مختلفة وشخصيات بعثية متعصبة للفكر الفاشي والشوفيني، ويبدو أنّ السجن وفّر ظروفاً سهّلت عملية التهجين بين الذهنيتين لينشأ لاحقاً تنظيم داعش الإرهابي الذي طبّع في ذاكرة مجتمعات المنطقة (سوريا والعراق وكردستان) وحتى العالم ذكريات مؤلمة وقاسية، وكوارث فظيعة.

إنّ تنظيم داعش عبارة عن مجموعة مسلحة غير متجانسة تضم عناصر من قوميات متعددة متباعدة عن بعضها جغرافياً ومتوافقة عقائدياً تتبنى الجهاد العنفي وثقافة الكراهية كعقيدة سياسية وعسكرية؛ وقد ساهمت ثلاثة عوامل رئيسية وهي العامل العقائدي والعامل الاقتصادي والعامل العسكري[66] في الصعود القياسي النسبي للتنظيم ويبدو أنها كانت سبباً في سقوطه القياسي أيضاً، قد يكون ذلك بسبب اتباع التنظيم سياسات تدمير ذاتية كزيادة الضرائب بالتزامن مع قلة الخدمات وشحّ المستلزمات المعيشة، والمبالغة في تطبيق العقوبات، وإذلال الزعامات القبلية والهيكليات الاجتماعية المتأصلة في المناطق الخاضعة لها، والتسبب بوقوع عشرات الآلاف من الضحايا المدنيين وغير ذلك.

العامل العقائدي:

تعاني معظم المجتمعات القاطنة في الجغرافيا السورية والعراقية والكردستانية من الاستبداد وسوء الحوكمة، وانعدام الأمن، والكراهية الطائفية والقومية، والفقر والتخلف على الرغم من امتلاكها إرثاً حضارياً عريقاً، يعود السبب الرئيسي في ذلك إلى هيمنة أنظمة حكم استبدادية على بلدانها، فمعظم أنظمة الحكم في بلدان الشرق الأوسط إما فاشية أو انقلابية عسكرية أو عائلية، لا تحترم قيمة الإنسان وتعتبر الديمقراطية والتقدم من الممنوعات، وهناك قوى كبرى تدعم هذه الأنظمة وترغب باستمرارها عبر المؤامرات والأحلاف؛ هذا الأمر يولّد سلسلة مستمرة من

---

[65] سكيب داين يونج؛ السينما وعلم النفس (علاقة لا تنتهي)، ترجمة سامح سمير فرج؛ الطبعة الأولى 2015م؛ الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة؛ القاهرة؛ ص36.

[66] للمزيد راجع الملفات والدراسات والتقارير الموّثقة التي قدمت في سياق المنتدى الدولي "حول داعش: الأبعاد، والتحديات، واستراتيجيات المواجهة." الذي نظمه مركز روجآفا للدراسات الاستراتيجية NRLS في شهر تموز من عام 2019م.

المشاكل المختلفة التي تملك مؤثرات نفسية وعاطفية وسلوكية، وتراكم هذه المشاعر السلبية يؤدي إلى تعطيل التفاعلات الإيجابية ما بين أبناء المجتمع الواحد وبين المجتمعات المتنوعة، حيث تبنى الحواجز والمصدّات المادية والمعنوية وبالتالي تهديم الجسور وإلغاء التواصل. هذا الأمر يضعف المنظومة الأمنية المجتمعية لسكان المنطقة ويسهل على الخصوم والأعداء التسلل والهيمنة عليها، وحتى إبادة بعضٍ من تلك المجتمعات وثقافاتها.

إنّ الفرد المقهور الذي عاش في بيئة فقيرة وبائسة وتحت حكم سلطة استبدادية، ولا يملك القدرة على إصلاح هذه البيئة، عندما يرى سلطة جديدة تتظاهر باحترام القيم الأخلاقية، وتعمل على قطع يد السارق أو تجلد من اتهم بالظلم وترجم من يزني، بغض النظر عن حقيقة الإتهام أو تكثر من بناء المساجد وتحضّ على الدين، فإن هذا الأمر يملك وقعاً مؤثراً في عقل ونفس ذلك الفرد الشرقي بشكل يدفعه إلى التودّد لهذه السلطة كمنقذة له من ذلك الواقع. إنَّ معظم المجتمعات الشرقية تعيش حياة بائسة وقاسية ومتخلفة منذ مئات السنين والعديد من الآثار التاريخية التي تشير إلى الحضارات الغابرة لا تخص إلا فئات سياسية معينة تسلطت على رقاب وكدح الشعوب، ويبدو أنّ اعتناق هذه المجتمعات للديانات قد وفرّت لها بعض السعادة المعنوية وبعض الحماية للمصالح المادية، بشكل خاص منذ قيام دولة الملك الإله- الكاهن السومرية. لم تستطع الثورات التي اندلعت من انتشال المجتمعات من هذا الواقع المرير حتى عصرنا الحالي على الرغم من تحقيقها بعض الإنجازات إلا أنها لم تكن تستمر طويلاً وسرعان ما تُعاد مجدداً إلى قبضة الاستبداد. لقد عانت المجتمعات في سوريا والعراق وكردستان من ازدواجية عميقة في شخصية الكثيرين من أفرادها، فهناك تمجيد ومجاملة ومديح للسلاطين- مهما كانت صفتهم- وتودد إلى مؤسساتهم بغرض المنفعة، وبنفس الوقت هناك معاناة من قهر وبؤس فظيع جراء سياسات هؤلاء الحكّام؛ إنّ هذا الأمر قد خلق بيئات منفتحة على العنف للخلاص من الواقع البائس وإرواء الغرائز النفسية المكبوتة خاصة حب التملك، ويبدو أنّ قيام تنظيم داعش بإضفاء الشرعية على العنف والتملك بالغصب مكّنه من امتلاك المقدرة على الإغواء والجاذبية خاصة في سياق إحياء مفهوم الغنائم المادية والبشرية والروحية بإيجاد مبررات شرعية لها عبر قولبتها بالدين. علماً أنّ خطاب الكراهية الشيعي- السني والأفكار الشوفينية البعثية خصّبت التربة التي أسس عليها التنظيم كيانه.

في هذا السياق تطرح التنظيمات الأصولية المتطرفة وعلى رأسها تنظيم داعش، الإسلام المفسِر من وجهة نظرها حلاً لمختلف المشاكل والأزمات وادرجوها ضمن مشروع سياسي، حيث أنّ المميزات المشتركة لهذه الحركات هي الاتفاق على ماهية ثنائية الخير والشرّ؛ بالنسبة لهم لا يوجد سوى حزبين، حزب الله (أي حزبهم) وحزب الشيطان (أي الآخرون) والصراع بينهما حتمي بلا هوادة، ويرفضون خضوع التشريعات الخاصة بتنظيم شؤون البشر للعلوم الإنسانية والطبيعية والتجريبية كونها من صنع البشر، بل يصرّون على خضوعها للقرآن الذي يتضمن كلام الله، لذا يرون وجوب ذوبان الدول الحالية في خلافة جديدة مهمتها التوسع والهيمنة بشكل يتجاوز الخصوصية الثقافية للمجتمعات الإنسانية، ويلغي الحدود والأطُر الوطنية للبلدان؛ لذلك وفي سبيل تحقيق ذلك يقع على عاتقِ الأتباعِ خوض حرب مقدسة وإبادة العدو المفترض وإذلاله لإقامة فردوسهم المنشود.

تتمحور العقيدة السياسية والعسكرية لتنظيم داعش حول الشعار "باقية وتتمدد" أي التوسع الجغرافي والتمدد الفكري كعنوان رئيسي في أجنداته، ويعمل على شحن ذهنية أتباعه والمتعاطفين معه بنزعة دوغمائية متشددة عن عيش العالم بما فيه معظم المسلمين لواقعٍ منحرفٍ عن الإرادة الإلهية وعن تعاليم الأنبياء، ومنغمسين في الفساد والكفر والملذات الدنيوية، وطرح التنظيم كحامي وحيد للشريعة الإسلامية من خلال مظاهر تجريم التدخين وشرب الكحول وفرض الحجاب وغير

ذلك؛ وبحسب وجهة نظرهم ولإعادة الأمور إلى نصابها يتوجب إقامة دولة الخلافة الإسلامية العالمية وقتل وإذلال كل من يخالفها. في هذا السياق أعلنت حوالي 50 مجموعة ولائها للبغدادي[67] واعتبرت مناطقها ولايات أو مقاطعات للدولة المزعومة، علماً أنَّ هذه المناطق تعاني أصلاً من صراعات ومظالم واسعة الانتشار وحكومة مركزية ضعيفة، مثلاً تمركز التنظيم في سرت معقل عشيرة القذافي وأنصار بيت المقدس في سيناء وجماعة بوكو حرام في منطقة مهملة من حوض بحيرة تشاد غرب افريقيا.

"كل من يقع خارج حدود سلطة الدولة الإسلامية في العراق والشام يعتبر كافراً ويستحل دمه وماله وعرضه" و"يتوجب على كل مسلم بايع التنظيم أن يبادر بالهجرة إلى دولة الخلافة"؛ ويُصنّف سكان البلاد إلى المؤمنين (الموالين للتنظيم) وأهل الذمة (المسيحيين) والمرتدين الكفار (كل من يرفض عقيدته وسلطته)، هذا ما أفهمنا إياه عدد من قادة ومشرّعي وعائلات التنظيم أثناء مقابلتنا لهم في المخيمات وأماكن الاحتجاز. لقد قدّم التنظيم كيانه كسفينة النجاة لأنصاره في عالم يسوده الديستوبيا[68] كما يدّعي؛ إنّ هذه الأمور تكشف لنا حجم الكارثة التي تسبب بها هذا التنظيم وكأنه محاولة لشخص مختل عقلياً ونفسياً استلم زمام المبادرة في إخضاع البشر، وابتداع الحلول لمشاكل اختلق بعضها في مخيلته أو بالغ في تقييمها نتيجة لقصور ذهني.

اكتسب التنظيم زخماً كبيراً في سوريا بعد تبني البعض الجهاد العنفي كعقيدة أمنية وعسكرية للتيار السلفي الجهادي إثر خروجهم من المعتقلات بمراسيم عفو من السلطة المركزية في دمشق في بداية الأزمة كالإفراج عن أبي محمد الجولاني وآخرين معه في شهر نيسان من عام 2011م بعفو رئاسي وبعد ذلك في عام 2012م تمّ الإفراج عن أبي مصعب السوري[69] الذي كان قد تلقى تدريبه في صفوف الإخوان المسلمين ضمن معسكرات مغلقة بإشراف المخابرات العراقية في فترة صراعه مع النظام السوري، والذي يعد من أخطر المتطرفين على مستوى العالم، وكانت الولايات المتحدة قد اعتقلته في باكستان وسلمته إلى الحكومة السورية عام 2005م، بالتزامن مع عودة البعض من العراق بعد تلقي التنظيمات الجهادية هناك ضربات قوية من قبل التحالف والقوى الشيعية والميليشيات المعروفة باسم الصحوات السنيّة؛ وقد شكّل اعتماد النظام الخيار العسكري العنيف والوحشي طاقة مساعدة لصعود الفكر الجهادي العنفي. ومما ساعد التنظيم على ترسيخ عقيدته اعتماد نظام تعليمي وتربوي خاص به وبصبغته وفقاً لأيديولوجيته ووفق مناهج تلقينية أعدّها لضمان إطاعة تعاليمه، بالتزامن مع منع النساء من التعلم وتحويلهم إلى آلة لإنجاب المقاتلين وخدمة المقاتلين من أجل ضمان استمرار الأمية والجهل في المجتمعات الخاضعة له بشكل يضمن له السيطرة عليهم وسوقهم وفق مشيئته. وعمل أيضاً على قتل المشاعر المؤمنة بالديمقراطية والمساواة والعدالة وحرية التعبير والعمل.

---

67 للمزيد راجع: لين إي. دايفس- جيفري مارتيني- كيم كراجين؛ استراتيجية لمكافحة الدولة الإسلامية في العراق والشام (ISIL) كتهديدٍ عبر إقليمي (منظور تحليلي)؛ الناشر مركز RAND للأبحاث؛ 2017م.

68 الديستوبيا Dystopia أو المدينة الفاسدة أو المكان الخبيث، وهي عكس اليوتوبيا، وتعبر عن مجتمع خيالي فاسد وشرير، تسوده الفوضى والخراب والقتل والقمع والفقر والمرض، أي يعاني المجتمع من انحطاط كارثي، وليس للخير مكان فيه، حيث يتجرد الإنسان فيه من إنسانيته...

69 للمزيد راجع: "جهاديون" ارتبطوا بأجهزة استخبارات غربية ... أبو مصعب السوري؛ إعداد المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات ـ المانيا وهولندا-وحدة الدراسات والتقارير "3"؛ تاريخ النشر 19 يونيو/حزيران 2018م، بشير الوندي؛ مباحث في الاستخبارات (166) التجنيد بالإلهام (الذئاب المنفردة)؛ الحوار المتمدن-العدد: 6244 - 2019 / 5 / 29؛

يبدو أنّ الرياح لم تجرِ بما تشتهيه سفن التنظيم، فبالإضافة إلى عدم تمكّن قادة التنظيم من توحيد الحركة الجهادية العالمية بل الانزلاق إلى التنافس مع القاعدة، تفرد قادة التنظيم العراقيين بالقرارات المصيرية، إلى جانب الفظائع التي ارتكبها والمتناقضة مع شعاراته المضللة بخصوص تحرير الناس من بؤسهم، وفشله في تحقيق استقرار اقتصادي وسياسي، والإصرار على عسكرة المجتمع في سبيل معاداة العالم وتعزيز سلطته، قد ولّدَ نفوراً عاماً من عقيدته وأضعفَ جاذبيته، ومما زاد من فشلهِ زيادة إرهابه سواء تجاه الخاضعين لسلطته أو تجاه المجتمعات الأخرى التي يرغب بالسيطرة عليها والاستهتار بحياة الناس واستباحة حياة ودماء المخالفين له، حيث أظهر حقيقته كسلطة استبدادية قمعية، بالتزامن مع تضييقه الخناق على المرأة وإعادة استعباد إرادتها في الوقت الذي كانت فيه المرأة تحقق ثورة حقيقة في شمال سوريا (روجآفا)؛ وقد كان نتيجة رد الفعل على ذلك ظهور ائتلاف محلي في عام 2015م، عسكري وسياسي، من العرب والكرد والمسيحيين تحت مسمى قوات سوريا الديمقراطية ومجلس سوريا الديمقراطية، قاد معارك برية قوية معه بدعمٍ جوي من "قوات التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب" بالتزامن مع غياب دعم المجتمعات المحلية الخاضعة لسلطته وفرارها من قبضته في كل فرصة سانحة عبر النزوح إلى المناطق المحرّرة من شمال وشرق سوريا؛ وبالتالي كانت عقيدة التنظيم السبب في صعوده وبنفس الوقت السبب في سقوطه. تبدو تلك العقيدة قد فقدت جاذبيتها وأصبحت غير قادرة على حشد المقاتلين، وأصبح المتعصبون للتنظيم يعملون سرّاً على شكل خلايا نائمة مشحونة بحب الانتقام والرغبة بالقتل دون أن يكون هناك أية محاولة لإعادة النظر في الأخطاء والأسباب الداخلية التنظيمية والعقائدية التي أدت إلى هزيمة التنظيم، وهذا النشاط على الرغم من أنه يروي الرغبة الساديّة[70] لدى أتباع التنظيم إلا أنه يستنزف من قوته، والنهاية الحتمية هي الزوال أو الاندماج في عقيدة أخرى لتنظيم آخر، وبالتالي إمكانية بروز تنظيم متطرف هجين آخر.

العامل الاقتصادي:

بلا شكّ يشكل الاقتصاد الوقود الذي يضمن استمرار عجلة التنظيم بالدوران. على الرغم من غنى المنطقة بالعديد من الثروات والموارد، يعاني معظم سكان المنطقة من فقر مدقع، وتخلفٍ في البنية التحتية خاصة الخدمية، وتلوثٍ بيئي، أي يمكن القول بأنّ الأمن الإنساني في بعده الاقتصادي شبه معدوم، وتتحمل السلطة المركزية المسؤولية المباشرة عن ذلك، لذلك فإنّ بروز أي كيان جديد يسعى وراء انتزاع السلطة يوّلد دافع لدى العديد من الأفراد إلى الانجذاب إليه بغرض تحسين الواقع الاقتصادي وتلمس الخلاص من الشقاء من خلاله. لقد مارس التنظيم سياسة ليبرالية سلبية في إطار أيديولوجيته تجاه تغيير الواقع الاقتصادي للمنطقة فتمّ غضّ النظر عن بعض الأعمال التي تتطلب قيود ومراقبة صحية كاستثمار آبار النفط بطرق بدائية، وكذلك عدم ممانعة سرقة معدّات وأجهزة وأدوات المؤسسات والمشاريع والشركات الخدمية وبيعها في السوق السوداء أو في تركيا، ونهب المصارف وصوامع الحبوب، إلى جانب اعتماد التنظيم على أعمال الجريمة المنظمة وتحويل معاركه إلى مصدر للربح المادي السريع من خلال اعتماد الاستعبادين الجسدي والجنسي والفدية والسلب والابتزاز ونهب المواقع الأثرية وغير ذلك، أي أنّ اعتماد الاقتصاد الحرّ خارج القيم الأخلاقية الإنسانية في سياق سياساته الخارجية والداخلية شكّل جاذبية للعديد من المكبوتين لتحرير نزواتهم السلبية إلى درجة التطرف في الشحن السلبي لغريزة حب التملك بالتزامن مع فرض التنظيم للمبادئ الاقتصادية الإسلامية في شكلها البدائي بشكل دوغمائي؛ وقد قام أيضاً بتطوير علاقاته الاقتصادية مع الدولة التركية عبر معبر كري سبي/ تل أبيض التي كانت في قبضة

[70] الساديّة: التلذذ والاستمتاع في إلحاق الأذى بالآخرين...

التنظيم وعبر المناطق المحتلة من قبل الدولة التركية في غربي الفرات، كما واعتمد على شبكة مالية خارجية سرّية لتأمين إمداداته المالية من قبل المتعاطفين معه، إلى جانب دفع رواتب مغرية ومنح مناصب وامتيازات (بما فيها منحهم الأسيرات والمخطوفات كسبايا) بغرض جذب المقاتلين من التنظيمات الأخرى والمقاتلين الأجانب والأتباع خصوصاً من يمتلكون خبرات طبية وهندسية وعسكرية. من ناحية أخرى شكّل طرح التنظيم لسكّ دينار ذهبي كعملة رئيسية مصدر جاذبية مغري للكثيرين من المتعاطفين معه، فهو إلى جانب تأثيره العقائدي فإنّ الدينار الذهبي قد يتحول إلى منافس قوي أو موّازن للدولار وبالتالي التخلص من هيمنته بحسب ما أفادنا به القيادي في التنظيم "أبو عبيدة التركي" ما من شأنه أن يحقق ثروة هائلة للتنظيم ويمنحه مرونة أكبر في تمويل عملياته الإجرامية حول العالم؛ يبدو أنّ التنظيم حاول تبييض الذهب (غسيل الأموال) المنهوب من بنك الموصل[71] ومن مصادر أخرى ومنحها شرعية معينة للتداول، ربما يكون هذا الأمر من أحد الأسباب التي عجّلت نهايته، حيث قُتِل القيادي المكّلف بهذا الأمر بضربة جوية- يعتقد أنه كان يدعى باسم أبي فرقان وكان يعد من أقوى الشخصيات القيادية في التنظيم-، ويبدو أنّ مسألة الدينار الذهبي ذات أهمية أيضاً لدى رعايا التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين، تركيا وقطر وجماعة مهاتير محمد الماليزية[72] من خلال طرحهم لمشاريع اقتصادية مُنظّمة على شكل كارتل يعتمد الدينار الذهبي في معاملاتهم الاقتصادية. بشكلٍ عام طرحَ التنظيم نفسه كمصدر للثراء السريع لكل من يقبل سلطته، ويبدو أنّ هذا الأسلوب أقربٍ إلى أسلوب عصابات الجريمة المنظمة أو الغزو أكثر من كونه نظام اقتصادي قائم على المؤسساتية أو يتوافق مع النظام الاقتصادي التشاركي الذي لايزال سائداً منذ مئات السنين بين الكثير من المجتمعات المحلية في سياق العلاقات الاجتماعية وبعيداً عن مؤسسات الدولة.

إنّ عدم امتلاك التنظيم لرؤية اقتصادية موضوعية وغياب الخطط التنموية والمشاريع الخدمية، واعتماد اقتصاد الحرب في سبيل التمدد والهيمنة، وتفشي الفساد في مفاصله، وإفراط مسؤوليه في تكنيز الثروة، وتعرض مصادر تمويله للجفاف من قبل الدول الغربية وحلفائه، وعدم قدرته على تمويل أجنداته ودفع رواتب مقاتليه، يشكّل مؤشر على سياسته الاقتصادية الفاشلة؛ وما يؤكّد على ذلك كمثال طريقة تعامله الوحشية مع عشيرة الشعيطات في مسألة الخلاف على استثمار بعض آبار النفط في ريف دير الزور، وقد كرّر الأمر نفسه مع قبيلة البونمر في محافظة الأنبار العراقية. إنّ عدم قدرة التنظيم على حلّ المشاكل الاقتصادية في المناطق الخاضعة لسلطته، وتحوله إلى عبْء إضافي على كاهل السكان من خلال الضرائب المختلفة، وسياسته الاقتصادية المتخلفة جعل من أي عملية عسكرية تنهي سلطته أمنية غالية للكثيرين.

[71] بحسب بعض المتابعين المحليين الذي عايشوا فترة غزو العراق للكويت، تعرضت كميات كبيرة من الذهب الكويتي للنهب وتم نقلها إلى العراق وقد فقدت كميات كبيرة منها بعد سقوط النظام العراقي عام 2003م، ويقال أنّ قسماً من ذلك الذهب كان موجوداً في بنك الموصل، وحالياً لم يتسنى معرفة مصير تلك الثروة بدقة وبشكل موثوق بعد الهزيمة الميدانية للتنظيم، والتي تقدر بحوالي 40 طناً من الذهب وعشرات الملايين من الدولارات بحسب المرصد السوري لحقوق الإنسان،

[72] RT عربية؛ تركيا وقطر وإيران وماليزيا تتحصن بـ"الدينار الذهبي"؛ 2019/12/21م؛

عملات تنظيم داعش الذهبية والفضية[73]

العامل العسكري:

لقد امتاز تنظيم داعش بقدرات عسكرية مؤثرة مكنته من احتلال الكثير من المناطق، حيث عجز جيشا سوريا والعراق والتنظيمات الأخرى المشابهة له من كبح جماحه لأسباب عديدة يطول الشرح فيها، بشكل عام هناك عدة مصادر للقوة العسكرية للتنظيم يمكن أن نلخصها بالشكل التالي:

حصوله على أسلحة نوعية أغتنمها من الجيش العراقي خاصة في مناطق الموصل، وكذلك سيطرته على العديد من مستودعات والقواعد العسكرية لجيش النظام السوري.

حصوله على تقنيات الميكاترونيك في المجال العسكري من قبل بعض الفنيين والتقنيين المحليين والأجانب الذين انضموا إليه، وقد استثمروا ذلك جيداً في صناعة المفخخات والألغام والقذائف، واستخدام مناظير الرؤية الليلية وأسلحة القنص الحديثة، وإدارة الطائرات المسيّرة التي حصلوا على معظمها بموجب عقد صفقات تجارية مع بعض الشركات التركية الخاصة. وقد أفاد بعض المقاتلين النخبة في وحدات حماية الشعب YPG أثناء قيامهم بعمليات تسلل فدائية إلى بعض مواقع التنظيم وتنفيذ عمليات عسكرية فيها بمشاهدتهم لورش صناعية ومستودعات تحوي على براميل لمواد كيماوية وسامة.

امتلاكه لمقاتلين انتحاريين ومتعصبين للتنظيم بموجب دورات شرعية وغسيل دماغ أعادت صياغة تصورات وأفكار المنتسبين إليها بحسب أيديولوجية التنظيم. وكان له اهتمام بتجنيد الأطفال في هذا السياق حيث شكّل تنظيماً من الأطفال الانتحاريين تحت مسمى **"أشبال الخلافة"** وعمل على عسكرة المجتمع بمختلف مفاصله.

الاستفادة من الخبرات القتالية للكثير من عناصره الذين قاتلوا في أفغانستان والشيشان والعراق وسوريا واليمن وكردستان؛ وكذلك الاستفادة من خبرة الضباط العراقيين البعثيين والمنشقين عن النظام السوري، وانضموا إلى صفوفه. كما وعمل على تزويج المقاتلين الأجانب بنساء سوريات وعراقيات بغية تعميق صلاتهم بالسكان المحليين.

[73] DW؛ خبير مالي دولي: ذهب "داعش" ما زال بعيد المنال؛ تاريخ النشر 2016/11/23م؛

القضاء على العناصر المخالفة له في المناطق الخاضعة لسيطرته من خلال التهجير أو التصفية أو الإجبار على البيعة أو الاعتقال.

واجه التنظيم الغارات الجوية بشبكة أنفاق كبيرة وتشتيت القوات على الأرض إلى وحدات صغيرة محدودة العدد والتمركز بين المدنيين في المدن.

اللامبالاة والاستعداد للتضحية بمئات المقاتلين في هجمات عسكرية كبيرة للسيطرة على مواقع استراتيجية كالمطارات والقواعد ونقاط التمركز العسكرية.

تحييد الدولة التركية التي تمتلك قوة عسكرية ضخمة في المنطقة؛ وقد بلغ الأمر إلى درجة التنسيق الاستخباراتي معها في سياق الحرب على سكان شمال وشرق سوريا.

اعتماد تكتيكات المغول الوحشية في الحرب النفسية وتوظيف التقنية الحديثة في خدمتها من خلال بثّ مشاهد وحشية تمجّد التنظيم وتظهر شجاعته وكثرة اعداده، بالتزامن مع بث مشاهد تظهر قطع الرؤوس وحرق الأحياء وإعدامات ميدانية والدفن في مقابر جماعية، بالتزامن مع التكبيرات ومقاطع صوتية من آيات قرآنية وخطب وأناشيد حماسية؛ هذه المشاهد كانت توجه إلى سكان المنطقة الذين يعتنق غالبيتهم الإسلام من جانبه الروحاني، ويبدو أنّه كان لهذا الأمر تأثيراً في سيطرة التنظيم على الكثير من المناطق بسهولة. لقد اعتمد في حربه النفسية على خلاياه النائمة وعلى مواقع التواصل الاجتماعي التابعة له ووكالة أعماق ومجلة دابق والعديد من الكتب والمنشورات الالكترونية والورقية التي روّج من خلالها لنشاطاته، وإظهار الجانب الوحشي لحربه على الذين يصنفهم كأعداء له، والتقليل من خسائره وتعظيم مكاسبه وتشويه صورة ضحاياه، وزرع الخوف في نفوس المدنيين من خلال عرض الاعدامات وتعليق الرؤوس والتعذيب ومشاهد الإذلال في الساحات والطرق. وكذلك قتل الرهائن والأسرى بصورة وحشية وعلنية كوسيلة لرفع الروح المعنوية لأنصاره عقب كل إخفاق وتثبيط المعنويات. كما أنه استخدم المدنيين كدروع بشرية، فبغرض جذب الغارات الجوية وإظهاره كمن يقاتل الكفار كان يفضل التمركز في المناطق السكنية والعمل على استفزاز الغرب من خلال اعدام الرهائن أو القيام بعمليات انتحارية هناك لدفعهم الى قصف أهدافٍ تابعة له، وذلك للإيحاء بأنه يخوض حرباً دفاعية ضد (الكفار)، وبأنّ اتباعه منخرطون في الجهاد ضد الصليبيين والكفار الذين يقتلون المسلمين، وبنفس الوقت جذب الجهاديين الروس والشيشان والداغستانيين لقتال القوات الروسية في سوريا؛ لقد قدّرت دراسة لمركز RAND للأبحاث[74] في عام 2017م أعداد المقاتلين الأجانب في صفوف التنظيم في كلٍ من سوريا والعراق من 18000 إلى 22000 عنصر؛ يبدو أنّ التنظيم كان متقناً لحربه النفسية.

هذه الأمور مكّنت التنظيم من السيطرة على مناطق شاسعة من سوريا والعراق بزمنٍ قياسي، وقد تسببت نشوة الانتصار في عمى استراتيجي مؤقت للتنظيم من خلال توجيه كامل قواته باتجاه شمال البلاد لثلاثة أهدف رئيسية أولها توطيد العلاقة مع نظام أردوغان في سبيل فتح متنفس للتنظيم على العالم الخارجي من خلال الإغواء بتنفيذ عمليات تطهير عرقي بحق الكرد والمسيحيين، والثانية القضاء على وحدات حماية الشعب والمرأة القوة العسكرية المحلية الوحيدة التي لم تنهزم أمامه، والثالثة السيطرة على ثروات المنطقة الزراعية والنفطية؛ وفي سبيل ذلك قام في شهر أيلول من عام 2014م بإعداد حملة عسكرية ضخمة بأسلحة حديثة وذات قوة نارية كبيرة وصفها لنا عدد من عناصر التنظيم بأنها كانت كافية لاحتلال الشام، وتم توجيهها باتجاه مدينة

[74] لين إي. دايفس- جيفري مارتيني- كيم كراجين؛ استراتيجية لمكافحة الدولة الإسلامية في العراق والشام (ISIL) كتهديدٍ عبر إقليمي (منظور تحليلي)؛ الناشر مركز RAND للأبحاث؛ 2017م. ص4. النسخة الإلكترونية على

كوباني المحاصرة من قبل الدولة التركية؛ وجرت هناك معارك طاحنة عجز التنظيم من احتلال المدينة ذات المساحة الصغيرة والقضاء على مقاومة سكانها بحسب خطته العسكرية بل تكبّد خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد؛ وقد أسفر النشاط الدبلوماسي الذي قام به القادة العسكريون والسياسيون المحليون في شمال سوريا إلى عقد مذكرة تفاهم مع "التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب" الذي قام بتقديم غطاء جوي مكّنت المقاومين من التحول من الدفاع إلى الهجوم ومحاصرة المُحاصرين، ليلقى التنظيم أولى هزائمه العسكرية، ويبدو أنّ هذه الهزيمة كانت مزلّزلة للتنظيم إلى درجة التخطيط وتنفيذ عملية إنتقامية إجرامية بحق المدنيين في المدينة المحرّرة في شهر حزيران من عام 2015م كانتقام ساديّ إثر هزيمته المؤثرة، وقد ذهب ضحية هذا العمل الإجرامي أكثر من 242 مدني من النساء والأطفال والرجال.

لقد أفسح هذا الانتصار المجال للمجتمعات المحلية في سوريا والعراق لاستجماع قواها واستلام زمام المبادرة في الهجوم على مواقع التنظيم، ليبدأ قوة التنظيم بالاندحار التدريجي إلى أن انهزم في آخر معاقله بعد تحرير قوات سوريا الديمقراطية بلدة الباغوز في 2020/3/21م في ريف دير الزور.

على الرغم من امتلاك التنظيم الكثير من المزايا في المجال العسكري إلا أنه لم يكن يملك رؤية استراتيجية تحفظ له المكاسب التي حققها بالقوة العسكرية، وكسر إرادة المجتمعات المحلية، ويبدو أنه تأثر أيضاً بحربه النفسية حتى أنّ معظم أتباعه كانوا يظنون بأنهم لا يقهرون، والكثير من عائلات التنظيم التي قابلناها في مخيمي الهول وروج لم يصدّقوا هزيمة داعش، ويبدو أنهم لن يتقبلوا فكرة الهزيمة، وهذا ما ينبئ باستمرار توحش أنصاره في أي مكان تسنح لهم الفرصة فيها. وكذلك فإنّ تحولهم أحياناً إلى مرتزقة خدمة لأجندات قوى إقليمية، ومحاربة العالم وإقامة عالم جديد لا يحظى بقبول معظم المجتمعات والثقافات أشبه بمن يحارب طواحين الهواء، ونتيجته الحتمية هي الهزيمة والانكسار والتسبب بمعاناة كارثية للمجتمعات المختلفة.

من ناحية أخرى يبدو أن التنظيم لم يستطع إدارة علاقاته السرية ذات النزعة البراغماتية مع كلٍ من نظامي سوريا وتركيا في تدعيم أسس كيانه القائم وطرح نفسه كشريك لضرب أعداء مشتركين؛ هذه العلاقات تمحورت حول العلاقات الاقتصادية والتفاهم العسكري ضد الأعداء المشتركين وكان للنظام مصلحة في وجوده من أجل تمزيق المعارضة وإلهائها بحروب جانبية مع التنظيمات المعارضة الأخرى للحصول على جهود عسكرية مجانية تقتل بالنيابة عنه وبنفس الوقت تبرير المعاملة القاسية للمعارضة وطرح نفسه كأهون شرّ؛ وكان يؤمن بسهولة القضاء على داعش فيما بعد استناداً إلى تجربته السابقة مع الفرع السوري من جماعة الإخوان المسلمين. بينما كان للنظام التركي غايات أخرى تتمثل بالاحتلال وإبادة الكرد في شمال البلاد بغطاء من التنظيم. كما ويمكن الجزم بأنّ التنظيم لم يستطع التعامل مع التحديات التي يواجهه كإدارة مناطق شاسعة بكفاءة، والتقليل من تأثير الغارات الجوية على أهدافه ومصادر موارده، إلى جانب تطاول بعض قادته على السكان المحليين والاستعلاء عليهم وعدم احترام خصوصياتهم الاجتماعية والثقافية، بالتزامن مع وجود تنظيمات أصولية منافسة له تملك بدورها عوامل تضمن استمرارها بشكل نسبي كجبهة النصرة وميليشيات الإخوان المسلمين التي تعرف باسم الجيش الحرّ.

يلخص الإعلامي "غسان شربل" رئيس تحرير صحيفة الشرق الأوسط حالة تنظيم داعش بالشكل التالي:

"... كانت سنوات «دولة البغدادي» عنيفة ومخيفة وحافلة بمشاهد لم يعاين العالم مثيلاً لها في

عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. مسلحون وافدون من كهوف التاريخ يستخدمون آخر إنجازات التكنولوجيا لإرعاب العالم بمشاهد النحر والرؤوس المقطوعة وإحراق الأسرى والتصفيات أمام الكاميرات. كانت أطول عملية تخريب وترهيب شهدتها المنطقة التي لم يبخل عليها سوء الحظ بالقساة وممارساتهم..."[75].

ثانياً- دور الجماعات الأصولية المتطرفة في الحرب الهجينة.

إنّ أية تطورات تنظيمية وذهنية محتملة للتنظيمات الأصولية المتطرفة بعد الهزيمة الميدانية لتنظيم داعش الإجرامي ترتبط بشكل وثيق بالتحولات التي تشهدها الخارطة السياسية والعسكرية والأمنية والعقائدية للمنطقة وانعكاس ذلك على واقعها الجيوبوليتيكي، بالتأكيد سيكون لذلك تأثيراً معيناً على أجندات القوى الدولية والإقليمية الكبرى والتي سيكون لها ردة فعلٍ تتناسب مع حجم التحديات التي تواجهها، وذلك استناداً إلى الأحداث التي تمت في الماضي، حيث تمّت الإشارة إلى بعضٍ منها في القسم الأول من هذا البحث؛ في هذا السياق يرى الباحث محمد حسنين هيكل[76] أنَّ الشرق الأوسط لا تحكمه المشاكل، وإنما تحكمه العقد التي خلفتها المشاكل، فالأجندات الدولية حاولت خلق مشاكل لتقويض النفوذ السوفيتي في المنطقة من خلال أحلاف ودعم أنظمة حكم استبدادية إلا أن الفشل في خلق المشاكل ولّدت عقداً لدى أصحاب هذه الأجندات والمشاريع كحلف بغداد ومشروع آيزنهاور، تلك العقد التي لم تُحلّ بعد والتي تتحكم بآلية تنفيذ الأجندات الدولية تعدّ بمثابة عقدة فشل في تحقيق أجنداتها السابقة وتحولت إلى مشاكل مؤرّقة. فمثلاً الهجمات العدوانية لنظام أردوغان على شمال وشرق سوريا هي نتيجة مشكلة يعانيها تتمثل بعدم قدرته على القضاء على الحركة التحررية الكردية في شمال كردستان ليوجه انتقامه ويفرغ شحناته السلبية بقتل سكان روج آفا إشباعاً لعقدة فشله وحرف أنظار أتباعه إلى أوهام تاريخية. أما بالنسبة لردة فعل الإسلام بشكل عام على هذا الأمر فقد شرحه الباحث برنارد لويس بالشكل التالي[77] "...يرى الإسلام في الحضارة الأوروبية والغربية المعاصرة تهديداً، خاصة أنها حطمت البناء التقليدي للحياة الاقتصادية تحطيماً لا يرجى معه ترميم، كما أنها تؤثر في كل عربي في طرق معيشته، وأوقات فراغه، وحياته الخاصة والعامة، وتتطلب تعديل الأساليب الاجتماعية والسياسية والثقافية الموروثة. وأمام الشعوب العربية طرق مختلفة لحل مشكلة التكّيف طبقا للأوضاع الجديدة... فقد يندمجون في أحد أشكال الحضارة الغربية ثقافياً أو يقاومون ويسعوا وراء سراب العودة إلى المثل الثيوقراطية الضائعة، فيوصلهم هذا لا إلى تلك المثل بل إلى حكم استبدادي معزز بما يقتبس من الغرب من وسائل الاستغلال والكبت ومن اصطلاحات التعصب الرنانة، وأخيراً وهذا لا يتم إلا إذا تخلص الشرق من السيطرة الأوروبية قد ينجحون في تجديد مجتمعهم من الداخل فيلتقون بالغرب على أساس من التعاون المتبادل ويقتبسون شيئاً من علومه وانسانيته اقتباساً جوهرياً يتلائم مع تراثهم وتقاليدهم...".

---

[75] غسان شربل؛ من «دولة البغدادي» إلى «الذئاب المنفردة»؛ تاريخ النشر: 2019/2/18م، موقع جريدة الشرق الأوسط الإلكتروني؛

[76] محمد حسنين هيكل؛ العُقد النفسية التي تحكم الشرق الأوسط؛ الطبعة الأولى 1958م؛ الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر؛ القاهرة؛ ص45.

[77] برنارد لويس؛ العرب في التاريخ؛ تعريب نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد؛ دار العلم للملايين؛ بيروت 1954؛ الطبعة الأولى. ص250.

يمتاز المشهد الحالي للمنطقة بصدارة الأحداث الجارية في سوريا، والتي يبدو أنها تحولت جغرافياً إلى خطوط تماس للمواجهة بين القوى المتصارعة والمتنافسة، ولدى التعمق في كينونة الواقع الحالي نجد خارطة عقائدية وثقافية جديدة تتستر خلف خارطة توزع القوى العسكرية والكيانات السياسية المتصارعة المهيمنة على مناطق محددة من البلاد؛ أنّ هذا الأمر يشير إلى تحول التنظيمات المتطرفة المهجّنة إلى جزء فعّال من استراتيجيات الحرب الهجينة[78] التعبير الجديد للحرب العالمية الثالثة أو للحروب المعاصرة بين الدول الكبرى؛ فهناك:

القوى الموالية والتابعة لإيران والتي تؤمن بضرورة عولمة أفكار الخميني تحت الشعار الاستراتيجي "تصدير الثورة الإسلامية/ الشيعية" التي تبدو أنها لا تزال خارج الهيمنة الغربية، لذا تعمل في هذا السياق على نشر التشيّع في المناطق التي تتواجد فيها والترويج للحرس الثوري الإيراني كالحامي الوحيد للطوائف المحسوبة على المذهب الشيعي كالعلويين والإسماعيليين والمرشدين، وبنفس الوقت كسب ولاء بعض القوميين العرب أو تحييد موقفهم تجاه إيران عبر الاهتمام الاستراتيجي بالقضية الفلسطينية في إطار ما يسمى "بمحور المقاومة" وبنفس الوقت اتباع سياسة إغواء من خلال جاذبية الأفكار الثورية الإيرانية. تعمل هذه القوى تحت غطاء العلاقات الرسمية بين السلطتين المركزيتين في دمشق وطهران، ويبدو أنها حقّقت نجاحاً نسبياً بدليل وجود العديد من السوريين في صفوف الميليشيات الموالية لها بدافع عقائدي أكثر منه بدافع ارتزاقي كونه توجد أطراف أخرى تدفع مراتب مادية أعلى.

من جهتها تحاول روسيا تأمين حاضنة عقائدية لها من خلال اتجاهين، الاتجاه الأول عن طريق رعايتها للكنيسة الأرثوذكسية العالمية ويشير إلى هذا الأمر موقف القيادة الدينية والسياسية في روسيا[79] المنفعل تجاه قرار نظام أردوغان بتحويل المتحف والكنيسة السابقة "آيا صوفيا" إلى مسجد. يقيم في سوريا نسبة كبيرة من رعايا الكنيسة الأرثوذكسية، وشكّل التدخل الروسي المباشر في الأزمة السورية بالتزامن مع ازدياد حدة هجمات الميليشيات الأصولية الجهادية على المنطقة ارتياحاً لدى معظمهم بسبب الظروف القاسية والرهيبة التي لاقاها أسلافهم إبان المجازر التي نفذتها السلطنة العثمانية والتي ترعى وريثتها الدولة التركية هذه الميليشيات، خاصة أنّ عملية خطف أبرز مطرانين في شمال البلاد المطران (يوحنا إبراهيم) مطران حلب للسريان الأرثوذكس والمطران (بولس اليازجي) مطران حلب واسكندرونه وتوابعهما للروم الأرثوذكس في ريف حلب عام 2013م كان له وقعاً كبيراً على نفوس سكان المنطقة وخاصة أتباع الطائفة الأرثوذكسية حيث كانا يحظيان باحترام كبير من قبل سكان المنطقة؛ لذا يشعر معظم المسيحيون في سوريا بأنّ وجودهم بات مهدداً؛ وكانت ردة الفعل لبعض المسيحيين تشكيل كتائب مسلحة لحماية الكنائس والأحياء المسيحية لمواجهة هجمات الميليشيات الأصولية الجهادية، وقد استغلت السلطة المركزية هذه المخاوف ودفعت ببعض الموالين لها إلى تشكيل ميليشيات مسيحية منظمة لعل أبرزها تنظيم (أسود الشيروبيم) الذي يتبنى الجهاد العنفي المقدس (مجاهدي الصليب)- بحسب بعض المواقع الإخبارية- كعقيدة عسكرية له للدفاع عن الوجود المسيحي في البلاد، وقد شكّل فيما بعد بالتنسيق مع ميليشيات

---

78 " الحرب الهجينة هي الوصف لنشاطات خفية أو قابلة للإنكار، تدعمها قوات تقليدية أو نووية، ترمي إلى التأثير على السياسة الداخلية للبلدان المستهدفة، وبحسب تعريف (فرانك هوفمان) الحرب الهجينة هي خليط من الوسائل التقليدية وغير النظامية في سبيل تحقيق الأغراض السياسية أو خليط من التكتيكات أو أي خصم يستخدم في آن واحد، خليطا مضبوطا من الأسلحة التقليدية، والتكتيكات غير النظامية، والإرهاب، والسلوك الإجرامي، في الوقت نفسه وفي فضاء المعركة نفسه للحصول على أغراضه السياسية...". أندرو رادن؛ الحرب الهجينة في منطقة البلطيق (التهديدات والاستجابات المحتملة)؛ مركز RAND للأبحاث، كاليفورنيا؛ 2017م.

79 SPUTNIK عربي؛ الكرملين: تحويل "آيا صوفيا" إلى مسجد شأن داخلي تركي؛ تاريخ النشر 2020/7/6م؛

مسيحية أخرى مرتبطة بشكل وثيق مع قيادة المخابرات الجوية تحالف تحت مسمى (تحالف حراس الفجر)[80] الذي كان له مساهمة كبيرة في دعم الجيش النظامي السوري والميليشيات الرديفة له في السيطرة على حمص وحماة وأريافهما، وقد تشكلت كتائب عسكرية مسيحية في مدن أخرى كمدن حلب[81] ومدن إقليم الجزيرة بهدف الدفاع عن الكنائس والمناطق المسيحية؛ وعلى الرغم من وجود مبالغة كبيرة في وصف هذه الميليشيات وتضخيماً إعلامياً لها نظراً للطبيعة المسالمة للمجتمعات المسيحية في سوريا، قد يكون ذلك من منطلق المتاجرة السياسية بالمسيحيين أو إيجاد مناسبة لتحريض المشاعر الجهادية لدى المتطرفين خدمة لأجندات معينة للهيمنة، إلا أنه ليس من المستبعد أن تعمل القيادة الروسية أو جهات محسوبة عليها أو جهات أخرى بشكل غير مباشر على عسكرة المجتمع المسيحي في البلاد بشكلٍ أكثر تنظيماً مما قد يعيد الإشعال التدريجي للأحقاد القديمة نظراً لوجود بنية تحتية أو تجربة معدّة سلفة لهذا الغرض بالتزامن مع وجود العشرات من المثقفين والسياسيين المسيحيين ذوي النزعة الشوفينية- الدينية خارج البلاد ومتبنين لخطاب الكراهية تجاه بعض مجتمعات المنطقة، الأمر الذي ينبئ بمحاولات لخلق أصولية مسيحية بنزعة قومية على غرار الأصولية الإسلامية، وتشهد الحرب الأهلية في لبنان (1975-1989م) على خطورة تصاعد العنف العقائدي المتبادل. أما الاتجاه الثاني فهو الاستفادة من إرث الاتحاد السوفيتي في سياق علاقاته الاستراتيجية مع الحركات اليسارية والقومية العربية، حيث لا يزال الكثيرون يتفاءلون بدور مماثل لروسيا تحت قيادة (فلاديمير بوتين) ويبدو أنّ القيادة الروسية نجحت في الهيمنة على القرار السياسي والعسكري لسلطة البعث بنسبة عالية وحماية السلطة المركزية من السقوط ويندرج دعمها لبعض أتباع الرئيس الراحل معمر القذافي في ليبيا ضد حكومة الوفاق الإخوانية في هذا السياق. على هامش هذا النجاح قامت القيادة الروسية بتشكيل ميليشيات على شكل قوات شبه نظامية خاضعة لها داخل الجيش السوري، نقصد هنا الفيلق الخامس الذي يضم تشكيلة مختلفة من المقاتلين، حيث يضم أفواجاً من جنود نظاميين وعناصر تم تسوية ملفاتهم الأمنية بعد أن كانوا معارضين للنظام، وميليشيات محلية كانت السلطة المركزية قد شكلتها من الموالين لها، بالإضافة إلى عناصر مرتزقة بغرض الكسب المادي. في هذا السياق تراهن القيادة الروسية على المشاعر القومية العربية والعداء الأيديولوجي مع الدول الغربية بسبب ماضيها الاستعماري وتشكيلها أحد المصادر لمعاناة الشعوب العربية. أما بالنسبة للحركات اليسارية والمجالس العسكرية المسيحية القوية المنخرطة في تحالف قوات سوريا الديمقراطية تبدو القيادة الروسية قد فشلت في كسب ثقتها خاصة بعد الاتفاقيات والصفقات التي أبرمتها مع نظام أردوغان، بالإضافة إلى عدم وجود استراتيجية واضحة وثابتة لها في مواجهة الضربات الجوية الإسرائيلية وتغلغل الحرس الثوري في البلاد والتهديدات المستمرة من قبل نظام أردوغان لسكان المنطقة؛

80 تشكل هذا التحالف في 11 أيلول من عام 2015م في فترة احتدام المعارك في ريف دمشق وحمص وحماه، وهو تحالف مسيحي من الميليشيات الموالية للحكومة المركزية وذات علاقة وثيقة بالمخابرات الجوية وتضم ميليشيات أسود الشيروبيم ميليشيات مسيحية أسود الوادي (وادي النصارى في حمص) أسود الحميدية (إشارة إلى حي الحميدية المسيحي في حمص) أسود دويلعة (إشارة إلى حي دويلعة في حمص)؛ للمزيد مراجعة:
أيمن جواد التميمي؛ أسود الشروبيم: ميليشيا مسيحية موالية للأسد؛ 14 كانون الأول/ ديسمبر 2016م؛

81 موقع دنيا الوطن نقلاً عن صحيفة (ديلي تليغراف)؛ مسيحيو سوريا يحملون السلاح للمرة الأولى ضد مقاتلي المعارضة؛ 13-09-2012م؛

راية تنظيم (أسود الشيروبيم)؛ وهي ميليشيات مسيحية تشكلت حوالي عام 2014-2013م أثناء هجوم الميليشيات الأصولية الجهادية على أرياف صيدنايا وذلك للدفاع عن دير شيروبيم في صيدنايا، التي تضم السجن الشهري الذي خرج منه الجولاني وغيره بموجب عفو عام 2011م.

بالتزامن مع ما تم ذكره نجحت استراتيجية الولايات المتحدة التي نأت بنفسها عن الصراع المباشر في البلاد والاكتفاء فقط بالضربات الجوية، وأوكلت مهمة ذلك إلى نظام أردوغان، واستطاعت إظهار نفسها في موقف المحايد في هذا الصراع، بالإضافة إلى عقدها لمذكرة تفاهم عسكرية مع أكبر قوة يسارية عسكرية في المنطقة، وحدات حماية الشعب والمرأة YPG/YPJ، لمحاربة تنظيم داعش الإرهابي، وحالياً يتم تنسيق هذه العلاقة تحت مظلة قوات سوريا الديمقراطية التي تشكل هذه الوحدات قوة فاعلة ومؤثرة فيها. حيث تطرح أمريكا نفسها كقوة موازنة للتهديدات التي قد تبرز من طرف النظام السوري وحلفائه أو من قبل تنظيم داعش الإرهابي وحلفائه.

يبدو أنّ أمريكا تدير بحرفية عالية استراتيجيات الفوضى الخلاقة، خاصة بعد الخسائر المؤثرة التي تكبدتها في العراق، ويذكرنا مواقفها تجاه الصراع الحالي في المنطقة بسياسة "حافة الحرب/ Brink of war" التي انتهجها وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (جون فوستر دالاس)[82] كأسلوب ومنهج للسياسة الخارجية الأمريكية في فترة الخمسينيات حيث يقول في هذا السياق[83] "... إنّ أسلوبي في الحركة هو أن أدفع الحوادث إلى أزمة مستحكمة، ثم أدفع الأزمة المستحكمة إلى حافة الحرب، وحين يقترب الجميع من الحافة المرعبة، ويمسكون أنفاسهم هولاً ورهبة، ويبدؤون على الرغم منهم في التراجع حتى لا تكون النهاية، أحصل أنا على ما أريد وأحقق أغراضي كاملة..."، وعلى الرغم من الفشل النسبي لهذه السياسة في إجبار الاتحاد السوفيتي وحلفائه حول العالم في الخضوع للهيمنة الأمريكية، إلا أنها تبدو مناسبة في التعامل مع الصراعات المحلية لبعض بلدان الشرق الأوسط، خاصة في سياق القدرة على التأثير في حركات الإسلام السياسي. إنّ من أبرز عناصر الفوضى الخلّاقة سياسة "حافة الحرب"، واستراتيجية "الغموض البنّاء" التي اعتمدتها أمريكا في سياساتها الخارجية خاصة تجاه الصين في إطار المفاوضات التي خاضها معها وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (هنري كيسنجر) في فترة السبعينيات، حيث أنّ الغموض البنّاء بشكلٍ عام يمنح مرونة أكبر في الوصول إلى الأهداف من خلال المفاوضات أو الاتفاقيات أو التفاهمات بشكل يسمح للطرف الأقوى فرض تفسيره على الطرف الأضعف. بشكل عام يبدو أن من مصلحة أمريكا وجود تيارات عقائدية، سياسية ودينية، مختلفة في المنطقة بشكل يفسح المجال لها لطرح

---

82 جون فوستر دلاس، ولد في واشنطن عام 1888م وتوفي في عام 1959؛ سياسي أمريكي بارز ومهندس توظيف الإسلامي السياسي في مواجهة الاتحاد السوفيتي والحركات الشيوعية واليسارية حول العالم، وهو شقيق "ألين ويلش دالاس" الذي اشتهر بإدارة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في فترة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي...

83 محمد حسنين هيكل؛ العُقد النفسية التي تحكم الشرق الأوسط؛ الطبعة الأولى 1958م؛ الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر؛ القاهرة؛ ص45.

نفسها كوسيط بين المتخاصمين وكضامن للأمن والاستقرار، كخيار لترسيخ تواجدها في المنطقة وتحقيق استراتيجيتها الخاصة المتعلقة بالوضع الجيوبوليتيكي لسوريا، في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاستخباراتية وحتى الثقافية أيضاً.

أما الدولة التركية فتعدّ أبرز اللاعبين في المراحل المستجدّة من الأزمة السورية، خاصة بعد قدرتها على تحجيم التأثير السعودي في المعارضة السورية، وهيمنة جماعة الإخوان المسلمين على المعارضة التي تبدو أنها معترفة بها من قبل الدول الغربية. وتتمحور الاستراتيجية التركية في تعاملها مع الأزمة السورية حول محورين، الأول يركّز على إنشاء حاضنة عقائدية موالية لها ويبدو أنّ تنظيم الإخوان المسلمين وبعض أصحاب الطموحات السياسية في التيار الصوفي النقشبندي والسلفي الموالي لها قد وفّرا لها هذا الأمر بكل بسهولة حتى أنّ بعض المنشورات التي تحرّض على الجهاد العنفي باستخدام تكتيك الذئاب المنفردة قد استثنى الدول التركية[84] من العمليات الإرهابية لمصلحة خاصة بها لم تفصح عنها على الرغم من اتهام المنشور للدولة التركية بمحاربة الإسلام والمسلمين، أما المحور الثاني فيركّز على تتريك المنطقة وتعزيز الهيمنة التركية عليها، ويتم الاعتماد في ذلك على عدة استراتيجيات لعلَّ أبرزها:

إحياء الميثاق الملّي العثماني الذي اعتمده مجلس المبعوثين العثماني عام 1920م والذي تمّ إلغاؤه فيما بعد من قبل أتاتورك، هذا الميثاق يعتبر كامل شمال وشرق سوريا وإقليم كردستان العراق/ جنوب كردستان بما فيها الموصل وأجزاء من اليونان وأرمينيا مناطق يجب إعادتها إلى سيطرة السلطنة العثمانية. تبدو غاية نظام أردوغان من إثارة موضوع هذا الميثاق هو استنهاض المشاعر القومية- الدينية للأتراك وتبرير أعماله العدوانية تجاه مجتمعات المنطقة، وتندرج استفزازاته تجاه اليونان وأرمينيا واحتلال أجزاء من روج آفا/ شمال سوريا في هذا السياق.

استكمال "مخطط إصلاحات الشرق" الذي اعتمده مؤسس الدولة التركية أتاتورك بشكلٍ رسمي بعد قمعه لثورة الشيخ سعيد الكردية عام 1925م، والذي ركّز على القيام بعمليات تطهير عرقي وتغيير ديمغرافي تجاه الكرد في شمال كردستان على غرار إبادة الأرمن والسريان، حيث تمّ قتل الآلاف وتهجير الملايين عن مناطقهم ونقلهم إلى مناطق في غربي البلاد، وبما أنّ نظام أردوغان يتمسك بالميثاق الملي فإنّ مناطق شمال وشرق سوريا تخضع لمواد هذا المخطط، وهذا ما نجده في عمليات التطهير العرقي والتغيير الديمغرافي وسياسة التتريك التي تشهدها المناطق المحتلة في روج آفا/ شمال سوريا من قبل جيش الاحتلال التركي ومرتزقته؛ وتبدو تهديدات أردوغان لباقي المناطق غير المحتلة تندرج في سياق هذا المخطط الإرهابي.

تمكين الجماعات المتطرفة وعلى رأسها تنظيم داعش الإجرامي من الهجوم على المنطقة لكسر إرادة سكانها ودفعهم للخضوع إلى إرادة الدولة التركية، حيث تعرضت المنطقة لسلسلة هجمات عدوانية منذ عام 2012م إلى عام 2020م استهدفت إرهاب المدنيين والقضاء على روح المقاومة فيهم، بالتزامن مع تمكين جماعة الإخوان المسلمين على الهيمنة على المعارضة السورية وإخضاع فرع القاعدة في سوريا/ جبهة النصرة لهيمنتها.

العمل على أسلمة المجتمعات الخاضعة لهيمنتها ودفعها نحو التطرف، وتعزيز الإسلام السياسي، ويبدو أنّ هذا الأمر تكرار للتجربة الباكستانية بعد استقلالها عن الهند، والتجربة الوهابية في السعودية، وتجربة أنور السادات في أسلمة المجتمع المصري، والحملة الإيمانية للنظام العراقي السابق وغيرها؛ كل هذه التجارب كانت تحظى بدعم غير مباشر من قبل الدول الغربية، كون هذا

[84] أبو محمود المجاهد؛ الذئب المنفرد (الجهاد الفردي)؛ الطبعة الأولى سبتمبر/أيلول 2019م؛ بدون ناشر؛ ص19.

الأمر يسهل استثماره بشكل جيد ويضمن الهيمنة الإمبريالية على المنطقة وهذا ما يتم بالفعل. ويبدو أنّ إقامة قواعد للتدريب العسكري والعقائدي لبعض المتطرفين من الإيغور المعارضين للدولة الصينية في إدلب وتركيا يندرج في هذا السياق على غرار التجربة الباكستانية- الأفغانية ضد السوفييت. إلى جانب التحريض على الكراهية بين مجتمعات المنطقة، سواء داخل الدولة التركية أو خارجها أو في المناطق المحتلة.

طرح نفسها كضامن لمصالح حلفائها في الناتو في مواجهة النفوذين الروسي والإيراني والصيني، حيث أنّ أغلب سياساتها وعملياتها العسكرية في سوريا والعراق تحظى بتأييد غير مباشر وعدم اعتراض من قبل الدول الغربية، حتى أنه تمت ملاحظة استخدام دبابات وطائرات وقذائف وغير ذلك من الأسلحة والعتاد الخاص بالناتو من قبل جيش الاحتلال التركي في عدوانه الدموي على سكان شمال وشرق سوريا. وهي نفس السياسة التي اتبعتها سلطات باكستان بعد انفصالها عن الهند، وقد تسبب هذا الأمر بالتنامي الدراماتيكي للجهاد العنفي، وارتكاب جرائم بحق الآلاف من الأبرياء في سياق توظيف الدين في خدمة أجندات الهيمنة والاحتلال وتعزيز السلطة والسيطرة على الثروات من قبل الأوليغارشيات المحلية هناك؛ ويبدو أنّ تأييد النظام الباكستاني للعدوان الدموي على سكان شمال وشرق سوريا خاصة في صيف عام 2019م[85] يشير إلى حقيقة استثمار الإسلام السياسي في خدمة أجندات الدول الاستعمارية وأذيالها من أنظمة الحكم المحلية في الشرق الأوسط خاصة؛ وما يؤكد على هذا الأمر أيضاً سياسة تحويل الكنيسة السابقة ومتحف (آيا صوفيا) إلى مسجد، والتي ستخدم الدعاية الخاصة لنظام أردوغان والترويج له من خلال زيادة القوة الناعمة الإسلامية التركية (الأردوغانية) إلى جانب طغيان شخصية أردوغان على قادة التنظيمات والمدّعين بالخلافة وسحب البساط من تحتهم، وفي الوقت نفسه يشكل هذا السلوك مقدمة لتنفيذ الشق اليوناني من الميثاق الملي والذي يبدو أنه بدأ بآيا صوفيا وستستغل الأعداد الهائلة من اللاجئين، المسلمين في غالبيتهم، واحتمال إجبار اليونان على إقامة مخيمات لهم في الجانب اليوناني من الحدود التركية- اليونانية في ظل الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعيشها اليونان سيشكل احتلالاً ضمنيا للأراضي اليونانية المدرجة في الميثاق الملي في حال بروز فوضى سياسية أو أمنية في اليونان أو خوض حربٍ مع الدولة التركية خاصة في ظل نزاعها معها بخصوص التنقيب عن الغاز في المياه الإقليمية الفاصلة بين الدولتين ومسألة قبرص. إنّ السياسة التركية ذات النزعة الأصولية الشوفينية التركية وموقعها الاستراتيجي في صفوف حلف الشمال الأطلسي والتجاوزات القانونية والأخلاقية التي تقوم بها أمام المجتمع الدولي بحق الكثير من الشعوب يشير إلى أنَّ الدولة التركية بزعامة نظام أردوغان هي جزء من ائتلاف إمبريالي عالمي منخرط في أجندات الفوضى الخلّاقة، غرضه الاحتلال أو السيطرة على الثروات والمواقع الجيوبوليتيكية والاستراتيجية، وتركيا الآن تلعب دور مشابه لدور باكستان في حرب أفغانستان، وتبدو نشاطات أردوغان مشابهة لنشاطات الرئيس الباكستاني السابق الجنرال (برويز مشرف) أثناء توليه تدريب الجماعات الأفغانية والمتطوعين المجاهدين لقتال السوفييت، حيث كتب في سيرته الذاتية في هذا السياق[86] "لقد ساعدنا في إنشاء المجاهدين، وأشعلنا خيالهم بالحماسة الدينية في الدورات التي عقدناها لهم، وسلحناهم، ودفعنا لهم أموالاً، وأطعمناهم، وأرسلناهم للجهاد ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان" وهذا ما يفعله أردوغان أيضاً في سوريا وليبيا وكردستان.

[85] وكالة أنباء الأناضول AA؛ باكستان تؤكد دعمها لعملية "نبع السلام" التركية؛ تاريخ النشر: 2019/10/11م

[86] مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص203.

لقد أدت سياسة نظام أردوغان إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة، والتسبب بأزمة كارثية على سكانها أنعشت ثقافة الكراهية لدى البعض؛ إنّ هذا الأمر يؤجج الأحقاد ويتسبب بمعاناة المجتمعات المحلية، ويضمن استمرار دوران عجلة العنف المتبادل، من شأن ذلك أن يهدد السلم والأمن الدوليين، وتشير الكارثة التي لحقت بالإيزديين وعموم الشعوب في سوريا والعراق وجنوب كردستان إلى حقيقة هذا الأمر. هذه الأخطار لا تخصّ فقط شعوب المنطقة بل تستهدف أيضاً الدولة التركية، ويبدو أنّ إصرار المؤدلجين التابعين لنظام أردوغان على إحياء الميثاق الملي ورفض اتفاقية لوزان 1923م والعبث بالحدود السياسية بالدول المجاورة لها سواء بالاحتلال المباشر لأجزاء من شمال سوريا والعراق أو بالتهديدات ضد كلاً من أرمينيا واليونان والرغبة باحتلال أجزاء من أراضيهما يشكلّ عنصراً مهماً في الأجندات المتعلقة بالفوضى الخلاقة والتي تعبر كلاً من اتفاقية سايكس بيكو 1916م واتفاقية سيفر 1920م عنها بشكل مباشر وفقاً لقاعدة الهدم وإعادة البناء السياسي للمنطقة؛ علماً أن الكرد والعرب أصبحوا أكثر قوة نسبياً مقارنة بالفترة بين الحربين العالميتين؛ خصوصاً أن احتضان أردوغان لمرتزقة من العرب في أورفا شكل فرصة للتواصل المعنوي والأيديولوجي بين المكونات العربية على جانبي الحدود بعد قطيعة نسبية دامت عشرات السنين، وهناك احتمال كبير لتنظيم النخب العربية داخل الدولة التركية لصفوفهم واحتضان عددٍ من قادة الجماعات الأصولية والتحول إلى قوة مؤثرة داخل الدولة التركية بالتزامن مع تصاعد الأصولية التركية والكردية وإعادة جماعات الدولة العميقة التركية لرصّ صفوفهم، بالإضافة إلى وجود عدد من الدول التي تمتلك مشاكل تاريخية مع الدولة التركية كروسيا وإيران وأرمينيا واليونان ومصر والسعودية وغيرها، الأمر الذي قد يهيئ بيئة سياسية وأمنية مناسبة لانفجار الوضع الداخلي في الدولة التركية لدى أول بادرة صراع مسلح مباشر بين بعض الجماعات وقد تتطور الأوضاع إلى الوضع الذي يفرض فيه واقع جديد يشبه الواقع الذي كان من المفروض أن يسود وفقاً لاتفاقية سيفر واتفاقية سايكس بيكو.

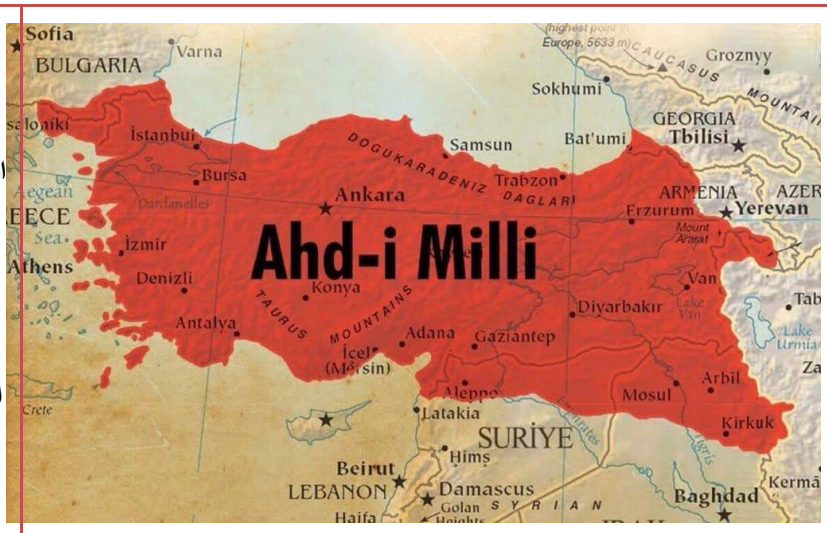

الخارطة في المساحة الحمراء اللون يحوي على المناطق التي تسعى تركيا إلى احتلالها بموجب الميثاق الملّي الصادر عن السلطنة العثمانية.

بالنسبة للنظام السوري، فهو يتزعم حزب البعث العربي الاشتراكي/ السوري ذو النزعة الشوفينية، ولم يستطع هذا النظام تحويل البلاد بما تملكه من مقدرات وموارد إلى وطن ذو هوية

وطنية جامعة لمختلف مكوناتها، وتصفير مشاكلها الخارجية، ونقل البلاد إلى مرحلة متقدمة في المجالات الاقتصادية والثقافية والعلمية، وتشير الأزمة التي تعانيها البلاد إلى السياسات الفاشلة للسلطة المركزية في معالجة مختلف القضايا الداخلية والخارجية ذات الصلة بالأمن الوطني لشعوب الجغرافيا السورية. بعد نجاح النظام السوري في تحجيم تأثير المعارضة جغرافياً وإخفاقه في إعادة السيطرة على كامل البلاد، بدأ يعمل على إعادة إحياء المشاعر القومية العربية في المجتمعات العربية ذات الطبيعة العشائرية مستفيداً من أفكار حزب البعث واستحضار معاناة الفلسطينيين بالتزامن مع تأجيج الكراهية تجاه الكرد في محاولة لتعزيز ثقافة الكراهية بين الكرد والعرب وإحداث شرخٍ في النسيج الاجتماعي للبلاد خاصة في مناطق شمال وشرق سوريا؛ إذ يسعى النظام من وراء ذلك إلى خلق بيئة عقائدية شوفينية موالية له يسهل التحكم بها لتنفيذ خططه الاستخباراتية والعمل بنفس الوقت إلى مدّ نفوذه ليشمل البعثيين العراقيين الذين فقدوا الكثير من قياداتهم.

أما الإدارة الذاتية في شمال وشرق سوريا ترى في نبذ ثقافة الكراهية ومشاركة ممثلين عن جميع المكونات في اتخاذ القرارات والعمل على تطبيق الديمقراطية، ضمانة للسلم والاستقرار المحلي ويشكل بنفس الوقت دفاعاً ذاتياً تجاه مختلف الأخطار والتحديات، وقد استطاعت أن تحقّق نجاحاً نسبياً في هذا السياق. يبدو أن خلق بيئة فكرية مسالمة وتعزيز القيم الأخلاقية يتعارض مع الأجندات الساعية وراء الهيمنة والاحتلال، وتشير الاعتداءات والهجمات التي شنّت على المنطقة في ظل التواجد الروسي والأمريكي إلى استراتيجيات تستهدف منع الإدارة الذاتية من التمدد والتحول إلى كيان قوي نسبياً قد يتطلب إنهاؤه أو إخضاعُه تكاليفاً كبيرة.

إنّ أجندات تلك الدول وعلى رأسها الدولة التركية تخلق بيئات محلية منفتحة على العنف والتطرف، وتعزّز بنفس الوقت الجهل والفقر والتخلف والأمية فيها، وتعطّل مشاريع التنمية وتنسف القيم الأخلاقية الإنسانية، وتعمل للقضاء على إرث ثقافي تاريخي عريق في المنطقة يمتد قديماً لآلاف السنين، وهنا يبدو أن التاريخ السياسي المأساوي للمنطقة يكرر نفسه من جديد.

ثالثاً- هيكلة الجماعات الأصولية المتطرفة.

إنّ تصاعد قوة الجماعات الأصولية المتطرفة وعلى رأسها تنظيم داعش وما تسببت به من كوارث فظيعة تجاه المجتمعات المحلية بالتزامن مع تصاعد مقاومة مجتمعات المنطقة ونجاحها في دحر هذه التنظيمات في الكثير من المناطق، بالإضافة إلى التواجد الاستخباراتي الكثيف لعشرات الدول في المنطقة، يشير إلى وجود أجندات مختلفة ومشتركة في هدفٍ واحد وهو خلق فوضى خلّاقة عبر تأجيج صراع دينيّ وطائفيّ وقوميّ بين مجتمعات المنطقة يسهل من خلالها التسلل وفرض الهيمنة أو الاحتلال، على الأرض والسكان والثروات.

لقد اكتسب الفكر الأصولي المتطرف زخماً كبيراً مع هيمنة نظام أردوغان على مشاعر الكثير من المتدينين بالتزامن مع النشاط المتصاعد لتنظيم داعش الإجرامي وتحوله إلى أقوى كيان إرهابي في المنطقة. على الرغم من الهزيمة الميدانية لتنظيم داعش ومقتل زعيمه، وعدم قدرة نظام أردوغان على الخروج عن مسار إرادة أمريكا وبريطانيا في سياساتها الخارجية والداخلية، إلا أنّ الفكر الأصولي المتطرف لا يزال يستمر بالنمو والتمدد كونه حتى الآن لم يتم معالجة الأسباب والمحرّضات الكامنة وراء تجدده، ومن المتوقع أن يأخذ قوالب وأشكال جديدة لإعادة تنظيمه خاصة بعد تحول كلٍ من القاعدة وداعش إلى أيديولوجيات عنقودية متفجرة يصعب السيطرة عليها أو الوقاية منها باستراتيجيات وسياسيات تقليدية. مع احتمال قوي بعودة التنظيم مجدداً بعد إعادة

رصّ صفوفه حيث تشير بعض المواقع الأمنية[87] التي ترصد نشاطه ارتفاع نسبة عملياته في الساحتين العراقية والسورية إلا أنه لم يستطع الوصول إلى مستوى تنفيذ عمليات ناجحة ضد قوات التحالف الدولي وأغلب ضحايا أعماله من المدنيين والموظفين الحكوميين المحليين، واستطاع السيطرة في الشهر الثامن من عام 2020م على ميناء مهم في شمال شرق موزمبيق ومتاخم لمناطق غنية بحقول الغاز. بشكلٍ عام هناك أربعة احتمالات رئيسية للتطور التنظيمي للفكر الأصولي المتطرف الذي يتبنى الجهاد العنفي في سياقٍ مستقلٍ نسبي من الناحية التنظيمية عن تنظيم داعش المنهزم، وهي:

ظهور تنظيم داعش مجدداً بصبغة تنظيمية جديدة بعد تقييمه الذاتي لأخطائه الاستراتيجية والهزائم التي تعرض لها؛ وتشير محاولات إعادة رص صفوفه في المخيمات وأماكن الاحتجاز والمناطق التي ينشط فيها في باديتي سوريا والعراق إلى حقيقة ذلك.

ظهور تنظيم جديد على أنقاض تنظيم داعش.

ظهور تنظيمات موازية واحتلالها للفراغ الأمني والأيديولوجي الذي تركه تنظيم داعش.

تحول خلايا الذئاب المنفردة إلى القطعان المنفردة كتكتيك جديد للجهاد العنفي.

حيث من المتوقع أن تتخذ هذه التنظيمات تكتيكات واستراتيجيات جديدة من ناحية التجنيد والتسليح والتمويل والتنفيذ، الأمر الذي يفرض احتمالات خطيرة وجدّية على المؤسسات الأمنية المكلفة بمواجهتها.

فقد صعد تنظيم داعش على أنقاض تنظيم القاعدة- فرع العراق بعد مقتل زعيمه أبو مصعب الزرقاوي، فمن المحتمل صعود تنظيم آخر على أنقاضه، وهناك مجموعة من التحديات والمشاكل التي يعاني منها التنظيم يمكن أن تفرز هذا الأمر، وبشكلٍ عام يمكن أن يحدث انشقاق في صفوف التنظيم بين الفرعين السوري والعراقي وخضوع المقاتلين الأجانب إما لسلطة أحدهما أو الخروج عن مناطق سيطرتهما، علماً أنه كان هناك فرعان مستقلان تنظيمياً للتنظيم الأم (القاعدة) وهما تنظيم القاعدة في بلاد الشام وتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. وما يحرّض على هذا الأمر عدم التجانس الثقافي والاثني بين عناصره، بين المقاتلين العرب والأجانب، استناداً إلى ما حدثنا عنه بعض العناصر وقادة الصفين الثاني والثالث من التنظيم المحتجزين لدى قوات سوريا الديمقراطية، حيث أشاروا إلى تفرد القادة العراقيين وبعض المقاتلين الأجانب بالقرارات الرئيسية للتنظيم، وتحول المقاتلين المحليين إلى أتباعٍ مسلوبي الإرادة، الأمر الذي يفسح المجال لتعرضهم للإذلال والاستغلال، وقد أخبرونا أيضاً بأنّ أغلب الذين يتم الزجّ بهم في الصفوف الأمامية لجبهات القتال هم من المقاتلين المحليين وأغلب الضحايا في عمليات القصف الجوي على مواقع التنظيم هي عائلاتهم. أي انهم يدفعون ضريبة كبيرة ومؤلمة جراء خضوعهم لإرادة قادة التنظيم. في حال حدوث انشقاق هناك ثلاثة خيارات أمام المنشقين، إما الانضمام إلى صفوف جبهة النصرة، أو العودة إلى حضن القاعدة بتشكيل تنظيم جديد كفرع جديد له، أو الانطواء على الذات والذوبان في

[87] مركز المعلومات حول الاستخبارات والارهاب على اسم اللواء مئير عميت؛ نظرة على الجهاد العالمي (27 آب/أغسطس- 2 أيلول/سبتمبر 2020)؛ تاريخ النشر 2020/9/6م؛

المجتمعات المحلية على أساس مبدأ (التقية)[88] واتباع سلوكيات خلايا "الذئاب المنفردة" في تنفيذ أعمال انتقامية إجرامية، محددة أو عشوائية.

بحسب مدير الاستخبارات الوطنية الأمريكية السابق (جيمس كلابر) في اجتماع استخباراتي[89] فإنّ تنظيم خراسان قد يمثل تهديداً يعادل في خطورته تهديد داعش. إنّ احتمال عودة المنشقين أو حتى فلول التنظيم الهائمة على وجهها إلى حضن تنظيم القاعدة سيهيئ تربة خصبة لتحول تنظيم (خراسان) من خلية تضم عناصر النخبة من القاعدة إلى كيان يسيطر مادياً وأيديولوجياً على جغرافيا محددة في سوريا أو العراق والأمر نفسه قد يشمل تنظيم (حراس الدين) التابع للقاعدة والمنشق عن جبهة النصرة؛ ومن الممكن أن يتحول هذا الكيان الجديد إلى ملجأ محتمل لجبهة النصرة في حال تقهقرها في المناطق التي تسيطر عليها. كما أنّ مشاعر التهديد الوجودي التي تتحسّسُها العشائر العربية السنية جراء ازدياد النفوذ الإيراني- الشيعي والأجندات الاحتلالية لنظام أردوغان وعدم قدرة الحكومات السورية والعراقية ومجلس الأمن على استتاب الأمن في المنطقة، بالتزامن مع تأثيرات الحرب النفسية الموجهة إليها من قبل أجهزة استخبارات إقليمية مختلفة، كفزّاعة إقامة دولة كردستان الكبرى وخلق روابط لها مع دولة إسرائيل، أو الخضوع مجدداً لسلطة العلويين، أو التعرض لهجمات دموية من قبل الشيعة وغير ذلك، يوّلد دافعاً لتلك العشائر للبحث عن منافذ للخلاص من مستقبل مرعب ومجهول قد ينتظرها، الأمر الذي يجعلها منفتحة على أية قوة تهتم بمخاوفها وتتعاطف معها في معاناتها، لذلك فإنّ قيام القاعدة أو البعثيين العراقيين بغطاء من العشائر السنية العربية بإنشاء إقليم سني في المناطق السنية من سوريا والعراق وعاصمتها الموصل يعتبر أمراً محتمل الحدوث بدرجة كبيرة- علماً أن ذلك تحقق مبدئياً مع دولة داعش إلا أنها فشلت في الاستمرار- خاصة أن التطورات السياسية والعسكرية في المنطقة تفسح المجال لهذا الأمر، ففي شمال وشرق سوريا هناك هامش من الديمقراطية وإدارة ذاتية للمجتمعات العربية المحلية، وبعض المقاتلين والنخب الاجتماعية لا يزالون ذوي نزعة عشائرية وقومية مؤدلجة إخوانياً خاصة الموالون لنظام أردوغان، وكذلك في وسط وشمال العراق العربي هناك انقسام مناطقي مسبق على أساس طائفي وقومي بين الشيعة والسنة والكرد، ولا يزال السكان يعانون من البؤس ومضايقات أمنية من الحشد الشعبي العراقي بالإضافة إلى فقدان الكثيرين منهم لأبنائهم في صفوف التنظيمات الجهادية الأصولية (القاعدة وفروعها). إنّ ما يوفر عناصر تحقيق هذا الاحتمال تعرض السنة لمحن كثيرة ومعاناة فظيعة وإذلال كبير بسبب التنظيمات الأصولية الجهادية التي نشطت في بيئاتهم في سياق صراعهم مع القوى الدولية والمجتمعات المحلية الأخرى بالتزامن مع الحضور المعنوي وأحياناً الدعم المادي من داخل السعودية والإمارات ومصر في دعم المشاعر القومية ذات النزعة الدينية للمجتمعات العربية السنية، في سوريا والعراق وكردستان؛ ويبدو أن كوادر حزب البعث العربي الاشتراكي بشقيه السوري والعراقي سيلعبون دوراً محورياً في تحقيق ذلك. ويبدو أيضاً أنّ المحاولات الروسية المستميتة للهيمنة على شمال وشرق سوريا وترسيخ وجودها العسكري والاستخباراتي فيها إحدى مؤشرات بروز هذا الاحتمال بغرض التواجد بالقرب منه، وتندرج بعضاً من المحاولات الإيرانية في التشبث بهذه المنطقة في هذا السياق. وهناك احتمال بكون العصيانات التي قامت بها بعض الجماعات في دير الزور ضد قوات سوريا الديمقراطية تندرج في هذا السياق.

---

[88] التقية كمصطلح ديني يعني إخفاء معتقد ما خشية التعرض للضرر المادي أو المعنوي. وهو سلوك بشري متبع منذ آلاف السنين كنوع من الحماية الذاتية تجاه الإبادة أو الاضطهاد أو الإذلال أو التمييز السلبي القائم على الهوية العقائدية للفرد...

[89] BBC عربي، نبذة عن جماعة خراسان المرتبطة بالقاعدة؛ تاريخ النشر: 25 أيلول 2014م،

التنامي الدراماتيكي لقوة إحدى التيارات التي يُزعم أنها أنشقت عن التنظيم لخلافات أيديولوجية، ويعد أبرز المرشحين لذلك تيار (الحازميين)[90] الذي أسسه السعودي (أحمد بن عمر الحازمي) في أواسط عام 2014م، لأسباب أيديولوجية ناقدة لقادة التنظيم لعدم تكفيرهم لقادة القاعدة وفروعها استناداً إلى قاعدة فقهية صاغوها وفق وجهة نظرهم " تكفير من لم يكفر من يقبل بالقوانين الوضعية" حتى أنه يكّفر الذين يجهلون بأمور الشريعة مهما كانت صفتهم والرفض المطلق لأية أعذار بمن فيهم عامة الناس وجواز استباحة أموالهم وأعراضهم وحياتهم، بالطبع فإن كل من يقع خارج حدوده العقائدية يعتبراً عدواً مهما كانت صفته، لذلك يوصفون بأنهم أشدّ تطرفاً من تنظيم داعش نفسه. وقد خاضوا صراعاً داخلياً ضد تيار (البنعليين) المتعصب للتنظيم بقيادة البحريني (تركي بن علي) والذي تمّ اغتياله في ظروفٍ غامضة. وبعد اعتقال عدداً من شيوخهم من قبل التنظيم بدأوا بوصف دولة داعش بدولة الكفار الملاعين، وقد تأثر بهذا التيار بعض المقاتلين التونسيين والمغاربة والجزائريين. لدى سؤالنا عناصر التنظيم عن حقيقة هذا التيار بدى أنهم لا يملكون أية معلومات عنهم، هذا الأمر يقودنا إلى احتمالين أما أن التنظيم قد أبتدع فكرة هذا التيار للتخفيف من صورته المتوحشة وجذب الأتباع في سياق آخر، أو أنه بالفعل انشق هذا التيار إلا أنّ التنظيم قام بقمعه قبل أن ينتشر في صفوفه. من ناحية أخرى يجب تدارك وجود أيديولوجية جديدة أكثر وحشية من التنظيم الأم ومن الممكن أن ينمو بشكل فجائي نظراً للواقع البائس الذي يعانيه المتعاطفين مع التنظيم ومرارة الهزيمة التي تلقوها وكراهيتهم للمجتمعات المحلية من منطلق الثأر العقائدي كما أدعى أحد عناصره المحتجزين لدى قسد، إلى جانب المشاعر الدينية المتحرضة بفعل الدعاية الدينية المتطرفة لنظام أردوغان وخلقه للأحقاد تجاه بعض المجتمعات المحلية.

من المحتمل أن يتحول تنظيم داعش المنهار إلى فرع لتنظيم آخر كان سابقاً فرع له وكان قد بايع زعيمه البغدادي، أو انتقال قيادته المركزية إلى إحدى ولاياته المزعومة؛ أي استلام أحد فروع التنظيم حول العالم، في مصر أو اليمن أو ليبيا أو نيجيريا أو السعودية أو تركيا أو أفغانستان أو الشيشان ...إلخ زمام قيادة التنظيم وتولي زعيمه منصب "الخلافة للدولة الإسلامية" وقد يتم اختيار اسماً تنظيمياً آخر شاملاً لجميع الفروع فمثلاً في دراسة لمؤسسة RAND [91] تمت الإشارة إلى احتمال تحول ليبيا إلى "خيار احتياطي" في حال انهيار خلافتها في وادي نهر الفرات ولجوء القيادة المركزية للتنظيم إلى هناك، وهناك أيضاً حوض بحيرة تشاد التي تضم أجزاء من نيجيريا والنيجر وتشاد والكاميرون؛ هنا سيتحول داعش (السوري- العراقي) إلى مصدرٍ للمقاتلين والتمويل للكيان الجديد، وسيتحرك عناصره كخلايا الذئاب المنفردة في تنفيذ الاستراتيجيات الجديدة للقيادة الجديدة. إنّ ما يدعم هذا الاحتمال مصير المقاتلين الأجانب المحتجزين لدى قوات سوريا الديمقراطية ولدى القوات العراقية حيث أن أغلبهم يريدون العودة إلى بلدانهم بحسب ما أكده لنا بعض مقاتلي وقادة الصف الثاني من التنظيم وعوائل التنظيم في مخيمات اللجوء، علماً أن هناك مناشدات ورغبة كبيرة من قبل حكومات المنطقة لعودة هؤلاء إلى بلدانهم والتخلص من عبئهم.

وقد تم ملاحظة تحولات تنظيمية جديدة في بعض المخيمات التي تأوي أتباع التنظيم، فمثلاً في مخيم الهول استغل عناصر التنظيم الظروف الأمنية والمعيشية داخل المخيم لبلورة تكتيكات أمنية جديدة من أجل إعادة رص صفوفه والاستمرار بمنهج القتل لكل من يخالفه، وبالفعل تم تصفية

---

90 للمزيد راجع المقالة التالية:
هاني نسيره؛ الحازميون... غلاة ما بعد «داعش»/ النشأة والخطاب وأهم شيوخهم؛ الناشر موقع جريدة الشرق الأوسط الإلكتروني؛ 25 أيلول 2017م؛ رقم العدد /14181/؛

91 للمزيد راجع: لين إي. دايفس- جيفري مارتيني- كيم كراجين؛ استراتيجية لمكافحة الدولة الإسلامية في العراق والشام (ISIL) كتهديدٍ عبر إقليمي (منظور تحليلي)؛ الناشر مركز RAND للأبحاث؛ 2017م.

العديد من الأشخاص الذين حاولوا التحرر من هيمنته الفكرية، وحافظ على نسبة كبيرة من المؤيدين له؛ الأمر الذي يمهد أرضية جديدة لتطوير الحالة التنظيمية لداعش يمكن أن تشكل خطورة كبيرة في حال خروجها من المخيمات والتواجد في فضاء أوسع من الحدود المكانية الضيقة نسبياً للمخيم، وهذا ما يدفعنا إلى التأكيد على نظرة إدارة مخيم الهول باعتبار داعش " كيان وفكر متحول يستغل الظروف والأحداث.".

بالنسبة لظهور تنظيمات متطرفة موازية، وتنامي قوتها واحتلالها للفراغ الأمني والأيديولوجي الذي تركه تنظيم داعش.

هناك العشرات من التنظيمات الأخرى المحلية التي تتبنى الجهاد العنفي وتسعى إلى إقامة دولة تطبق الشريعة الإسلامية بشكل دوغمائي كعقيدة عسكرية وسياسية، بعضها قديمة نسبياً وبعضها الآخر حديثة العهد ظهرت مع موجة صعود تنظيم داعش؛ يبدو أنّ السمة الأبرز التي اتسم بها الجهاد العنفي للجماعات الأصولية المتطرفة في سنوات العشر الأخيرة هي انصياعها للنزعة القومية التركية بالتزامن مع الانحسار النسبي للنزعة القومية العربية، وبالتالي يمكن الجزم بأنّ المتطرفين منقسمون الآن بين الزعامة التركية بقيادة أردوغان والزعامة العربية بقيادة أيمن الظواهري، فمن خلال رصد الأوضاع الأمنية في تركيا وإدلب نجد تصفيات أو اعتقالات بخصوص الزعماء العرب لهذه التنظيمات وبغضّ النظر عن الزعامات التركية أو الموالية لها وهذا ما أكده لنا (أبو البتار الجبلي)[92] أمير كتيبة سيف الله المسلول التابعة لتنظيم داعش؛ بالإضافة إلى وجود شبه تنظيمات ظهرت واختفت بشكل سريع نسبياً قد تكون مجموعات تتبع لأحد أجهزة الاستخبارات التي تملك أجندات في المنطقة. يمكن تسمية هذه الجماعات بالتنظيمات المتطرفة (الموازية) ويبدو أنّ الاستراتيجية الأمنية التركية في تحويل المقاتلين المتطرفين المؤدلجين إلى مرتزقة تحت الطلب وتفكيك تنظيماتهم وإعادة تدويرهم تخدم الهيمنة التركية على هذه التنظيمات، ويحقق الطموحات التركية في التحول إلى قوة مؤثرة في السياسة الدولية. بشكلٍ عام يمكن طرح أبرز الجماعات التي يمكن أن تنمو وتحتل مكاناً لها في هرم الفكر الأصولي المتطرف المتبني للجهاد العنفي قد تتبنى مُسمياتٍ أخرى في مناطق معينة من سوريا وتركيا والعراق وكردستان؛ وهي تنظيم (حزب الله التركي) و(فرسان الحميدية الجدد) وتنظيم (جيش رجال الطريقة النقشبندية) وتنظيم (الكفن الأبيض) وتنظيم (الرايات البيضاء) وتنظيم (المقاومة الشعبية في المنطقة الشرقية).

تنظيم حزب الله التركي.

للدولة التركية خبرة قديمة في استثمار التنظيمات الإسلامية المتطرفة في خدمة أجنداتها الاستعمارية، وقد تجلى ذلك على سبيل المثال في صعود الشيخ التركي والضابط العثماني السابق (إبراهيم خليل سوغوك أوغلو) الذي تزعّم مؤقتاً حركة المريدين[93] في إقليم عفرين، والذي سعى ظاهرياً إلى محاربة كلٍّ من الفرنسيين والقوى الوطنية في الإقليم على حدٍ سواء، والعمل بشكلٍ سرّي على إلحاق الإقليم بالدولة التركية في فترة الثلاثينيات من العقد المنصرم، ويشير إلى ذلك ضمناً عدوان الدولة التركية على إقليم عفرين واحتلاله عام 2018م بمعاونة المرتزقة من

92 أبو البتار الجبلي الاسم الحقيقي ياسين أكومي، مغربي الجنسية، تولد عام 1989م أمير كتيبة سيف الله المسلول التي كانت تضم من 100-90 عنصراً من جنسيات مختلفة. انضم إلى التنظيم في أواخر الشهر السادس من عام 2013م شارك في المجزرة الثانية التي استهدفت المدنيين الأبرياء في كوباني عام 2015م، ويوصف لدى قوات مكافحة الإرهاب التابعة لقوات سوريا الديمقراطية كـ مجرم خطير ومتشدد؛ أمير عسكري وانغماسي انتحاري.

93 للتعرف على هذه الحركة من المفيد مراجعة كلاً من: رشيد حمو، ثورة جبل الاكراد "حركة المريدين"، (دراسة حول مقاومة الجبل وحركة المريدين ضد الاستعمار الفرنسي 1921-1941م)، الطبعة الأولى 2001.

الجماعات الأصولية الإرهابية، وفرض سياسة تتريك متدينة عليه بعد حوالي تسعين سنة من فشلها. وكذلك فأن المجازر التي ارتكبت باسم الدين بحق المسيحيين في فترة السلطنة العثمانية وبعدها تندرج في هذا السياق.

يعدّ تنظيم حزب الله التركي نسبياً أول حركة تركية مسلحة ذات نزعة دينية متطرفة بعد انهيار السلطنة العثمانية، وقد تم التخطيط لإنشائه بموجب قرار صادر عن مجلس الأمن القومي التركي في عام 1985م وبإشراف القيادة العليا للقوات المسلحة كآلة قتل وإبادة في مناطق جنوب وشرق آسيا الصغرى/ شمال كردستان، وذلك قد يكون لهدفين رئيسيين أولهما أسلمة المجتمعات الكردية المحلية هناك وتحويلهم للفكر الأصولي المتطرف وتكفير الديمقراطية وتعزيز الجهل والتخلف والأمية، وثانيهما استخدامهم في تنفيذ الأعمال القذرة كميليشيات رديفة لجيش الاحتلال التركي في التصفية الوحشية لأعضاء حركة التحرر الكردية (حزب العمال الكردستاني PKK) والمتعاطفين معها من الوطنيين الكرد والترك والعرب والمسيحيين، وقد تلقت الدولة التركية دعماً كبيراً في هذا السياق من حلفائها الموساد والقوى الغربية بسبب دعم PKK للقضية الفلسطينية وحركات التحرر والتحول الديمقراطي العربية.

باشر التنظيم أعماله حوالي عام 1991م وقد تم الإعلان الرسمي عن هذه الجماعة في عام 1992م من قبل زعيمه (حسين فيليوغلو) وطرح مشروعه لإقامة دولة إسلامية في جنوب وشرق تركيا الحالية/ شمال كردستان وتمركز نشاطها في مدينة باطمان الغنية بالنفط. هذه الجماعة لا تملك أفكاراً مستقلة خاصة بها، بل قام زعمائها بالتهجين بين أفكار الثورة الإيرانية- الشيعية وأفكار الإخوان المسلمين، فهو تنظيم مهجن أيديولوجياً. لقد استفاد جهاز المخابرات التركي[94] من هذا التنظيم في إعادة تدوير المقاتلين المتطرفين الذين شاركوا في حرب البلقان بعد نجاح بعض القوى الغربية في الهيمنة على المنطقة هناك وكسر إرادة شعوبها، حيث شكّل واجهة لنشاط هؤلاء المقاتلين وبدعمٍ من حزب الرفاه الإسلامي، فبدءاً من عام 1995م قام جهاز المخابرات التركي بالتنسيق مع أجهزة استخبارات الناتو وعلى رأسها جهاز المخابرات البريطاني بنقل المئات من المقاتلين المتطرفين إلى قواعد تدريب عسكرية في شمال قبرص وغيرها ليتم بعد ذلك إعادة نشرهم في محاربة حزب العمال الكردستاني PKK ودعم جيش الاحتلال التركي في عمليات إبادة الكرد[95] ففي عام 1993م تم حرق حوالي أربعة آلاف قرية كردية وقتل مئات المدنيين والاعتداء على النساء واغتصابهن وتطبيق سياسة صهر على الأطفال بغية تتريكهم، وهناك العشرات من الانتهاكات الأخرى الفظيعة. بعد أن تمكنّ النظام التركي وحلفائه من أسر قائد حركة التحرر الكردية والمفكر الأممي عبد الله أوجلان عام 1999م سعت الدولة التركية وحلفائها لتفكيك هذه الجماعة من خلال التصفية أو الاعتقال أو تشتيتهم عبر نقلهم إلى مناطق أخرى، وقد تم تصفية زعيمهم حسين فيليوغلو عام 2000م في اشتباك مع الأمن التركي في اسطنبول، وقد أعاد التنظيم إعادة ترتيب صفوفه في عام 2012م تحت مسمى آخر وهو (حزب الدعوة الحرة) والذي تم اختصاره باسم حزب الهدى (HUDA PAR) وشارك في الانتخابات البرلمانية لتركيا وفاز بعددٍ من المقاعد. يبدو أن نظام أردوغان قد استدعاهم مجدداً في تنفيذ أجنداته في سوريا وليبيا واليمن والعراق وكردستان وداخل تركيا. لقد كان أبرز أعضاء هذا التنظيم ذوي علاقة وثيقة مع جماعة

---

[94] مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص315.

[95] عبد الله أوجآلان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية/ القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية/ دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكّي الإبادة الثقافية؛ المجلد الخامس؛ الترجمة: زاخو شيار؛ الطبعة الثانية، 2014م؛ بدون ناشر؛ ص379.

أصولية إرهابية تركية تطلق على نفسها اسم (جبهة المغيرين الإسلامية الشرقية الكبرى)[96] وذات علاقة وثيقة بدورها مع الجماعة الإسلامية الباكستانية الخطيرة. خلال مقابلتنا لأحد العناصر الإنغماسية ومسؤول القسم الأمني لفرع داعش في تركيا (سافاش يلدز) الملقب بأبو جهاد التركي، أشار إلى التمدد المتصاعد للفكر الأصولي المتطرف في المدن الكردية في جنوب شرق الدولة التركية/ شمال كردستان وبدعم من نظام أردوغان بالتزامن مع حملات مسعورة لقمع الحريات ومبادئ الديمقراطية وتعزيز الاستبداد، وهناك توجيه عقائدي لهم باعتبار حزب العمال الكردستاني العدو الاستراتيجي الأول لهم ويتم العمل على شيطنة أنصار الديمقراطية والمتعاطفين معها، وأكّد على أنّ الكثيرين من تلك المناطق كانوا يتوجهون بشكل دوري إلى سوريا للجهاد مع جبهة النصرة حيث أشار إلى إلزام بعض المتطرفين للذهاب إلى أحد مناطق التوتر وتقديم الدعم لإحدى التنظيمات الأصولية المتطرفة كواجب جهادي مرة واحدة على الأقل في كل سنة (وكأنه جهاد موسمي)؛ من ناحية أخرى واستناداً على ما أكده لنا (أبو عبيدة التركي) المسؤول الشرعي في الصف الأول من قيادة تنظيم داعش بأنّ المنطقة الأكثر ترشحاً لصعود تنظيم داعش مجدداً هي جنوب شرق تركيا/ شمال كردستان. إنّ ما يؤكد هذا التوقع هو تجنيد الآلاف من الجهادين المرتزقة في دعم الحملة الدموية التي تشنها الدولة التركية على (جبال قنديل) المنطقة الحدودية الفاصلة بين الحدود السياسية لكلٍ من تركيا والعراق وإيران/ مركز جغرافية كردستان، ضد حركة التحرر الكردية.

بشكلٍ عام يمكن أن يظهرَ تنظيم جديد هناك، مهجّن عقائدياً بين أفكار القاعدة والإخوان المسلمين والثورة الإسلامية الشيعية ويسعى وراء إقامة كياناً على غرار دولة تنظيم داعش المزعومة، وتستثمر في محاربة التطلعات القومية العربية والكردية والإيرانية، والديمقراطية التركية؛ وكذلك إنشاء معقل لضرب الحرس الثوري الإيراني بالإضافة إلى محاربة الحركات اليسارية، إنّ هذا الأمر يشير إلى أهمية استراتيجية كبيرة لإنشاء هكذا تنظيم أو كيان، لذلك فإن احتمالات ظهوره تبدو أكيدة وبفترة قريبة نسبياً وتحت مسمى جديد خاصة في ظل وجود حاضنة تابعة لجماعة أنصار الإسلام الإرهابية في إقليم كردستان العراق/ جنوب كردستان، إلا أنها تعتمد في الوقت نفسه على قدرة القوى الساعية وراء الهيمنة والاحتلال في القضاء على منظومة المجتمعات الكردستانية KCK وإخضاع سكان المنطقة. كما أنّ هذا التنظيم سيشكل دعماً كبيراً لاستراتيجية أردوغان المتمثلة باحتلال وتتريك المنطقة وإبادة الكرد واستعباد العرب وإقامة سلطة استبدادية وأمجاد شخصية فيها.

فرسان الحميدية الجدد

في حقيقة الأمر لا يوجد تنظيم بهذا الاسم وتم استخدامه للتعبير المجازي عن بعض مجموعات المرتزقة التي كانت تعمل تحت أمرة السلاطين العثمانيين أثناء حملات الإبادة العرقية للسريان والأرمن ولاحقاً الكرد- في فترة الثمانيات والتسعينيات تمت تسميتهم بـ (حماة القرى) كميليشيات رديفة للجيش التركي في عمليات الإبادة بحق الكرد في شمال كردستان-، ويتم استخدامهم مجدداً من قبل نظام أردوغان في نفس الغرض ولكن ضد الكرد والعرب واستثمارهم في الهيمنة على مناطق مختلفة تشكل مصدر ثروة لنظام أردوغان ويخدم مشروعه في إعادة الهيمنة على الولايات التي كانت خاضعة للسلطنة العثمانية ولكن بصبغة اقتصادية متناسبة مع الحداثة الرأسمالية بشكل

[96] مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص317.

يمكن وصفه بإنشاء كارتل[97] عثماني يتضمن تركيا وقطر وكل بلد تهيمن عليه جماعة الإخوان المسلمين. يعمل نظام أردوغان على إعادة تدوير المقاتلين المتطرفين الخاضعين لهيمنته من خلال إعادة هندسة عقولهم وأفكارهم، وتجريدهم من التزاماتهم التنظيمية والأيديولوجية تجاه تنظيماتهم الأساسية وتحويلهم إلى مرتزقة تحت الطلب يخدمون أجنداته، حيث يستند الخبراء في نظام أردوغان وحلفائه على التحفيز المتطرف للعناصر الرئيسية المؤثرة بدرجة كبيرة في السلوك والمشاعر البشرية، والمتمثلة بالجنس والمال والسطوة وابتداع مسوّغات دينية لها ثمَّ لتشريعها ما من شأنه أن يعدم القيم الأخلاقية لديهم ويحولهم إلى كائنات مخيفة، ويبدو ذلك جلياً من خلال تسليطهم على المجتمعات الضعيفة أو المحتلة واستباحتها.

يسهل تحويل هؤلاء المرتزقة إلى كيان منظم ومتحكم به تحت مسميات مختلفة، بهدف الهيمنة على إرادة الشعوب وإخضاعهم وحتى استعبادهم ونهب ثرواتهم؛ وقد استخدمهم نظام أردوغان بفعالية كبيرة في مهاجمة سكان شمال وشرق سوريا تحت مسمى (الجيش الوطني السوري) وكذلك استثمارهم في الاعتداء على الشعب الليبي، ومن المستبعد تحول هؤلاء إلى كيان مستقل عن إرادة القوى المهيمنة إلا أن هذا لا يمنع تنظيم ذكي مثل القاعدة من التسلل تحت ظل هؤلاء المرتزقة كاستراتيجية انغماسية جديدة في استهداف المجتمعات المسيحية والمجتمعات الإسلامية الراغبة بالتحول إلى الديمقراطية، وحتى تجنيدهم في صفوفها؛ وبالتالي فأنّ هؤلاء المرتزقة يشكلون فرصة ذهبية للفكر الأصولي المتطرف بالتمدد مجدداً والوصول إلى مختلف المناطق حول العالم مجاناً على حساب الدولة التركية وحلفائها واقتناء أسلحة تكتيكية مؤثرة وتقوية الجانب الاستخباراتي للتنظيمات المتبنية لهذا الفكر، متسترة بالجماعات المرتزقة؛ هذا الأمر يشير إلى إطالة عمر ثقافة الكراهية لعشرات سنين أخرى.

من ناحية أخرى يبدو أن تجنيد المرتزقة أصبح من العقائد العسكرية المفضّلة للكثير من الدول وعلى رأسها الدولة التركية وروسيا، ومن المتوقع أن تسبب تغييرات جذرية في شكل وطبيعة الصراع الدولي؛ والمرتزقة كما هو معروف لا يمتلكون أهدافاً أيديولوجية ومشاريع سياسية بل همّهم الأول المال والغنائم، وسيشكل ذلك مهنة قد تجذب عشرات الآلاف من الأشخاص الذين ينتمون إلى بيئات تعاني من أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية، وسيؤدي ابتداع المسوّغات والتأويلات الدينية لها إلى تطور الفكر الأصولي المتطرف بشكل أخطر من ذي قبل؛ الأمر الذي يهدد بهيمنة قانون الغاب على المجتمعات البشرية وارتكاب المزيد من المجازر والانتهاكات الفظيعة لحقوق الإنسان مما يعزز الانحراف نحو التوحش بشكل خطير على مستوى العالم، وبالتالي خلق بيئات منفتحة على العنف والكراهية والرذيلة، وتشكُّل أرضية جديدة يمكن أن تحتضن كياناً متطرفاً أخطر من تنظيم داعش ويمتلك أيديولوجية معدلة بما يتناسب مع المستوى الفكري لتلك البيئات. هذا الأمر لا يحتاج إلى سنوات ويمكن أن يظهر في أي لحظة، كل ما في الأمر هناك حاجة لشخصيات طموحة ومريضة نفسياً تملك كاريزما قيادية قادرة على جذب الأتباع والتحول إلى أدوات رخيصة لتنفيذ مشاريع ثمينة للقوى الكبرى.

عسكرة الطريقة النقشبندية

[97] كارتيل/ Cartel؛ نوع من أنواع الاحتكار له أثره في السياسة، ويعد من أبرز سمات عصر العولمة، والكارتيل مجموعة من المؤسسات والمشروعات الاقتصادية التي تتحد مع بعضها البعض بعقد لمنع تنافسها في ميادين نشاطها وتخصيص مناطق نفوذ لكل شركة من الشركات ضمن الكارتيل... د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي؛ الموسوعة الاقتصادية والاجتماعية (عربي- انجليزي)؛ الناشر: كتب عربية؛ بلا طبعة وتاريخ ناشر.

تنتهج الصوفية بشكل عام منهج لا عنفي أو الجهاد اللا عنفي الذي يرتكز على المفاهيم الروحانية في الدين ويعتبرها المفكر عبد الله أوجالان[98] "تنظيم إسلامي مجتمعي قائم في وجه الإسلام السلطوي وشكلاً من أشكال التضامن الشعبي" ويرى بأنها مُعبّرة "عن الإسلام المجتمعي الذي لا يتحد مع الدولة، ولا يستسيغ السلطة، بل يتطلع إلى العيش بالضمير والحسّ والإدراك الديني الفردي...". من خلال رصد مسيرة تطور الفكر الصوفي نجد تعرض الكثير من رموزها للاضطهاد على مرّ التاريخ لعل أبرزهم أبو منصور الحلاج؛ يبدو أنّ أتباعها قديماً اختاروا مساراً عقائدياً آخر في خضم الصراعات المذهبية بين الفِرَق الإسلامية، السُنّة والشيعة والخوارج، ويعتقد بأنهم يعتمدون شخصية أول الخلفاء الراشدين (أبو بكر الصديق) كمرجعية سياسية وعقائدية لهم. لقد انتشرت الصوفية في معظم المناطق التي اعتنقت الديانة الإسلامية وتفرعت إلى مذاهب عديدة اصطلح تسميتها بالطرق الصوفية، ولكل طريقة شيخها المؤسس، كالقادرية والنقشبندية واليافعية والبكداشية... إلخ؛ ومن المحتمل أن يكون سبب انتشارها السريع بين المجتمعات غير العربية هي مرونة الصوفية في استيعاب المعتقدات الدينية التي كان يؤمنون بها قبل اعتناقهم الإسلام والحفاظ نوعاً ما على هويتهم الإثنية، كنزعة مقاومة تجاه عمليات الصهر؛ وقد تعرضت الصوفية لهجوم أيديولوجي عنيف من قبل الحركة الوهابية- السعودية التي قامت بتكفيرها، وكذلك سعت السلطنة العثمانية في سبيل تحويلها إلى مصدر لتجنيد المقاتلين وإيقاف الثورات بموجب فتاوي شرعية لصالح السلطان عبر التغلغل في حلقاتها وتمكين الموالين له في بلوغ مكانة عالية داخل الجماعات الصوفية بغرض تسييسها وعسكرتها.

لقد تطور الفكر الجهادي لدى الصوفية من اللا عنف إلى العنف في آخر مئة سنة من عمر الاستعمار العثماني[99] الذي ركّز على الإسلام السني كاستراتيجية لتجنيد المقاتلين لغزوات السلطنة، وتحول العديد من شيوخها إلى إقطاعيين. في السنوات الأخيرة من عمر السلطنة العثمانية وبعد انهيارها وفي سياق تنامي الفكر الجهادي المتطرف في العالم الإسلامي وتعرضه لهيمنة القوى الاستعمارية، تحول البعض من كبار شيوخهم الذين كانوا بمثابة زعماء روحيين ودنيويين على أتباعهم إلى قادة عسكريين على المناطق التي يتواجدون فيها، وقادوا معارك كثيرة ضد القوى التي سعت لتهميشهم أو إقصائهم أو فرض عقيدة جديدة على بلدانهم؛ أو رغبة منهم في إقامة كيانٍ خاصٍ بقوميتهم وطريقتهم؛ وتم خوض عشرات المعارك ضد القوى الاستعمارية والتي توصف في الأدبيات الوطنية لبعض البلدان بالثورات، لقد كانت ثورات ذات نزعة دينية- قومية؛ كثورة الشيخ عبيد الله النهري في شرق كردستان وثورة الشيخ سعيد بيران في شمال كردستان وثورة البارزانيين في جنوب كردستان، وثورة الشيخ شامل في داغستان والشيشان، وثورة الأمير عبد القادر الجزائري، وثورة الشيخ عمر المختار في ليبيا وغيرهم؛

مع التنامي الدراماتيكي للإسلام السياسي في القرن العشرين، ونجاح القوى الاستعمارية في صياغة استراتيجيات للتأثير فيها والتحكم بها، سعت أنظمة الحكم الاستبدادية المحلية إلى محاكاة الاستراتيجيات الإمبريالية في الهيمنة من خلال استغلال الطرق الصوفية وإفراغها من محتواها الحقيقي في خدمة تعزيز السلطة المركزية وقوقعة المجتمع في قالب ديني- قومي، دوغمائي ومتناقض مع مبادئ الديمقراطية، وهذا ما تمّ في الدولة التركية التي صعد فيها التيار الصوفي

---

98 عبد الله أوجالان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية/ القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية (دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكّي الإبادة الثقافية)؛ المجلد الخامس؛ الترجمة: زاخو شيار؛ الطبعة الثانية 2014م؛ بدون ناشر؛ ص108.

99 توما بوا؛ الكُرد؛ ترجمة: صلاح عرفان؛ الناشر مركز الدراسات الكردية (كوردولوجي)؛ 2010م؛ السليمانية/ إقليم كوردستان؛ ص120.

المتبني للإسلام السياسي إلى مراكز متقدمة في الهيمنة على المجتمعات هناك، وتشكل حركة الخدمة بقيادة فتح الله غولان وخصمها حزب العدالة والتنمية بقيادة أردوغان ذروة هذا الصعود للطريقة النقشبندية، أما في العراق وبعد فشل النظام البعثي هناك في قيادة البلاد نحو الازدهار والسلام، تحول إلى أسلمة المجتمعات المحلية وقاد في بداية التسعينات إثر هزيمته في حرب الخليج الثانية عام 1991م حملة لتطرّف المجتمعات المحلية تحت مسمى الحملة الإيمانية بغية إحكام قبضته على البلاد، ويشكل تنظيم (جيش رجال الطريقة النقشبندية) خلاصة هذه الحملة والذي أعلن عن تأسيسه عقب إعدام الرئيس العراقي السابق صدام حسين عام 2006م، وتشير الكثير من المراجع إلى تزعم نائب الرئيس العراقي السابق عزة الدوري لهذا التنظيم؛ وفي سوريا ومن أجل القضاء على أيديولوجية الإخوان المسلمين وإيقاف تمدد الشيوعية والحركات اليسارية الأخرى والمشاعر القومية للكرد تمّ دعم وفسح المجال للطرق الصوفية النقشبندية المحلية بممارسة نشاطاتها الدعوية وبعيداً عن الإسلام السياسي حيث تركز نشاطهم في دمشق وحلب ودير الزور وإقليم الجزيرة، وتبدو هذه السياسية محاكاة للسياسة الأمنية الروسية في الشيشان وداغستان. وكذلك تستثمر جماعة الإخوان المسلمين بعض الأفكار الصوفية في أيديولوجيتها.

لقد كان لهذه السياسات دوراً في الصعود الدراماتيكي لتنظيم داعش الإرهابي، حيث تشير الكثير من الدراسات إلى تحالفه مع التنظيمات النقشبندية المتبنية للإسلام السياسي كجيش رجال الطريقة النقشبندية في العراق ودور ذلك في سيطرة التنظيم على الموصل ومعظم مناطق السنة، إلى جانب دور حزب العدالة والتنمية وجماعة الإخوان المسلمين في هيمنته على مناطق شاسعة من شرق الفرات وارتكاب إبادة عرقية بحق الكرد وبحق الإيزديين في سنجار/شنكال التابعة للموصل، حتى أن أتباع الطرق الصوفية المحلية لم يسلموا من شرهم وتم تدمير العشرات من رموزهم الدينية.

إنّ عسكرة الطريقة النقشبندية وأدلجتها بتبنيها للإسلام السياسي ذو النزعة القومية الشوفينية من قبل حزب البعث العربي الاشتراكي والتيار الإسلامي السياسي في تركيا أدى إلى خلق بيئات بائسة وعنيفة، والتسبب بمعاناة وانتهاكات للكثير من المجتمعات والفشل في تحريرها من بؤسها، وفتح منافذ لدخول القوى الإمبريالية إلى المنطقة والهيمنة عليها، وهذا لسان حال المنطقة في ظل الظروف القاسية التي تعيشها بالتزامن مع تنامي المشاعر المؤيدة للجهاد العنفي لدى الكثير من أتباع هذه الطريقة، حيث يحظى بعض زعمائهم برعاية نظام أردوغان. وفي العراق يطرحون أنفسهم كبديل وطني عن تنظيم القاعدة في العراق[100] وأتباعه لاستراتيجية عدم استهداف المدنيين بشكل مباشر من خلال التفاهم السري مع القاعدة على تنفيذ العمليات التي توقع ضحايا مدنيين، إلى جانب إثارة المشاعر القومية للسنة عبر خلق مخاوف من هيمنة شيعية ومن دولة كردية الأمر الذي يمنحها مصداقية في أعين السكان المقهورين من العرب السنة.

إنّ الظروف الرهيبة التي مرت بها مجتمعات المنطقة بسبب تنظيم داعش الإرهابي والميليشيات المسلحة التابعة لجماعة الإخوان المسلمين وعمليات الإبادة العرقية والثقافية التي ينتهجها نظام أردوغان ضد الكرد والعرب والمسيحيين؛ وقدرة المجتمعات على امتصاص ومقاومة هذه الهجمات بعد تكبّدها خسائر كبيرة والكثير من الضحايا؛ يشير إلى فشل النموذج الحالي لهذه التنظيمات في تحقيق أجندات الهيمنة والاحتلال؛ لذلك يبدو تشكيل تنظيم جهادي هجين جديد من الأفكار السلفية والإخوانية والنقشبندية من الأمور الاستراتيجية التي قد تخدم هذه الأجندات، لذلك

[100] مايكل نايتس؛ حركة "جيش رجال الطريقة النقشبندية" والتمرد القادم في العراق؛ معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى.؛22 تموز/يوليو 2011

ليس من المستبعد تشكيل تنظيم جديد على غرار تنظيم حماس الفلسطيني، وتبدو كردستان في محور اهتمامات هذه الاستراتيجية ، هذا الأمر قد يفسح المجال لتحقيق أجندات نظام أردوغان في إحياء الميثاق الملي العثماني واكمال مخطط إصلاحات الشرق الخاص بالإبادة الثقافية بحق الكرد والبدء بعمليات إبادة جماعية ضد العرب، وتبدو العمليات العسكرية الضخمة للجيش التركي وبدعم من الناتو في جبال قنديل تندرج في هذا السياق.

تنظيم الكفن الأبيض

ظهر كتنظيم معارض لتنظيم داعش وكانت ذروة نشاطه خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً في عام 2014م في منطقة دير الزور، ولا توجد معلومات دقيقة عنه، ولدى متابعة أخباره نجده أشبه ما يكون بخلايا استخبارية منظمة ومحترفة؛ تتركز تكتيكاته القتالية والاستخباراتية على العمل السرّي واقتناص عناصر التنظيم بشكل منظم من خلال تكليف مجموعات بمهام مستقلة في المراقبة والرصد ثم المداهمة، ثم الخطف أو التصفية باستخدام الأسلحة الكاتمة للصوت والمفخخات، إلى جانب الخوض في حربٍ نفسية ضد التنظيم والترويج لنفسه في وسائل التواصل الاجتماعي. وتبين أيضاً أنه لا يفضل خوض القتال في جبهات الدفاع عن الأرض أو موقع بل تنفذ عمليات كر وفر، كما أنها لا تملك عناصر انتحارية على غرار تنظيم داعش.

لا تُعرف الجهة الدولية أو الإقليمية التي تدعم هذا التنظيم، ومن خلال متابعتنا لبعض المواقع الخبرية نجد تضخيماً لهذا التنظيم، فمثلاً صحيفة ديلي ميل البريطانية روجت له إعلامياً بأنه نشر الرعب في صفوف داعش، بينما نجد مديحاً غير مباشر له في بعض المواقع الإخبارية المتعاطفة مع النظام السوري وإيران. بشكلٍ عام نجد من خلال شعاره ثلاثة محاور أيديولوجية وهي لواء المجاهد عمر المختار (فصيل انفصل عن تنظيم أحرار الشام عام 2014) وقد يملك مؤشرات ذات صلة بالمجاهدين العرب في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب؛ وجماعة جبهة الأصالة والتنمية (فصيل يدعو لإقامة دولة إسلامية في سوريا) تشكل أواخر عام 2012م وتضم مقاتلين موالين لأردوغان ينتمون إلى بعض العشائر العربية في الرقة ودير الزور[101] ويرتكز ممثليهم في مدينة أورفا، وتملك مؤشرات قوية على علاقتها الوثيقة مع تنظيم الإخوان المسلمين ونظام أردوغان؛ ولواء القادسية الإسلامية (فصيل يميل إلى مفهوم الخلافة) ويملك مؤشرات على معاداة إيران والشيعة؛ قد تكون الغاية من تصميم هذا الشعار التضليل الإعلامي وإخفاء حقيقة هويته أو قد يكون بالفعل تنظيم هجين من تيارات الجهاد العنفي المعارضة أو المنافسة للقاعدة؛ أو مجموعات من قوات النخبة التابعة لأحد أجهزة الاستخبارات (الأمريكية أو البريطانية أو الإيرانية أو التركية) وقد انقطعت أخبار هذا التنظيم بعد إعلان داعش عن اعتقال وصلب أحد قادته بحسب ادعائها ويدعى (أبو علي البوكمالي).

[101] إيلي حنا؛ «جيش سوريا الجديد»: طبخة أميركية بمكوّنات إخوانية؛ موقع الأخبار (اللبناني)؛ تاريخ النشر 9 تشرين الثاني 2015م؛

	راية وشعار تنظيم الكفن الأبيض

إنّ ظهور واختفاء مثل هذه التنظيمات الموازية، أمر وارد الحدوث في أي مرحلة، على الرغم من ذلك فإنه يتطلب تدريب عالي الكفاءة وتخطيط مسبق وأماكن تمركز وحاضنة شعبية؛ علماً أن منطقة دير الزور خاضعة لرقابة استخباراتية شديدة من قبل إيران والنظام السوري، وأمريكا وحلفائها، وتركيا، وداعش؛ لذا من المحتمل أن يكون معقل قيادة هؤلاء خارج حدود سلطة التنظيم ويتم إرسال المجموعات الإنغماسية بعد عمليات رصد ومتابعة دقيقة، وهذا الأمر لا طاقة لتنظيمات محلية القيام بها خاصة في مجال التجسس الإلكتروني وتنفيذ العمليات بحرفية عالية؛

على الرغم من ذلك يشكل هذا التنظيم تجربة أمنية مهمة للقائمين على تنظيمها من أجهزة الاستخبارات القوية، ويشكل فرصة للاستفادة منها في تشكيل تنظيمات أخرى قد تنمو وتتحول إلى كيانٍ قائمٍ بذاته، خاصة في ظل الانقسامات التي تعانيها التنظيمات الجهادية في سوريا والعراق، وتبدو المجموعات المرتزقة التي تخوض معارك تحت إشراف أجهزة الاستخبارات واكتسبت خبرات قتالية مهمة من أبرز العناصر الأساسية في تشكيل مثل هذه التنظيمات في المستقبل القريب.

تنظيم الرايات البيضاء

وهو على غرار تنظيم الكفن الأبيض لا توجد معلومات دقيقة عنه، ويعتقد أنه يتم إدارته من قبل أحد أجهزة الاستخبارات القوية، ومن خلال رصد الأخبار المتعلقة به نجده معارضاً للشيعة ويضم مقاتلين سنة من العرب والكرد، ولم يتم رصد أي اشتباك دموي بينه وبين داعش أو قوات حكومة إقليم كردستان العراق، وهناك غموض في اتجاههم الأيديولوجي فرايته عبارة عن صورة رأس أسد على خلفية بيضاء وهو ما يتعارض مع باقي أعلام التنظيمات الجهادية الأخرى، وقد ظهر مع سيطرة قوات السلطة المركزية العراقية على مدينة كركوك وانتزاعها من حكومة إقليم كردستان العراق بالتزامن مع انحسار قبضة تنظيم داعش على الكثير من المناطق؛ هناك من يطرحه كبديل عن داعش بعد هزيمته ويتم تضخيم صورته على هذا الأساس، علماً أنه لم يُحدث أية تغييرات مهمة على الخارطة السياسية والعسكرية في شمال العراق، وقد يبدو كتنظيم جديد في مواجهة تمدد الحشد الشعبي العراقي أو مظلة جديدة لاحتضان المقاتلين المحليين السابقين في

داعش؛ يتمركز هذا التنظيم في المواقع الجبلية بين كركوك وديالى شرقي بغداد المتاخمة للمناطق النفطية، وتتهم بعض القوى الشيعية حكومة أربيل بدعم هذا التنظيم[102]. من المحتمل أن يشكل هذا التنظيم أرضية تمهد لتشكيل تنظيم أصولي جديد من المتطرفين العرب والكرد بدافع عقائدي يتمحور حول مواجهة كلاً من التمدد الشيعي والفكر الديمقراطي، وتشكل مناطق تواجده سداً لمنع تمدد الحشد الشعبي باتجاه إقليم كردستان العراق/جنوب كردستان، وقد يساهم ببداية الشروع في إنشاء الإقليم السني العربي- الكردي، من ناحية أخرى من المحتمل أن يساهم هذا التنظيم أو أي تنظيم آخر ينسلخ عنه في تعطيل مساعي التنظيم الدولي للإخوان المسلمين بقيادة أردوغان في الهيمنة على مناطق يتواجد فيها السلفيون المتطرفون أو تخضع لهيمنة أمريكا أو بريطانيا. خصوصاً بوجود حاضنة للإخوان في الإقليم والمتمثلة بحزب (الاتحاد الإسلامي الكردستاني)[103] الذي تأسس عام 1994م ويعد امتداداً للرابطة الإسلامية الكردية التي أسسها الإخوان المسلمون في عام 1988م تحت ستار الأعمال الإغاثية، وهو يهتم بالنشاط الدعوي والتربوي والاقتصادي وفقاً لأيديولوجيته المتأثرة بالإخوانية ويرفع شعار "الوسطية والاعتدال الديني"، كعوامل لجذب الأنصار وطمأنة القوى السياسية المحلية، وهو لا يملك جناحاً عسكرياً إلا أنه يملك القدرة على حشد مقاتلين من أنصاره بمجرد إصدار فتوى جهادية واستدعاء قادة جهاديين يعملون كمرتزقة في ليبيا وسوريا وغيرها لتولي القيادة في حال حدثت تطورات تنظيمية مفاجئة في قيادته.

هنالك الكثير من المحرّضات التي يمكن على أساسها لتنظيم الرايات البيضاء أن يتطور وينمو إلى كيانٍ قوي نظراً لوجود بيئة فكرية مهتمة بالأمور الدينية أكثر من اهتمامها بالعلوم الإنسانية والتجريبية والطبيعية، بالإضافة إلى الأهمية الاستراتيجية الكبيرة لبروز مثل هذا التنظيم في خضم التحولات المفاجئة في الساحة السياسية والعسكرية العراقية والرغبة في استنزاف طاقة التنظيمات الأصولية بجذب المقاتلين أو إحداث شرخ بينهم.

راية تنظيم الرايات البيضاء

شعار الاتحاد الإسلامي الكردستاني

تنظيم المقاومة الشعبية في المنطقة الشرقية.

[102] وكالة النبأ للأخبار؛ السامرائي: تنظيم الرايات البيض يدار من اربيل لاستنساخ تجربة ثوار العشائر؛ تاريخ النشر: 13 كانون الأول 2017م؛

[103] عثمان علي؛ حوار الإسلام والعلمانية في كردستان/ دراسة في تلاقي الإسلام والعلمانية؛ الطبعة الأولى 2015م؛ بلا ناشر؛ ص298.

بعد أشهرٍ من تحرير الرقة من قبضة تنظيم داعش الإرهابي من قبل قوات سوريا الديمقراطية وفي بداية عام 2018م تم الإعلان عن هذا التنظيم؛ وقد أصدر مجموعة من مقاطع الفيديو شرح فيها قادته أهدافهم المتمحورة حول محاربة القوات الأمريكية وقوات سوريا الديمقراطية وإخراجهم من سوريا. أيديولوجية التنظيم غير واضحة المعالم مما يشير إلى كونه عبارة عن خلايا نائمة تابعة لجهاز مخابرات النظام السوري وحلفائه إيران وروسيا، حيث لم يكن له دور يذكر في مقاومة بطش تنظيم داعش بسكان المنطقة أو محاربة المحتل التركي ومرتزقته أو محاربة استبداد النظام السوري وحلفائه؛ ويحاول من خلال نشراته التصبغ بالصبغة الوطنية العربية من خلال شعارات ترفض تقسيم البلاد والتركيز على استهداف القوات الأمريكية ودون أن يكون هناك تنديداً بتهديدات داعش وانتهاكاته، ففي أحد مقاطع الفيديو نادى أحد أعضاءه بشعار "الموت لأمريكا"[104] وهو ما يذكرنا بشعارات المقاتلين الموالين أو المنضوين في صفوف الحرس الثوري الإيراني. ويمتلك شعاره الكثير من الدلالات التي تفضحه فالقبضة التي تحمل البندقية هو رمز دارج في رايات الميليشيات التابعة للحرس الثوري الإيراني، وأداة القنص واللون الأسود تشير إلى قيادته من غرفة عمليات استخباراتية، وادراج علم النظام السوري والعبارة الثورية "المقاومة الشعبية" تندرج في أدبيات حزب البعث العربي الاشتراكي والثورة الإسلامية في إيران التي انحرفا عنها كثيراً؛ وبحسب بعض المصادر المحلية فإنّ غرفة قيادة هذه المجموعة تتمركز في منطقة الرصافة- جنوب غرب الرقة- الواقعة تحت سيطرة القوات الروسية والإيرانية وقوات السلطة المركزية؛ ولدى متابعة ورصد الصفحات الإخبارية التي تتناول العمليات الإرهابية ضد قوات سوريا الديمقراطية والنخب السياسية الوطنية في شرقي الفرات نجد أنَّ أغلبها تابعة لإيران أو للنظام بدرجة أكبر من تلك الموالية للنظام التركي حتى أنها لا تغفل الحوادث العرضية والتحريض ضد الإدارة الذاتية.

إنّ هذا التنظيم يعد محاولة استخباراتية وبحرفية عالية في تهجين الأفكار الشوفينية البعثية بشقه السوري مع الأفكار الأصولية المتطرفة، بغرض تشكيل تنظيم موازي على غرار تنظيم داعش، يتولى استقطاب الشوفينيين والأصوليين من المكون العربي وتسخيرهم في محاربة الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا وإفشال التعايش السلمي بين مكوناتها تحت غطاء محاربة القوات الأمريكية والعمل على إعادة البلاد إلى قبضة نظام الحكم الاستبدادي؛ وتكمن الأهمية الاستراتيجية لإنشاء مثل هذا التنظيم في السعي إلى إعادة تدوير المقاتلين المتطرفين بشكل يخدم الأجندات الإيرانية أو الروسية في المنطقة ويضمن الهيمنة على المجتمعات العربية العريقة فيها، إلا أنّ هذا من شأنه أن يضمن استمرار دوامة العنف والتطرف وإيقاف عجلة التنمية والازدهار وإفشال التحول إلى الديمقراطية، أي أن هناك مصلحة لاستمرار معاناة وبؤس المجتمعات المحلية خاصة العربية والتلاعب بعواطفهم خدمة لأجندات سلطوية. يبدو أن هذا التنظيم لم يستطع حشد حاضنة شعبية متعاطفة معه خارج الحاضنة المتعصبة للأفكار البعثية والداعشية، يشير إلى ذلك استمرار تأييد المجتمعات العربية المحلية للإدارة الذاتية ونجاح قسد في اعتقال أو تحييد العشرات منهم.

على الرغم من ذلك يمكن لهذا التنظيم أن ينمو وتتضخم قوته العقائدية ويتحول إلى تنظيم هجين أيديولوجياً أكثر تطوراً من ذي قبل من خلال التهجين بين الأفكار البعثية والداعشية والثورة الإيرانية، بالاستناد على عدة عوامل رئيسية أبرزها وجود حاضنة شعبية منغلقة كما ذكرنا سابقاً ووجود الكثير من العائلات التي فقدت أبنائها في سياق القصف الجوي على مواقع التنظيم الذي كان يتمترس في المناطق المدنية، وثانياً إمكانية انضمام المرتزقة التابعين لروسيا والميليشيات الإيرانية إلى صفوفها بتوجيه من مشغليهم، بالإضافة إلى وجود دعم استخباراتي قوي له من قبل النظام

[104] يمكن مشاهدة مقطع الفيديو على موقع اليوتيوب؛ الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=ZfCnEYH1MBU&feature=youtu.be

وإيران وروسيا. بشكلٍ عام ستحدد طبيعة التنظيم المتشكل بناءً على مستقبل العلاقة بين إيران وروسيا وطبيعة تنافسهما على النفوذ في سوريا، وعلى قدرة مؤسسات الإدارة الذاتية المدنية والعسكرية والسياسية المعنية بالأمن الوطني على منع تمدده وتحييده.

شعار تنظيم المقاومة الشعبية في المنطقة الشرقية.	شعار الحرس الثوري الإيراني.	شعار حزب الله اللبناني.

استناداً إلى ما سبق يمكن استشعار الاستراتيجيات الأمنية السرية للقوى الدولية أو الإقليمية أو المحلية المهيمنة من خلال تعطيل منظومة الحياة الاجتماعية لسكان المنطقة وتفتيت المجتمعات وتشتيتها عبر استبدال ثقافتها بأيديولوجيات عُنفيّة تتبنى ثقافة الكراهية تجاه الآخر (العدو المفترض)، ويبدو أنّ انقسام البلدان في البداية لا يتم جغرافياً وإنما عقائدياً.

نلاحظ أن مظاهر المرحلة المقبلة لما بعد الهزيمة الميدانية لتنظيم داعش، بروز وتنامي محاولات لتهجين أفكاراً عقائدية بغية إنشاء تنظيمات متطرفة جديدة تضمن استمرار عجلة العنف والدمار، وأبرز هذه العقائد السلفية والإخوانية والخُمينية والبعثية والنقشبندية التركية، فمثلاً نتج تنظيم جيش رجال الطريقة النقشبندية من خلال التهجين بين الأفكار البعثية والنقشبندية والسلفية؛ وظهرت داعش من خلال التهجين بين الأفكار البعثية والسلفية الجهادية، ونتج حزب الله التركي من خلال التهجين بين الأفكار الإخوانية والسلفية والخمينية، بينما نتج تنظيم المقاومة الشعبية في المنطقة الشرقية عبر التهجين بين الأفكار البعثية والخُمينية والأصولية الجهادية، وهناك العشرات من الحالات الأخرى أو محتملة الظهور.

تحول خلايا الذئاب المنفردة إلى القطعان المنفردة كتكتيك جديد للجهاد العنفي. (الثأر العقائدي).

يعدُّ مصطلح (الذئاب المنفردة) مصطلحاً حديثاً نسبياً، تتناوله بشكلٍ خاص الدراسات والتقارير ذات الصفة الأمنية، وقد شهد اهتماماً ملحوظاً في بداية القرن الحادي والعشرين خاصة بعد هجمات 11 أيلول 2001م، وتفتقر الدراسات والتحليلات ذات الطابع الأمني في المنطقة بمواضيع تتعلق بنشاطات الذئاب المنفردة، حيث يعتبرها الكثيرون أمراً متعلقاً بالأمن الداخلي للدول الغربية وروسيا الاتحادية، فعلى الرغم من قوة أجهزة الاستخبارات الأوروبية والروسية والأمريكية إلا أنها عجزت عن منع الذئاب المنفردة من القيام بعملياتها، ولدى متابعة أخبار الجهاد العنفي نجد تركيزاً كبيراً على تحريض أتباع التنظيمات الجهادية على القيام بعمليات توصف بعمليات الذئاب المنفردة؛ لذا من المفيد التطرق إلى مفهومه وخصائصه وتكتيكاته وتسليط الضوء على التطورات

التي قد تطرأ عليه بالاستفادة من بعض الدراسات التحليلية الأمنية والسياسية والسيكولوجية التي تناولته في الشرق والغرب، وسيتم اللجوء إلى العديد من الاقتباسات من أجل توضيح الأفكار بشكل جيد قدر الإمكان؛ حيث أنّ هذا المصطلح بعد تبنيه من قبل أتباع الجهاد العنفي لم يعد يخصّ اليمين المسيحي المتطرف واليمين القومي المتطرف في الغرب، بالتالي لم تعد تخص أيديولوجية ودين محدد، إلا أنه من المفيد التركيز على الذئاب المنفردة الجهادية كونها الخطر الأكبر الذي يهدد مجتمعات المنطقة؛ ومن المفيد عدم الاستهانة بالذئاب المنفردة فمثلاً تسببت إحدى عملياتها في فرنسا عام 2015م بفقدان حوالي 132 شخصاً لحياته وجرح أكثر من 350 شخصاً آخر، وكذلك قيام متطرف أفغاني بضرب أكثر من عشرة أشخاص بفأس وسكين في قطار جنوب ألمانيا وهناك العشرات من العمليات الأخرى.

الذئاب المنفردة

هنالك الكثير من القصص في الثقافات الشعبية العالمية التي تتناول تحول الآدميين إلى ذئاب مرعبة تفتك بالبشر بشكل وحشي، وفي عالم الطبيعة البرية كثيراً ما ينفصل أحد الذئاب عن قطيعه ويعيش مفترساً منفرداً إلى حين الانضمام إلى قطيع آخر أو الوصول إلى قطيعه مجدداً، ويبدو أن لهذا الأمر تأثيره في صياغة مصطلح (الذئاب المنفردة) من قبل الباحثين الغربيين في المجال الأمني، كما أنه يمتلك جاذبية في الخطابين الإعلامي والسياسي خاصة الديماغوجي؛ في الوقت نفسه يشكل هذا المصطلح طاقة كامنة نسبية في إثارة مشاعر الخوف والقلق لدى الإنسان وتدفعه لتوخي المزيد من الحذر، وتظهر رهبة الشخصية المنفّذة وتشبع مشاعره السادية، فكثيراً ما كانت صفة الذئب مناسبة لوصف المجرمين الساديين غير المرتبطين بعصابة بتهم القتل والاغتصاب. من الباحثين الشرقيين المعاصرين الذين أشاروا إلى أفكارٍ مرتبطة نوعاً ما بمفهوم الذئاب في مجال التحليل النفسي الباحث السيكولوجي الدكتور مصطفى حجازي[105] الذي شبّه "عالم الإنسان المقهور بغابة ذئاب[106]، عليه أن يعبئ نفسه ويظل يقظاً طوال الوقت لمجابهة أخطارها. وعندما يحس كل واحد من المواطنين إحساساً من هذا القبيل، فإن علاقات التعاطف والتفاهم تنهار لامحالة، لتحل محلها علاقات اضطهادية. الآخر هو الخصم الذي يتهدد المصير الذاتي ويهدد بالاستيلاء على الحقوق الذاتية. إنه بالتالي العقبة الوجودية في وجه تأمين المصلحة الذاتية. ولذلك فلا بد من إعلان الحرب عليه، أو الاحتياط للحرب التي قد يعلنها علينا. يتحول الآخر إلى مصدر تهديد وخطر على الذات أو مصدر عرقلة لمصالحها، ومنذ تلك اللحظة يصبح كل عدوان عليه، كل تغليب مطلق للمصلحة الذاتية، دون مراعاة للآخر، النمط المشروع من الدفاع عن النفس...".

يعود أول بروز لمصطلح الذئاب المنفردة[107] إلى عام 1990م مع تنامي النشاط العنصري لليمين المتطرف النازي في أمريكا وكندا، ويعد زعيم جماعة (المقاومة الآرية البيضاء) (توماس ميتزيغر) ومساعده (أليكسندر كورتيس) أكثر من ركّزا على هذا المفهوم لتحقيق أهداف الجماعة المتمحورة حول كراهية المهاجرين والسود واليهود والأقليات الأخرى غير الآرية، حيث تم دعوة الأنصار إلى حمل السلاح وفق مبادئ أطلق عليها (قوانين للذئاب المنفردة) حيث العمل السرّي

105 الدكتور مصطفى حجازي، أكاديمي ومفكر لبناني. حائز على دكتوراه الدولة في علم النّفس من جامعة ليون – فرنسا مجالات التخصص العام: علم النفس، والبحوث والدراسات السكانية. مجالات التخصص الدقيق: الشباب/المراهقون، الصحة العقلية، والسلوك النفسي...

106 د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان؛ ص178.

107 الدكتور سعود الشرفات؛ الدكتور سعود الشرفات؛ الخرافات العشر حول إرهاب "الذئاب المنفردة"؛ مركز شرفات للدراسات والبحوث/ العولمة والإرهاب؛ 30 كانون الأول 2018م؛

والقتال بشكل فردي، وقد أطلق مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي FBI على أعمال هذه الجماعة اسم (عمليات الذئب المنفرد). لقد تطور هذا المصطلح في الغرب وأصبح يرمز إلى الأعمال الفردية المرتبطة بالعنف الفردي تجاه المجتمع. استناداً على هذا الأمر فأنّ الذئاب المنفردة تعبر عن أي شخص يمكن أن يلحق الأذى بالآخرين بأي وسيلة تسبب الضرر لدوافع عقائدية أو إجرامية أو عقد نفسية أو مرضية أو انتقامية أو لدوافع سياسية، بشكلٍ منفرد وبدون تلقي تعليمات مباشرة وتكليف من أحد، وبتخطيط وتصميم مسبق وعن سابق إصرار بقصد إلحاق أكبر قدراً ممكناً من الضرر والأذى خدمة لتلك الدوافع. كما فعل اليميني المتطرف (أندريه بريفيك) في النرويج عام 2011م حين قتل عشرات المدنيين النرويجيين احتجاجاً على سياسة بلاده في مسألة هجرة الأجانب إليها دون أن يكون هناك تخطيط أو تنظيم أو توجيه بذلك من قبل اليمين المتطرف النرويجي.

خصائص الذئاب المنفردة

بشكل عام تعتبر الذئاب المنفردة تكتيك عسكري متّبع من قبل المتطرفين، يعتمد السرّية والتفرد، في التخطيط والتمويل والرصد والتنفيذ لعملياتهم، وهو يختلف من حيث الدافع عن أسلوب العمليات الفردية الفدائية ذات الطابع الثوري ضد الاستبداد والاحتلال والتي يمكن تسميتها مجازياً أيضاً بتكتيك الذئاب المنفردة؛ لذا يتداول هذا المصطلح كثيراً في أروقة أجهزة الاستخبارات والأجهزة المعنية بحفظ الأمن ومكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة للعديد من الدول؛ وهو يندرج في سياق الأعمال الإرهابية والإجرامية لدى استهدافه الأبرياء أو استهداف دولة معينة خدمة لأجندات دول أخرى أو كانت متحرضة نتيجة مشاعر الكراهية تجاه ثقافة إنسانية ما أو مجتمعات مسالمة أو ضعيفة نسبياً.

يبدو أنّ المواطنين والمقيمين الأجانب في بعض الدول الأوروبية والأمريكية واستراليا المتأثرين بالفكر المتطرف والمؤمنين بالجهاد العنفي انجذبوا إلى هذا المصطلح وعملوا على إعادة صياغته بما يتناسب مع نهجهم، ليتم ابتداع (الجهاد الفردي) كمصطلح موازي (للذئاب المنفردة) كعملية تطوير لمفهوم الجهاد العنفي من مستوى التنظيم الجماعي إلى المستوى الفردي في سياق ما يعرف (بالثأر العقائدي) كما قاله لنا أحد مقاتلي التنظيم في مقابلة معه، وأصبح خياراً مفضلاً للكثير من المتطرفين الذين يجدون صعوبة في الانتقال إلى الأماكن التي تتواجد فيها التنظيمات الجهادية أو الرغبة في تنفيذ عمليات مؤثرة تخدم دعاية تلك التنظيمات؛ من ناحية أخرى تدرك التنظيمات الأصولية المتشددة أهمية هذا التكتيك في إلحاق الأذى والضرر بأعدائها المفترضين الذين يقعون خارج حدودهم المعنوية والمادية والروحية حيث تنعدم القيم الأخلاقية تجاههم، بالنسبة إليهم يصبح القتل والاغتصاب وإلحاق الأذى والإذلال مستباحاً، في هذا السياق يرى الباحث السيكولوجي مصطفى حجازي[108] " يتم شرعنة العدوانية والقتل ببروز الاتجاه الإنصافي في ذهنية الجاني من خلال التحقير الثابت للضحية وتحميله مسؤولية بؤسه... الآخر المُحقّر يحتل في ذهن المعتدي دلالة العقبة الوجودية التي تسرق له حقّه في السعادة، حقه في الاستقلال، حقه في الحرية، إلخ، ولذلك يصبح فعل القتل، لا فقط بريئاً من الإثم ومبرراً فحسب، بل مطلوباً كواجب نبيل هو الدفاع عن الذات وكرامتها وقدسيتها أو الدفاع عن الجماعة وقيمها أو حتى الدفاع عن الحضارة و الإنسانية من العناصر المخربة الهدامة...هذه التحولات تلاحظ بوضوح كبير في تصرفات العنف والإبادة ذات الطابع السياسي. فحين يشرعن القواد فعل القتل تثار الجماعة وينتشر فيها التبرير الجماعي

[108] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان؛ ص194-193.

انطلاقا من أفكاراً سياسية أو مواطنية. وقد يصل الأمر حد الوحشية الدموية، يساهم فيها أناس عديدون، معتقدين أنهم يقومون بواجب جماعي، أو بإحقاق العدالة واستعادة الاعتبار للجماعة..."؛ في هذا السياق تركّز التنظيمات المتشددة في منشوراتها وخطبها على تحريض المتعاطفين معها للتحول إلى ذئاب منفردة وتنفيذ عمليات قتالية في مناطقهم[109]؛ استناداً إلى القاعدة الشرعية "فرض عين" ويقصد به بأن كل مسلم ملتزم بتنفيذه وهو بعكس "فرض كفاية" أي إذا قام بالأمر الشرعي عدداً من المسلمين أعفي الآخرين من القيام بها؛ وأغلب الفتاوي الشرعية التي يطلقها قادة التنظيمات الجهادية هو اعتبار الجهاد العنفي فرض عين على كل مسلم. يعدّ المدعو (مصطفى الست مريم)[110] والملقب باسم (أبو مصعب السوري) أكثر من اهتم بهذا التكتيك وعمل على تحويله إلى استراتيجية ثابتة لأتباع الفكر المتطرف، ويعدّ المُلهم لمفهوم الجهاد الفردي في كتابه (دعوة المقاومة الإسلامية) الصادر عام 2004م؛ يبدو أن فقهاء التنظيمات المتطرفة قدموا مبررات شرعية لإطلاق العنان للمشاعر السّادية لأتباعهم، أي كلما تعذب العدو المفترض جسدياً ومعنوياً كلما كان ذلك تقرباً من الله وكسباً لرضاه والفوز بالجنة والحوريات المتطرفين على مستوى العالم...ض فيه واقع جديد يشبه الواقع الذي كان من المفروض أن يسود وفقاً لإتتفاقية سيفر. أحد الجماعاتر، وهذا ما يفسر عمليات القتل الوحشية بدم بارد، حيث يقدمون في هذا السياق الآية رقم (120) من سورة التوبة "... ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين" علماً أنّ للآية تكملة وحدوداً زمانية ومكانية وموجهة إلى الأعراب لحضّهم على اللحاق بالنبي في غزوة تبوك ضد الروم وحلفائهم من العرب؛ إلا أنّ المتطرفين قاموا بتأويلها بحسب معتقدهم وتسخيرها في سبيل أجنداتهم، بالمقابل نلاحظ أنَّ استباحة قتل المدنيين الذين قد يكونون معارضين لحكومات بلادهم أو لا يتفقون معها تتعارض مع الآية القرآنية "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم وأن تبروهم وتقسطوا اليهم، إن الله يحب المقسطين" وهناك العشرات من الأمور الدينية الأخرى التي تفضح تضليل هذه التنظيمات. بعد عام 2011م والتصاعد الدراماتيكي لجرائم تنظيم داعش بدأت المنشورات الجهادية تقدم مصطلح الذئاب المنفردة على مصطلح الجهاد الفردي وتم إصدار عدداً من المنشورات الإرشادية والتوجيهية التي تحرض على التحول إلى ذئاب منفردة، ففي أحد هذه المنشورات[111] يتم تعريف الذئاب المنفردة بالشكل التالي "نعني بالذئب المنفرد، ذاك المجاهد الفردي الذي يقوم بعمليات جهادية تنبعث فكرتها من منطلق فردي، ليس له علاقة بالجماعات والمنظمات الجهادية الأخرى، من الناحية التنظيمية، وقد يكون له علاقة، ولكن هذا العمل ليس له علاقة بالجماعة، بل هو اجتهاد منه، وبدون دعم مادي أو مساعدة منهم، تنفيذا لأمر الله تعالى: (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك)..." لذا لا مانع شرعي من اطلاق هذا المصطلح على منفذي الجهاد الفردي كونه يرعب الأعداء ويلحق به خسائر مادية ومعنوية، بحسب وجهة نظرهم. وما دعم هذه الأفكار بشكل أكبر هو تنظيم داعش فمثلاً نُشرت كلمة صوتية لأبي محمد العدناني المتحدث الإعلامي للتنظيم قال فيها[112]: "أيها الموّحد.. لا تَفُتْكَ هذه المعركة أينما كنت... فإذا

---

[109] من هذه المنشورات إصدار بعنوان "نصائح وتوجيهات عسكرية للمجاهدين في أرض الرافدين"، منشور من قبل مركز الدراسات والبحوث الإسلامية التابعة لمجموعة تطلق على نفسها اسم أنصار الجهاد، بدون طبعة وتاريخ؛

[110] أبو مصعب السوري.. "مصطفى الست مريم".. هو مصطفى بن عبد القادر بن مصطفى بن حسين بن أحمد المُزَيّكْ الجاكيري الرفاعي. وتعرف عائلته اليوم "بست مريم" نسبة إلى جدة الأسرة "مريم". ولد في مدينة حلب عام 1958 ودرس في كلية الهندسة الميكانيكية في جامعة حلب. ويعد من أخطر المتطرفين على مستوى العالم...

[111] أبو محمود المجاهد؛ الذئب المنفرد (الجهاد الفردي)؛ الطبعة الأولى سبتمبر/أيلول 2019م؛ بدون ناشر؛ ص10.

[112] حسن سالم بن سالم؛ تنظيم داعش والإرهاب العابر للحدود؛ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية- دراسات العدد الحادي عشر 2016م؛ ص15.

قدرت على قتل كافر أمريكي أو أوروبي، وأخص منهم الفرنسيين الحاقدين الأنجاس، أو أسترالي أو كندي، أو غيره من الكفار المحاربين، من رعايا الدول التي تحالفت على الدولة الإسلامية، فتوكّل على الله، واقتله بأي وسيلة أو طريقة كانت، ولا تشاور أحداً، ولا تستفت أحداً، سواء أكان الكافر مدنياً أو عسكرياً، فَهُم في الحكم سواء، كلاهما كافر، كلاهما محارب، كلاهما مباح الدم والمال، فإن الدماء لا تُعْصَمُ أو تُباح بالملابس، فلا الزي المدني يعصم الدم، ولا البزة العسكرية تبيحه، وإنما يُعصم الدم ويُباح بالإسلام والإيمان..."، وهذا يخالف منهج الإسلام في التعامل مع المستضعفين بحسب الفقهاء. من ناحية أخرى تشير دراسة صادرة عن مركز RAND للأبحاث[113] إلى أنّ التنظيم يمتلك استراتيجية للتواصل العقائدي عن بعد مع المتعاطفين معه حول العالم عن طريق شبكة الإنترنت والعائدين إلى مناطقهم، حيث يركّز في حربه النفسية ودعايته على وسائل التواصل الاجتماعي (بشكلٍ خاص تويتر وتلغرام، وتمبلر/ Tumbler) على خطب وأناشيد ومشاهد لعمليات قتالية ذات طابع حماسي بشكل يمكن أن تشكل مصدر إلهام للهجمات التي تقوم بها الذئاب المنفردة، كردة فعل تجاه الاعتقاد بتحمل الغرب لمسؤولية معاناة الشعوب المسلمة. على الرغم من الهزيمة الميدانية للتنظيم فإن تأثيره سيبقى مستمراً في نفوس المتعاطفين به وهذا ما تمّ تلمسه من ردة فعل بعض عناصر والعائلات الداعشية بعد إعلامهم بهزيمة التنظيم وفرار البغدادي.

في عام 2017م قدّر مركز RAND للأبحاث أعداد المقاتلين الأجانب في صفوف التنظيم بين 30000 إلى 40000 عنصر ينتمون إلى حوالي 145 بلداً؛ كما أن توقف تدفق المجندين المهاجرين إلى مناطق التنظيم بعد فقدان سيطرته على مناطق جغرافية كبيرة في الشرق الأوسط سيدفع بالراغبين في الجهاد العنفي إلى صبّ عنفهم في مناطقهم وتنفيذ عمليات مستوحاة من العمليات التي تمت باسم التنظيم في مختلف مناطق العالم، وسيتحولون إلى ذئاب منفردة وقد يتحولون إلى قطعان منظمة خاصة في ظل تأثير السلوكيات السلبية التي تبرز من المجتمعات التي تحتضن هؤلاء بالتزامن مع فرض قيود على بعض الرموز الدينية كالحجاب وتشجيع المثلية والجنسوية، والمقالات والصور الساخرة من المعتقدات الإسلامية والتحريض على التطرف من قبل وسائل الإعلام التابعة لنظام أردوغان وحلفائه.

التعامل مع تهديدات الذئاب المنفردة

إنّ بعض الآراء الأمنية الغربية التي تصف الذئاب المنفردة بعدم التدين أو شخصيات غير متوقعة ولا يمكن التنبؤ بسلوكها يشير إلى منهجيتها الأمنية التي تركز على المظاهر بالدرجة الأولى وشيطنة المُنفّذ دون أن يكون هناك إلمام مسبق بدوافع ومحرضات التحوّل إلى العنف والمصادر المسهّلة لتنفيذ العمليات، ويبدو أن تنظيم داعش أدرك هذا الأمر وأصدر كُتيّب بعنوان "إرشادات الأمن والسلامة للمجاهدين الفرادى والخلايا الصغيرة"[114] باللغتين العربية والإنكليزية، بغرض توجيه المتعاطفين معه بما يجب اتباعه من سلوكيات لتجنب انكشافهم أو إثارة الشك حولهم إلى حين تنفيذ عملياتهم، كحلق اللحى وتعاطي المخدرات والكحول، وحتى ارتداء الصلبان والاندماج في المجتمعات المحلية والذوبان فيها، وعدم التقيد بالملابس والمظاهر التي تفرضها الشريعة الإسلامية ...إلخ وتندرج مجلة (المجاهد التقني)[115] أيضاً في هذا السياق التي تتضمن توجيهات أمنية للعمل على الكمبيوترات والإنترنت؛ ليصبح الذئبُ المنفردُ دلالةً ومؤشراً للبطولة

[113] للمزيد راجع: لين إي. دايفس- جيفري مارتيني- كيم كراجين؛ استراتيجية لمكافحة الدولة الإسلامية في العراق والشام (ISIL) كتهديدٍ عبر إقليمي (منظور تحليلي)؛ الناشر مركز RAND للأبحاث؛ 2017م.

[114] تعذر الوصول إلى هذا الكتيب، إلا انّ هناك الكثير من الصفحات الإخبارية الإلكترونية أشارت إلى بعض محتوياته.

[115] مجلة المجاهد التقني؛ العدد الأول- شهر ذو القعدة سنة 1427 هجرية؛ مركز الفجر للإعلام. تعليمات وتوجيهات لكيفية العمل على وسائل التواصل الاجتماعي والانترنت واخفاء الملفات وتضليل المعقبين.

وللإخلاص لدى التنظيمات المتطرفة؛ والتسبب بنفس الوقت بعدم الثقة داخل المجتمعات مما يهدد تماسكها وهذا ما يخدم دعاية التنظيمات الأصولية، خاصة بعد فشل الاستراتيجية الأمنية الغربية في دفع معظم المتطرفين لمغادرة دولهم ليتم تصفيتهم أو تحييدهم في الخارج.

استناداً إلى ما سبق تعدّ الذئاب المنفردة أسلوباً غير تقليدي من الأعمال الإرهابية والإجرامية، يصعب التنبؤ بعمليتها لإحباطها قبل التنفيذ، نظراً لمجموعة من الخصائص التي تتميز بها لعل أبرزها:

الناحية التنظيمية:

العمل بطريقة فردية وسرّية بغاية القتل وإلحاق الأذى. الارتباط الفكري المتعصب بأحد التنظيمات الجهادية دون تواصل مباشر معه بل عن طريق شبكة الإنترنت أو المنشورات الورقية وهذه من الأمور التي يتابعها الفرد في خلوته لذلك يبقى دائماً متخفياً يصعب كشفه. التمويل الذاتي والاعتماد على النفس في تأمين أدوات الجريمة. التواجد في البلد المستهدف والذي يطلق عليه فقهاء الجهاد العنفي اسم بلاد الكفار أو دار الحرب وهي التي تعتبرها التنظيمات الجهادية المتطرفة أعداء لها؛ وتتوقف كفاءة تنفيذ العملية على براعة المجرم في تنفيذ جريمته فقد يكون ذو خبرة قتالية بعد مشاركته مسبقاً في الأعمال القتالية لإحدى التنظيمات المتطرفة في الشرق الأوسط أو شمال إفريقيا أو أفغانستان وعاد إلى بلده أو هاجر إلى البلد المستهدف كلاجئ، أو كان جندياً سابقاً، وقد لا يمتلك الخبرة اللازمة إلا أنه ثقّف نفسه ذاتياً من خلال المطالعة والألعاب الإلكترونية القتالية والأفلام السينمائية ومقاطع الفيديو التي تبثها التنظيمات الجهادية.

التنفيذ والطبيعة السلوكية:

العملية تبدأ وتنتهي في فترة زمنية واحدة وقصيرة نسبياً وغالباً ما يقتل المُنفّذ إما بالانتحار أو بعد مقاومته لقوى الأمن، ويعتبر كل شخص يتواجد في مسرح العملية هدفاً يجب تصفيته مهما كانت صفته وعمره وحالته. ولدى تفحص المعلومات والأخبار الخاصة بمختلف الأفراد الذين اعتمدوا تكتيك الذئاب المنفردة لتنفيذ عمليات إجرامية بحق المدنيين نجد بعضهم لا يعانون من أمراض نفسية أو عصبية، والبعض الآخر ليسوا فقراء أو عاطلين عن العمل، ومعظمهم متعلمين والبعض يمتلك شهادات جامعية ولا يعانون من عزلة اجتماعية أو كبتاً جنسياً، وليس جميعهم مسلمين، وقد يكونون خارج دائرة الشبهات لعدم امتلاكهم ماضٍ إجرامي ومشاعر كراهية علنية تجاه الآخرين أو الهوس بسلوكيات ومظاهر التنظيمات الجهادية، ولا يسعون وراء المنفعة المادية؛ وبالتالي فإنّ الطاقة المحركة والمحرّضة للجريمة هي الأيديولوجيا التي تمجّد الجهاد العنفي وتعمي بصيرة متبنيها عن الحقيقة؛ وهذا ما يتفق مع رأي الباحث (كولن ولسون)[116] في تفسيره لسيكولوجية العنف البشري حيث يرى "... البشر هم الكائن الوحيد الذي يقضي تسعاً وتسعين بالمائة من وقته داخل رأسه وبين أفكاره الداخلية الخاصة التي تكوّن عالماً من صنعه مغاير للواقع خارجه... هذه الحالة تجعلهم معرضين للإيحاءات السلبية... فبمجرد أن يغلق الإنسان ذهنه إرادياً عن الواقع والوجود مثل جمال وروعة زرقة السماء- أي ظل مرتبطاً بالواقع الخارجي بخيط واه وهي حالة تشكل خطراً فائقاً- والخيط الواهي الذي يربطه بالواقع هو طلباته الملحة العاجلة وأغراضه الآنية. فالغريب وغير المفهوم كما يبدو، أنّه يحيا في كهف داخل رأسه، والكهف مليء بعدد هائل من الأدراج المكتظة بكم لا نهائي من الصور عن العالم الخارجي، كما أنّ جدران

[116] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/ سيكولوجية العنف البشري؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الناشر جماعة حور الثقافية الطبعة الأولى 2001؛ القاهرة؛ ص148-135.

الكهف مغطاة بخرائط عن الواقع والخرائط عبارة عن مجموعة من الأفكار عن كيفية التعامل مع الأحياء والحياة، المتدينون يعلقون خرائط دينية على جدران كهفهم، والسياسيون يعلقون خرائط سياسية، وعلماء النفس يعلقون خرائط نفسية...".

التحول إلى ذئب منفرد

استناداً إلى نظرية (دولارد)[117] التي وضعها عالم النفس الاجتماعي الأمريكي (جون دولارد)، في الإحباط والعدوانية؛ يمكن لأي شخص أن يصاب بتحول فكري أو عقلي أو نفسي مفاجأ وتنحرف مشاعره تجاه عقائد أو منافع أو نزوات معينة ويجد في إلحاق الضرر والأذى بالعدو المفترض خدمة جليلة لما يعتقد به؛ فباستثناء كون من يقوم بعمليات الذئب المنفرد مقاتل سابق في التنظيم، أو من تحول إلى التطرف بعد أن كان ضعيف الإيمان بالمعتقد أو لا يؤمن به، ويرغب بالتكفير عن ما مضى من خلال سلوكيات مندرجة في سياق مصطلح (جلد الذات)[118]. قد يتساءل المرء عن سبب تحول فردٍ يعيش ظروفاً جيدة نسبياً في الدول المتقدمة إلى التوحش ويرتكب جريمة بحق المدنيين، يبدو الإجابة على هذا التساؤل يحتاج إلى شرحٍ طويلٍ بحسب حالة وظروف كل ذئب منفرد؛ إلا أنه هناك دافعين رئيسيين لهذا التحول الأول المتعلّق بسيكولوجية الفرد والثاني يتعلق بطريقة ومستوى محاكمته الديالكتيكية للبيئة المحيطة به استناداً إلى مستواه الفكري وطبيعتها. بشكلٍ عام يعتبر الفرد المتحول إلى الجهاد العنفي أو الذي ينحرف نحو العدوانية والعنف، إنساناً مقهوراً أو يعتقد بأنه مقهور، يعاني من الإحباط كونه لا يملك القدرة على إقناع الآخر بخطأ معتقده وصوابية ما يؤمن هو به، يضاف إلى ذلك فشل التنظيمات الأصولية الجهادية في جلب السلام للمجتمعات الإسلامية التي تحولت إلى بيئات بائسة حيث العنف والفقر والجهل والمرض وتحميل الآخرين مسؤولية ذلك وما لذلك من تأثير على المقربّين للشخص، الميّالين للتطرف، يضاف إلى ذلك عدم التقيد بالموضوعية في الحكم والتفسير للعلوم المعرفية والثقة المفرطة بالعلوم الدينية، وما يزيد الأمور سوءاً التوجه إلى الإفراط في التدّين[119] وعدم القدرة على تحقيق التوازن بين الالتزام الديني والحياة الطبيعية والعلاقات الاجتماعية مع المعتقدات الأخرى؛ بالتزامن مع تولد ردود فعل انتقامية تجاه سلوكيات الكراهية التي تبدر من البيئة المحيطة من سخرية من المعتقد أو تضييق الخناق على المشاعر الدينية أو انخراط الحكومة في حربٍ ضد إحدى التنظيمات الأصولية المتطرفة- إخوة المعتقد-، أو معارضة تشريع الحكومة المحلية لأمور تعتبر من المحرّمات في المعتقدات الدينية كمعارضة الإجهاض، والمثلية، وحظر النقاب،

---

117 تقوم هذه النظرية على المبادئ التالية: كل توتر عدواني ينتج عن الإحباط. شدة العدوانية تتناسب مع شدة الإحباط من ناحية، وقوة الحاجة المحبطة من ناحية ثانية. تزداد العدوانية مع نمو عناصر الإحباط. صدّ العدوانية (إحباطها) يولد عدوانية لاحقة، بينما يخفف تفريجها من شدتها بشكل مؤقت أو دائم. صدّ أفعال العدوانية الموجهة يشكل إحباطاً جديداً ينتج عدوانية موجهة لمصدر الإحباط، ويزيد قوة الدفع نحو أشكال أخرى من العدوانية التي تنتشر عندها لتنبث في مختلف أشكال النشاط وأوضاع الوجود. تزداد العدوانية الموجهة نحو الذات، حيثما صعب توجيهها نحو الخارج، وحيث يستمر منع تصريفها الخارجي... للمزيد راجع: د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان؛ ص190.

118" جلد الذات" مصطلح نفسي يحمل معنى معنوياً وآخر مادياً، المعنى المعنوي هو المبالغة في انتقاد الشخص لذاته ولومه لنفسه وتأنيبه لها لارتكابه سلوكيات خاطئة، أما المعنى المادي فهو إلحاق الأذى بنفسه متعمداً رغبة في الشعور باللذة والمتعة. وهو سلوك ناجم عن الإحباط بالدرجة الأولى... الخبيرة النفسية راندة حسين؛ جلد الذات؛ الناشر: اليوم السابع؛ 16 كانون الأول/ ديسمبر 2014م؛

119 تعذر الوصول إلى المرجع، وتمت الاستعانة ببحث بعنوان خلاصة بحث خالد عكاشة" الذئاب المنفردة"، ضمن الكتاب 123 (مارس 2017)" داعش وأخواتها: الفكر- التفكير- النصوص "الصادر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث- دبي.

والسلوكيات الناجمة عن الإسلاموفوبيا والشعبوية[120] القومية المتطرفة ومشاعر التفوق القومي وغير ذلك، إلى جانب ما تبثه وسائل الإعلام المختلفة عن العنف المستشري في البلدان المعتنقة للديانة الإسلامية من خلال تكرار مشاهد أطفال وكبار في السن ونساء ينزفون حتى الموت أو يصرخون فزعاً من ويلات الحروب أو انتشال الجثث من تحت أنقاض تدمرت بفعل قصف جوي أو مدفعي وتصوير بيئات بائسة ومريضة، هذه الأمور تحرض مشاعر المظلومية لدى المتلقي وعندما يصاب بالإحباط والعجز والنقم، ويصبح في وضع وكأنه يتصور بأنه يعيش في بيئة بائسة وعنيفة، يتولد خطاب ديماغوجي بين الإنسان وعقله لينجم عن ذلك الإيمان بالأيديولوجية المتطرفة التي تختصر المسافة بين الحياة والموت في تصورات دينية تشرّع الفعل الذي سيرتكب، لمعالجة الإحباطات الشخصية وإلقاء اللوم على البيئة الخارجية لتتفرغ فيها الطاقة السلبية والعنف الكامن، بالقتل والأذى؛ ليبرز العنف والعدوان خياراً وحيداً للتعبير عن الرأي الذاتي والمعتقدات، وهذا ما يدفعنا إلى استذكار رأي لعالم النفس (كارل يونغ)[121] في هذا السياق حيث يرى[122]" إنّ المرء يمكن أن يشعر بالذنب لا على أثر فعل ممنوع، ولكن أيضاً عندما لا يستطيع الوصول إلى تحقيق ذاته، إبراز فرديته الخاصة والعميقة. هذا الشعور بالذنب هو الذي يولد عدوانية غير محدودة".

مع حسمه لخيار العنف تبرز تحولات سلوكية جذرية على الشخص من زيادة التدين والاختلاء بالنفس وتغيرات نسبية في الحديث والملبس، واقتناء كتب صناعة الأسلحة والمتفجرات والتي تتضمن توجيهات عسكرية وأمنية من قبل التنظيمات الأصولية المتطرفة أو متابعتها على وسائل التواصل الاجتماعي ومواقع شبكة الإنترنت التي تشكل وسيلة تواصل رخيصة وسريعة بين المحبطين والمراهقين والمتدينين والجهاديين، حيث لم يعد المتطرف بحاجة إلى أن يذهب إلى المساجد أو التواصل المباشر مع أحد شيوخ التطرف، وإنما أصبح له شيخ إلكتروني والذي يمكن من خلاله استلهام الأفكار المتطرفة كافة، وتلقي المساعدة في كيفية التدريب والتنفيذ، كل ذلك دون الاستعانة المباشرة بأحد من المقربين حوله.

وبالتالي يمر الذئب في عدة مراحل للانتقال من الفكر والتصور إلى الفعل المقترن به، فهناك مرحلة التشبع بالأفكار المتطرفة ثم تفسير ومحاكمة البيئة المحيطة، ويصدر الحكم بتعنيف البيئة لتبدأ مرحلة التخطيط والرصد واختيار مسرح الجريمة، ثم مرحلة التنفيذ. يرى الباحث السيكولوجي (د. مصطفى حجازي)[123] "... أنّ أولى خطوات السير نحو السلوك التدميري هو فك الارتباط العاطفي بالآخر. تنهار روابط الألفة أو المحبة أو الحماية أو التعاطف، (على المستوى الفردي) كما تنهار روابط المواطنية أو المشاركة في المصير وكل ما عداها من الروابط التي تحمي حياة الآخرين وتدفعنا إلى احترامها. تحل محل تلك الروابط مشاعر الغربة والعداء والاضطهاد، مما يؤدي إلى بروز الأنوية والتقوقع على الذات أو الجماعة المرجعية..."؛ حيث يظن المتحول إلى التطرف بأنه يشكل مصدر الخلاص الوحيد من البؤس والانحلال الأخلاقي وفقاً لوجهة نظره، وأنه يمثل قمة المروءة دون أي تقييم لأفكار وعقائد أخرى قد تطرح خيارات أكثر فعالية.

120نقصد بالشعبوية، الخطاب السياسي الموجه إلى الشعب على قاعدة نقد نظام الحكم ومؤسساته، وطرح الذات كمعبّر عن مشاعر الجماهير ومدافع عن حقوقه ومحققاً لمصالحه.

121 كارل غوستاف يونغ بالألمانية: (Carl Jung)، (1875-1961م) هو عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي... ويكيبيديا، كارل يونغ.

122 د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان؛ ص189.

123 نفس المرجع السابق؛ ص192.

بالاستناد إلى ما تم ذكره يشكل عناصر تنظيم داعش المقهورين على قهر التنظيم وهزيمته، والمتوارين بين صفوف المدنيين في المنطقة، وكذلك المتعاطفين معه أو المتعاطفين مع القاعدة أو مع جماعة الإخوان المسلمين والشوفينيين المتعصبين لحزب البعث ألغاماً موقوتة يمكن أن تنفجر على شكل عمليات (الذئب المنفرد) حيث أنّ أغلبهم متمرسين على القتال واستخدام العديد من الأسلحة دون تلقي تعليمات مباشرة من التنظيمات الأم، ولكن بدافع الكراهية أو الانتقام، وبوجود العدد الكبير جداً من هؤلاء هناك إمكانية كبيرة للتواصل فيما بينهم وتشكيل خلايا للتنسيق والعمل المشترك، وبالتالي فأنّ خروج العمل القتالي من طابعه الفردي إلى الجماعي على شكل خلايا، الواحدة منها مكونة من أكثر من شخص، ودون أن يكون هناك ارتباط مباشر مع تنظيم محدد أو تلقي تعليمات مباشرة منه، يصبح مصطلح الذئاب المنفردة غير دقيق نسبياً وتبدو القطعان المنفردة مناسبة أكثر لذلك كاستعارة مجازية، فمثلاً نجد أثراً لذلك في العصيانات المدنية التي تترافق مع الحملات الأمنية المفاجئة التي تقوم بها قوات سوريا الديمقراطية بمؤازرة التحالف الدولي لملاحقة المجموعات السرّية المسؤولة عن الاغتيالات وتخريب المنشآت الخدمية والدعاية للتنظيم الإجرامي في ريف الحسكة الجنوبي وريف دير الزور الشرقي، حيث يشير توقيت العصيانات وسرعة التجمهر المفاجئة إلى وجود قطعان من الذئاب المنفردة تتصرف بمبادرة ذاتية ودون انتظار التعليمات والتوجيهات المباشرة من قادة تنظيماتهم (حزب البعث أو داعش). من ناحية أخرى من المحتمل أن تتطور الحالة التنظيمية لهذه القطعان وتتحول إلى تنظيمات قائمة بذاتها لها قيادة ومقاتلين ومصادر تمويل خاصة تتوقف أيديولوجيتها على رواسب أفكار التنظيم والمؤثرات الثقافية للبيئة المحيطة وردة الفعل تجاهها، حيث أن العديد من عناصر التنظيم المحليين وأصحاب الثروات التابعين له تلاشوا في المدن والأرياف، لعلهم يعملون على تبييض الأموال وتمويه الهوية العقائدية الشخصية وفقاً لمبدأ التقية، حيث أن الأفراد المتعاطفين مع التنظيم أيديولوجياً سيتصرفون منفردين بالاستناد إلى ما يتم اكتسابه من أفكار وتصورات من تفسيرات ومنشورات التنظيم وأعماله كنشاطات دعم معنوي أو مادي أو عسكري له، يضاف إلى ذلك احتمال وجود العديد من مستودعات السلاح الخاصة بالتنظيم التي لم تكتشف بعد، حيث تم إخفاؤها بشكل جيد لمنع تعرضها للقصف أو المصادرة أثناء عمليات تحرير المنطقة من قبضة التنظيم، ويمكن أن يتم تأمين أدوات القتل بشكل ذاتي عن طريق المعرفة الذاتية أو الاستفادة من منشورات التنظيمات الجهادية العنيفة التي تشرح فيها بشكل مبسّط كيفية صناعة الأسلحة والمفخخات والمتفجرات وإعداد السموم وطرق التخريب المختلفة للمنشآت والوسائل الخدمية للمجتمع[124]، حيث يتم التحريض على القتل باستخدام السمّ، سحق الرأس بحجر أو هراوة أو فأس، أو الذبح بسكين، أو الدهس بسيارة، أو التسبب بحوادث على الطرق السريعة، أو الرمي من علو شاهق، أو الخنق، أو سحب مسامير السكك الحديدية، أو خطف طائرة، أو خلط أسمدة ومواد كيميائية أخرى متوفرة في المتاجر لصنع قنابل، أو اعداد أبخرة سامة كغاز الكلور أو إضرام النيران أو التلويث أو حتى نشر الفيروسات- كورونا على سبيل المثال- والاستفادة من كل أمر يمكن أن يتسبب بالقتل والأذى ويمتاز بقلة التكلفة وسرعة الإعداد.

إنّ هذا الأمر يحتم على المسؤولين عن الأمن الداخلي لسكان شمال وشرق سوريا اعتماد سياسات أمنية مناسبة لهذا الأمر على أساس كسب ثقة بعض المجتمعات العربية المحلية التي لا تزال متأثرة بالحرب النفسية الموجهة إليه من قبل السلطة المركزية في دمشق والدولة التركية وغيرهما، والاحترام المتبادل للخصوصيات الثقافية والاجتماعية وإشراكهم في تحمل مسؤوليات

124 للاطلاع على هذا الموضوع راجع: أبو محمود المجاهد؛ الذئب المنفرد (الجهاد الفردي)؛ الطبعة الأولى سبتمبر/أيلول 2019م؛ بدون ناشر. وفي آخر البحث هناك العديد من المراجع من الدراسات بهذا الخصوص.

حفظ الأمن، وبالمقابل اعتماد الحزم والتدخل السريع لأية أعمال أو نشاطات تهدد السلام الداخلي للمنطقة وحياة المواطنين.

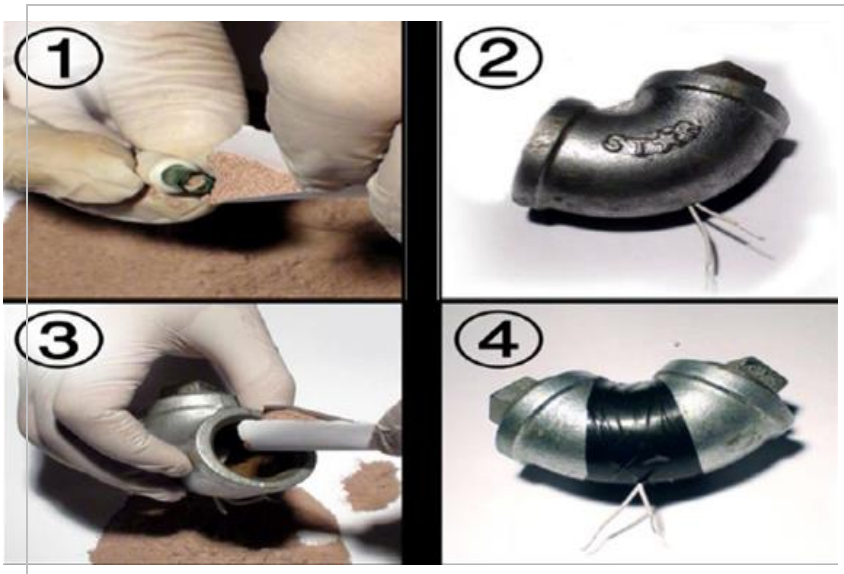

من منشورات التنظيمات الجهادية تعليمات عن كيفية صناعة عبوة متفجرة ذات تأثير كبير؛ حيث تنفجر المادة المتفجرة في حيز ضيق ومتين ليزداد الضغط بشكلٍ مضاعف ولدى انفجار الأنبوبة تتحول إلى شظايا مع ضغط تفجير كبير.

المعارضة السورية

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

مقدمة

تعاني سوريا منذ ستينيات القرن الماضي من حالة عدم استقرارٍ سياسي واجتماعي، ويعود سبب ذلك إلى طبيعة النظام القائم الذي كان يفضل القوة الصلبة والقمع كأداة لحل وفض أي نزاع سياسي أو أي حركة مطالبة بالتغيير في سياسته وهيكلية سلطته، هذه الحالة من عدم الاستقرار السياسي على مدار أكثر من خمسين عاماً، وغياب مبادئ الديمقراطية، وسيطرة زمرة أوليغارشية على الحياة السياسية والاقتصادية إضافة إلى بدء الاحتجاجات في البلدان المجاورة لها، والتي تسببت في انفجار الأزمة في آذار 2011م والتي على إثرها كسر الشعب السوري حاجز الخوف والصمت بالانتفاض ضد النظام الاستبدادي القائم؛ وبعد عشر سنوات من هذا الحدث لم تتحقق أية مطالب للشعب بسبب استمرار تشتت وتناحر المعارضة السورية كما كانت عليها قبل انطلاق الأزمة، ولم تكن في مستوى قيادة شعب منتفض طامح للتغيير في بلاده بعد فشلها في صياغة ميثاق وطني لسوريا المستقبل تضمن لكافة مكوناتها الحرية والكرامة والمساواة.

هذا التناحر السائد بين التشكيلات السياسية المختلفة للمعارضة والتنوع في أجنداتها ومشاريعها وخططها المستقبلية، إلى جانب سيطرة المعارضة الإسلامية المرتبطة بالتنظيم العالمي للإخوان المسلمين الموالي لنظام أردوغان الذين فضلوا أجنداتهم على قضية الشعب السوري قد عقد من مجريات الأزمة، فلدى رصد الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها نجد أن البلاد في حالة يرثى لها بعد مرور عشرة أعوام من الصراع الدائر بين القوى المحلية والإقليمية والدولية في ظل انهيار البنية التحتية، وتكريس حالة الانقسام السياسي، بالتزامن مع احتلال أجزاء من البلاد وإجراء عمليات تغيير ديمغرافي في العديد من المناطق سواء تلك التي احتلتها الدولة التركية ومرتزقتها أو تلك التي سيطر عليها النظام السوري وحلفاؤه، وانتشار عددٍ من القواعد العسكرية على الجغرافية السورية، بالإضافة إلى وصول البلاد إلى حافة الانهيار الاقتصادي التام الذي بات ينذر بزيادة بؤس الأوضاع المعيشية للسكان.

استناداً إلى عوامل ذاتية وموضوعية لا بوادر تشير إلى قرب انتهاء هذه الأزمة وإيجاد حل سياسي لها تنهي حالة الحرب والصراع القائم، يبدو أن هناك تفضيل للحل العسكري وللتهجير والتدمير على الحوار السياسي، مما يعني بأن هناك المزيد من القتلى والتدمير والتجويع في انتظار الشعب السوري على الأقل في المراحل القادمة الذي يعيش نصفه كمشرد ولاجئ ونصفه مهدد بالمجاعة، فالحياة الكريمة والآمنة للشعب السوري باتت ضرباً من الخيال في ظل هذه الأوضاع الكارثية التي تشهدها البلاد.

هناك حاجة لتقييم المعارضة السورية بمختلف توجهاتها من خلال دورها في استمرار الحرب التي تشهدها البلاد وبالتالي تحولها إلى جزء رئيسي من المشكلة، خاصة سياساتها التي تسببت في

زيادة حالة الاحتقان والشرخ وعدم الثقة بين المكونات السورية وارتباطاتها بالدول الإقليمية وموقفها العدائي من الكرد السوريين وقضيتهم، وذلك بالاستناد على رصد ومعايشة الأحداث السياسية وبعض الاحصائيات والتقارير الحقوقية ذات الصلة بالأزمة التي تشهدها البلاد والاطلاع على آراء بعض الشخصيات السياسية المنخرطة في النشاط السياسي الخاص بهذه الأزمة.

الوضع السياسي للمعارضة السورية:

بلا شك تشكل الأزمة السورية نتيجة حتمية للسياسات الخاطئة التي تم بها إدارة البلاد منذ استقلالها، حيث الانقلابات العسكرية وتهميش مبادئ الديمقراطية والتطرف في المعتقدات القومية والدينية، وبلغ الصراع على السلطة مستوىً عالياً بعد الانفصال عن مصر عام 1961م، فقد خضعت سوريا منذ عام 1963م لقانون الطوارئ بعد أن تسلم حزب البعث لمقاليد السلطة في البلاد إثر انقلابه على السلطة القائمة آنذاك، وهذا القانون المفروض سمح للسلطات السورية بالتدخل في أدق تفاصيل حياة المواطنين السوريين واعتقالهم تعسفياً تحت مسمى الاعتقال الوقائي، إضافة إلى حظر العمل السياسي والصحفي والإذاعي بمختلف أشكاله وحصره في أيدي الموالين للحزب فقط، وملاحقة جميع العناصر المعارضة للسلطة القائمة بمختلف انتماءاتهم، وشل جميع الأحزاب السياسية المخالفة نسبياً لنهج البعث من خلال تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية التي تضم أحزاباً متباينة أيديولوجياً حيث تظاهرت السلطة المركزية آنذاك بوجود تعددية سياسية في إدارة البلاد، هذه الجبهة كانت تضم الحزب الشيوعي وحزب الاتحاد الاشتراكي وحزب الوحدويين الاشتراكيين وحركة الاشتراكيين العرب وغيرها، وخاضعة بشكل مطلق لسلطة البعث بحسب المادة الثامنة من الدستور السوري السابق الذي يعتبر حزب البعث الحزب القائد للمجتمع والدولة، ولم تستطع خلق مناخ سياسي يحقق الديمقراطية والعدالة بحسب ما كانت تدعيه في خطاباتها الإيديولوجية.

أفرزت هذه السياسات مجموعة من المشاكل الداخلية لعل أبرزها الصراع الدموي بين التيارين القومي والديني (بين البعثيين والإخوان المسلمين)[1] وضعف الهوية الوطنية لدى المكونات غير العربية بسبب السياسة الاستبدادية للسلطة المركزية فيما يخص حقوق الإنسان وانعدام الديمقراطية والعدالة في إدارة شؤون المواطنين، بالإضافة إلى الفسادين المالي والإداري في إدارة مؤسسات الدولة، إلى جانب بروز مجموعات من المعارضة للسلطة المركزية اتخذت كلا منها نهجاً خاصاً بها. ولم تتوحد حول ميثاق سياسي وطني يحقق للبلاد التنمية والازدهار بل كانت معظمهما كردة فعل تجاه السلطة الاستبدادية والقبضة الحديدية من قبل النظام السوري، ورغبة كل طرف في الوصول إلى السلطة وإدارة البلاد وفق وجهة نظرها.

بعد تسلم الرئيس الحالي للسلطة في البلاد عام 2000م بدأت مرحلة اتسمت ظاهرياً بالانفتاح السياسي وبنطاق محدود من المرونة استدرجت بعض الحركات السياسية المعارضة وكشفت الغطاء عن بعض نشاطاتها السياسية لعل أبرزها ما عرف "بربيع دمشق"، بدأت هذه الحركة من قبل بعض المثقفين في دمشق ، وتميزت تلك الفترة بإنشاء المنتديات السياسية غير الرسمية والدعوة إلى دمقرطة البلاد وإنهاء قانون الطوارئ ، وفتح باب التعددية السياسية، وتداول السلطة، ووضع حد لاحتكار حزب البعث للسلطة وإحياء المجتمع المدني وغير ذلك، من خلال البيان الذي سمي ببيان الـ99 نسبة إلى عدد المشاركين في كتابة البيان، وتلا ذلك البيان بيان آخر أطلق عليه بيان الـ

[1] لقد تسبب الصراع على السلطة بين البعثيين والإخوان المسلمين بأحداث دموية كان لها تأثير سلبي على البلاد وإضعاف الهوية الوطنية، حيث أصدرت السلطة المركزية عام 1980م قانون ذو الرقم 49 الذي ينص على إعدام كل من يكون منتسباً للإخوان المسلمين؛ وقد بلغ الصراع ذروته في معارك حماة عام 1982م لتضعف شوكة الإخوان إلا أن هذا لم يمنع الجماعة من إعادة تنظيم صفوفها خاصة بعد فرار من تبقى من قادتها إلى خارج البلاد...

1000 في مطلب أكثر إصراراً على التعددية السياسية، إلا أن هذه النشاطات والمنتديات السياسية المفتوحة سرعان ما تم سحقها من قبل السلطة المركزية لتعود إلى سياساتها الاستبدادية السابقة. وعلى الرغم من اتفاق القوى المعارضة عام 2006م على ميثاق سمي ببيان الوحدة إلا أنها بقيت مشتتة ومنقسمة فيما بينها. ليستمر الوضع السياسي للبلاد على حاله منذ استيلاء البعثيين على السلطة.

مع بدء الانتفاضة الشعبية ضد النظام القائم في آذار 2011م، استغلت المعارضة السورية المتبنية لنهج الإسلام السياسي المتطرف[2] الحراك الشعبي وطرحت نفسها كممثل عنه، حتى أن بعضها اتجهت إلى العمل المسلح لتتحول الأرض السورية إلى ساحة صراع سياسي وعسكري بين قوى المعارضة من جهة، وقوى المعارضة والنظام السوري من جهة أخرى. ولم تستطع الأطراف المتخاصمة الاتفاق على ميثاق وطني جامع لكل المكونات والتيارات السياسية، وفشلت في أن تضع نفسها في خدمة الشعب والبلاد، بل تحولت إلى ما يشبه الارتزاق السياسي لصالح بعض القوى الإقليمية والدولية المتصارعة على النفوذ في المنطقة. لقد أفرزت هذه الصراعات والتناقضات عدة تشكيلات سياسية للمعارضة السورية سنستعرض البعض منها والتي تشكلت في خضم الأزمة السورية وتعمل بشكل مستقل عن التشكيلات الأخرى ولها رؤى مختلفة بشأن الحل في سوريا، وبالتالي نحن أمام مجموعة من المعارضة للسلطة المركزية وهذه المعارضة بنفس الوقت تعارض بعضها البعض لذا من المستبعد أن تنتهي معاناة المواطن السوري والفوضى التي تشهدها البلاد في المستقبل القريب. ومن أبرز هذه التشكيلات:

التشكيلات السياسية الخاضعة لهيمنة الإخوان المسلمين.

يعتبر الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية الذي تأسس في تشرين الثاني من عام 2012م بالعاصمة القطرية الدوحة واتخذ من تركيا مقراً له، من أبرز التشكيلات السياسية، ويضم الائتلاف المجلس الوطني السوري والهيئة العامة للثورة ولجان التنسيق والمجلس الوطني الكردي وغيرهم، وقد انضم إليهم مؤخراً رابطة المستقلين الكرد المرتبط بشكل مباشر مع الاستخبارات التركية، ومجلس القبائل والعشائر السورية الموالين لنظام أردوغان. مرَّ الائتلاف بالعديد من التطورات السياسية منذ تشكله، وانشقت عنه العديد من الشخصيات بعد خلافات شديدة بينهم. بالإضافة إلى خلافاته العميقة مع المنصات وقوى المعارضة الأخرى، كمنصة موسكو والقاهرة وهيئة التنسيق الوطنية ومجلس سوريا الديمقراطية. كما أنه شارك في العديد من الاجتماعات الدولية والإقليمية المنعقدة بشأن سوريا، ويعتبر من أبرز مكونات هيئة التفاوض العليا.

في عام 2013م أنشأ الائتلاف برعاية الدولة التركية مؤسسات لإدارة المناطق الخاضعة لسيطرة ميليشياته المسلحة تحت مسمى الحكومة السورية المؤقتة، إلا أنها لم تحكم عملياً أي منطقة محررة بل تحكم ظاهرياً مناطق محتلة من قبل تركيا، فقد وصفت إحدى التقارير التي نشرها معهد خدمة أبحاث الكونغرس الحكومة المؤقتة على الشكل التالي: "... الحكومة السورية المؤقتة هي رسمياً السلطة التي تدير المناطق التي تسيطر عليها الجماعات المسلحة التي تموّلها وتسلحها تركيا، وتحديداً منطقة درع الفرات (ESA) التي تغطي مناطق شمال وشمال شرق حلب. منطقة غصن الزيتون حول عفرين شمال غرب حلب، ومنطقة نبع السلام التي تم السيطرة عليها مؤخراً، لكن من

[2] تعد جماعة الإخوان المسلمين الممثل الرئيسي لجماعة الإسلام السياسي المتطرف في البلاد، وبعد بروز السلفية الجهادية كقوة إسلامية عالمية بدأت تنافس جماعة الإخوان في نفوذها داخل البلاد، وبنفس الوقت عمل هذين التيارين على إعاقة بروز أية حركة سياسية تمثل الهوية الوطنية السورية وتطرح مشروعاً سياسياً واقتصادياً يضع البلاد على مسار الديمقراطية والتنمية والازدهار...

الناحية العملية، فإن الأتراك هم من يسيطرون على هذه المناطق من خلال وكلائهم المختلفين من جماعات مسلحة ومدنيين..."[3]. لذا يمكن وصف الائتلاف والتشكيلات السياسية والعسكرية الرديفة له كمرتزقة سياسيين وعسكريين لدى الدولة التركية من أجل تحقيق مصالحها ومخططاتها القديمة تجاه البلاد، ويندرج في استراتيجيتها القضاء على الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا وقواتها (قسد) وتسكين عوائل المرتزقة من داعش والفصائل التركمانية في البلدات والقرى الكردية المحتلة كاستكمال لمخطط " إصلاح الشرق (1925م) والحزام العربي (1965م) " وتشتيت الوجود الكردي في سوريا عبر التهجير القسري والتغيير الديمغرافي، وتعزيز ثقافة الكراهية بين المكونين العربي والكردي، إلى جانب الإصرار على إيصال الموالين لها إلى أي سلطة سياسية وعسكرية تحكم البلاد في المستقبل.

التشكيلات السياسية التابعة للقاعدة.

تعد هيئة تحرير الشام (جبهة النصرة سابقاً) فرعاً من تنظيم القاعدة واستطاعت أن تحتل موضعاً مهماً لها في الأزمة التي تعاني منها البلاد كما تصنف على لوائح الإرهاب لدى الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا التي تقوم بين الفينة والأخرى بقصف مواقع تابعة لها في إدلب. ومن أجل ضمان وجودٍ لهم في العملية السياسية الخاصة بحل الأزمة وترسيخ وجودهم في المجتمعات الخاضعة لسلطتهم عمل قادة هذا التنظيم في أواخر عام 2017م على تشكيل مؤسسات خدمية تحت مسمى (حكومة الإنقاذ) تعمل على إدارة المدارس وقوات الأمن في منطقة إدلب وأجزاء من ريف حماة وحلب، ولا تعترف الحكومة بالائتلاف السوري والحكومة المؤقتة التابعة لها، وقامت في مناسبات عديدة بإغلاق العديد من مكاتبه في مناطق سيطرته، وهناك تنافس شديد مع جماعة الإخوان المسلمين في تحقيق الزعامة على السكان هناك والذين يعانون بالأساس من البؤس والقهر والتشرد إثر القصف المستمر من قبل الطيران الروسي والنظام السوري.

تهدف هذه الحكومة في سياستها الإدارية إلى تحويل المناطق التي تقبع تحت سيطرتها إلى إمارة إسلامية في المستقبل من خلال عدم الاعتراف بالقوانين المدنية ومبادئ الديمقراطية بل تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية بحسب مفهومها، وهي على خلاف كبير مع القوى السياسية الفاعلة على الأرض السورية .

ويبدو أن مصير الحكومة والهيئة مرتبط إلى حد كبير بمدى التفاهمات السياسية والعسكرية بين تركيا وروسيا اللتان تقومان بين الفينة والأخرى بعقد صفقات على الجغرافية السورية بحسب مصالح كل طرف منهما.

التشكيلات السياسية في شمال وشرق سوريا.

تعتبر الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا التي تأسست في 21 كانون الثاني 2014م ومجلس سوريا الديمقراطية التي تأسست في ديريك في 2015، من أبرز التشكيلات السياسية في المنطقة، وتضم العشرات من القوى السياسية والعسكرية المحلية،

يعتبر مجلس سوريا الديمقراطية المرجعية والمظلة السياسية لقوات سوريا الديمقراطية، وهي المخولّة في إجراء أية عملية تفاوضية خارجية، ويتخذ من خيار الحل السياسي عبر المفاوضات السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد بحسب النظام الداخلي للمجلس[4]. يعمل المجلس على التواصل مع جميع

[4] الموقع الرسمي لمجلس سوريا الديمقراطية؛ "الوثيقة السياسية لمجلس سوريا الديمقراطية (مسد)

المنصات والتيارات المعارضة الوطنية الهادفة إلى إيجاد حل سياسي للأزمة السورية، ويطرح المجلس تجربة الإدارة الذاتية كنموذج حل لعموم سوريا، ويهدف إلى بناء سوريا لا مركزية ديمقراطية ووضع دستور جديد للبلاد يحفظ لجميع المكونات حقوقهم. من ناحية أخرى يبذل المجلس جهوداً[5] لإذابة الجليد بين مختلف قوى المعارضة وتوحيد الرؤى السياسية لديهم، ويبدو أن ما يثبت مساعيه توقيعه لمذكرة تفاهم سياسية مع حزب الإرادة الشعبية(منصة موسكو) والاتفاق على خمس نقاط مهمة لإنهاء الأزمة السورية وفتح قنوات حوار مع السلطة المركزية وتوجيه نداءات للحوار إلى باقي قوى المعارضة التي تدعي الديمقراطية. كما ويمتلك المجلس علاقات جيدة مع بعض القوى الإقليمية والدولية كمصر وأمريكا ويوجد له ممثلية في الدولتين. ولكن أهداف المجلس تلقى معارضة شديدة من قبل كلٍ من الائتلاف المرتبط بتركيا وقطر وهيئة تحرير الشام والسلطة المركزية، وقد تم حرمانها من العديد من الاجتماعات المنعقدة بخصوص سوريا عن طريق فيتو تركي. إلا أن سلسلة من الزيارات التي تقوم بها بعض الوفود الأوروبية والغربية إلى شمال شرق سوريا تشير إلى عدم وجود معارضة دولية للمشروع السياسي للإدارة الذاتية في المنطقة.

الهيئات والمنصات السياسية.

إلى جانب قوى المعارضة الرئيسية التي تمتلك قوات مسلحة هناك مجموعة من التنظيمات السياسية على شكل هيئات ومنصات تمتلك وجهات نظر خاصة بخصوص الحلول السياسية للأزمة التي تشهدها البلاد، من أبرزها:

هيئة التنسيق الوطنية.

تشكلت هيئة التنسيق الوطنية في دمشق عام 2011م ويرأسها حسن عبد العظيم، وتضم الهيئة عدداً من الأحزاب العلمانية كحزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي، وحزب العمل الشيوعي السوري، وحزب الاتحاد السرياني وغيرهم[6] إلى جانب بعض الأحزاب الكردية كحزب الاتحاد الديمقراطي والحزب الديمقراطي الكردي، إلا أن الاحزاب الكردية انسحبت منها بسبب مواقف الهيئة السلبية تجاه القضية الكردية في سوريا، وللهيئة وجهة نظر خاصة بها تجاه الأزمة السورية فهي تعارض التدخل الخارجي والصراع المسلح وأن هدفها النهائي ليس إسقاط النظام بل الأحرى التغيير الديمقراطي في البلاد، وتمتلك الهيئة علاقات مع باقي المنصات والمعارضة ما عدا الائتلاف السوري، حيث تطرح الهيئة على أنها البديل العلماني له، وبالمقابل يتهمها الائتلاف بالموالاة للنظام السوري كونها تمارس نشاطها السياسي في دمشق، على الرغم من ذلك شاركت الهيئة في العديد من الاجتماعات المنعقدة بخصوص سوريا، وهي ممثلة في منصة الرياض (هيئة التفاوض العليا).

منصة القاهرة

تأسست منصة القاهرة في عام 2015م بعد مؤتمر القاهرة للمعارضة السورية، وتتخذ من العاصمة المصرية مقراً لممارسة نشاطها السياسي، وتضم شخصيات فنية وسياسية كالممثل جمال سليمان وجهاد مقدسي وفراس الخالدي وغيرهم. وهناك تواصل للمنصة مع كلٍ من مجلس سوريا الديمقراطية وهيئة التنسيق الوطني وغيرهما من القوى السياسية، وهي بدورها عضوة في منصة الرياض (الهيئة العليا للتفاوض)، والمنصة متفقة مع الرؤية السياسية المصرية والخليجية (ما عدا

6 الموقع الإلكتروني لهيئة التنسيق الوطنية، أحزاب الهيئة؛

مشيخة قطر)، إلا أنها تعاني من ضعف في النشاط السياسي، ويبدو أنّ كل شخص في المنصة لديه وجهة نظر خاصة به.

منصة موسكو.

تأسست منصة موسكو في عام 2014م في روسيا ويرأسها قدري جميل رئيس حزب الإرادة الشعبية، وللمنصة علاقات مع المعارضة الأخرى وهي بدورها ممثلة في هيئة التفاوض العليا، وقد قام رئيس حزب الإرادة قدري جميل بتوقيع مذكرة تفاهم مع مجلس سوريا الديمقراطية في روسيا في آب 2020م لإيجاد حل سياسي للأزمة السورية. تتفق هذه المنصة مع الرؤية السياسية الروسية لحل الأزمة في سوريا لذا فهي تعارض بيان جنيف 1والقرار 2118 القاضي بتشكيل حكومة انتقالية وتغيير نظام بشار الأسد.

منصة الرياض (الهيئة العليا للتفاوض).

تأسست منصة الرياض (الهيئة العليا للتفاوض) بعد عقد مؤتمر للمعارضة السورية في العاصمة السعودية الرياض في كانون الأول عام 2015م. شارك في تأسيس الهيئة كل من الائتلاف السوري وبعض الفصائل المسلحة وهيئة التنسيق الوطنية ومستقلون، وجرت عملية توسيعية للهيئة في عام 2017م بعد عقد مؤتمر (الرياض- 2) ليتم ضم كل من منصة القاهرة وموسكو، وذلك بدعم من قبل بعض الدول الإقليمية وعلى رأسها السعودية لتوحيد المعارضة السورية تحت مظلة واحدة وللمشاركة بوفد واحد في إجراء المفاوضات مع النظام السوري وفي حضور المؤتمرات المنعقدة بخصوص سوريا ضمن مسارات ترعاها الأمم المتحدة، حيث شاركت الهيئة (منصة الرياض) في محادثات جنيف واللجنة الدستورية الحالية. تطرح الهيئة عدة نقاط منها التمسك بوحدة سوريا وإقامة نظام جديد لا مكان فيه للسلطة الحاكمة في دمشق، إلا أن محاولات الدول الراعية للهيئة باءت بالفشل، حيث تعاني الهيئة منذ تشكلها من خلافات ومآزق عميقة بين الأطراف المشاركة، وقد استقالت عدة شخصيات من الهيئة منهم رياض حجاب وسهير الأتاسي وغيرهم، وفي الوقت الحالي يسيطر الائتلاف السوري المدعوم من تركيا على الهيئة ويترأس عضو الائتلاف أنس العبدة الهيئة علماً أن كلاً من منصة القاهرة وموسكو وهيئة التنسيق لم تشارك في اجتماع تعيين أنس العبدة وقاطعوا الاجتماعات التنظيمية للهيئة، ونتيجة الخلافات العميقة بينهم أوقفت وزارة الخارجية السعودية عملهم لحين اتفاقهم على صيغة مشتركة لعمل الهيئة.

إلى جانب هذه المنصات والهيئات السياسية المذكورة توجد منصات أخرى لا تمتلك تأثيراً كبيراً كمنصة أستانا التي تقودها رندة قسيس وتشكلت في عام 2015م بدعم من دولة كازاخستان، ومنصة بيروت التي تشكلت في عام 2017م وهي موالية للنظام السوري، ومنصة دمشق التي تشكلت في عام 2020م كمعارضة داخلية للسلطة القائمة، ومنصة حميميم التي نشأت في عام 2015م من قبل روسيا، بالإضافة إلى شخصيات معارضة مستقلة لم يعد لديهم وزن في الشارع السوري بسبب فشلهم في قيادة المعارضة السياسية، ولا يوجد لهذه المنصات المذكورة كيان سياسي وعسكري على الأرض السورية وليس لهم تأثير كبير على مجريات الأمور على الأرض السورية إنما ينحصر المشهد السياسي في الوقت الحالي بين عدد من القوى السياسية والعسكرية كالنظام السوري والإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا والائتلاف الإخواني وجماعات القاعدة.

إنّ فشل قوى المعارضة في إيجاد حل سياسي للأزمة السورية تسبب بتحولها إلى عائق رئيسي أمام حل الأزمة، هذا الأمر يفرض على المرء السعي إلى معرفة العوامل والأسباب الكامنة التي آلت بالمعارضة لما هي عليها في الوقت الحالي.

الوضع العسكري للمعارضة السورية.

بالنسبة للمعارضة العسكرية كانت في البداية مقتصرة على كبار قادة العسكريين المدعومين من بعض التيارات السياسية، حيث حدثت سلسلة من الانقلابات العسكرية، إلا أن بعد هيمنة البعث على السلطة في البلاد والسيطرة على الجيش والقوات المسلحة لم يبق هناك أي معارضة عسكرية، واقتصر الصراع المسلح بين الجناح العسكري لجماعة الإخوان المسلمين (الطليعة المقاتلة) وسلطة البعث وانتهت بهزيمة الإخوان، ليتم القضاء نهائياً على أي معارضة عسكرية للسلطة المركزية؛ إلا أن الأزمة أنعشتها مجدداً بعد نجاح كل من النظام والمعارضة المتطرفة في عسكرة الانتفاضة الشعبية، لتبرز مجموعة قوى مختلفة من المعارضة المسلحة للسلطة القائمة تسببت بانقسام جغرافية البلاد بينها.

في الوقت الحالي ينقسم المشهد العسكري على الجغرافية السورية بين ثلاثة قوى عسكرية، فهناك قوات النظام السوري الذي سيطر على حوالي 65% من مساحة البلاد، وذلك بعد سلسلة من العمليات العسكرية بدعم روسي وإيراني كبير ساهمت في إعادة سيطرته على الكثير من المناطق التي كان يتموضع فيها معارضوه، أما القوة الثانية فهي قوات سوريا الديمقراطية التي تتمركز في مناطق شمال وشرق سوريا وتسيطر على حوالي ما يقارب ربع مساحة البلاد، وقد تمكنت قسد من القضاء ميدانياً على تنظيم داعش بدعم من التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب في آذار عام 2019م، وتتعرض القوات لتهديدات مستمرة من قبل تركيا ومجموعاتها المرتزقة التي احتلت عدة مناطق كانت تحت إدارتها، أما القوى العسكرية الأخيرة فتسيطر على المساحة المتبقية من البلاد وتنحصر في إدلب والمناطق المحتلة من قبل تركيا "عفرين وسري كانييه وكري سبي" وتنقسم إلى مجموعتين مجموعة جهادية متطرفة مصنفة على لوائح الإرهاب من قبل أمريكا والاتحاد الاوروبي والأمم المتحدة كهيئة تحرير الشام (التي قدرت الأمم المتحدة عدد مسلحيها بين 12-15ألف[7]) وحراس الدين (التي تقدر عدد مسلحيها 3500-5000ألف مسلح ونصفهم من الأجانب) المرتبطين بالقاعدة، ومجموعة موالية لتركيا كمرتزقة (حالياً تم حشدهم في جسم عسكري واحد تحت مسمى الجيش الوطني) وتم تشكيل هذه القوات بشكل خاص من أجل محاربة قوات سوريا الديمقراطية والقضاء على الإدارة الذاتية، وقد ساهمت باحتلال عدة مناطق تم ذكرها، ولا يوجد في برنامجها شن أي عمليات عسكرية على قوات النظام السوري في المناطق التي خسرتها المعارضة، وهناك تنافس بين المجموعتين حيث تحاول تركيا حل جبهة النصرة بموجب صفقاتها مع الروس ألا أن الفصائل الجهادية تقاوم محاولات حلها وبنفس الوقت يعطي الاحتلال التركي لجبهة النصرة مظلة يساعدها للحيلولة دون هجوم النظام وروسيا على المنطقة. أما القوى الأخيرة المتبقية والتي لا تمتلك سوى جيوب صغيرة فأنه تنظيم داعش الذي ينشط بقوة في الفترة الحالية وكثف من هجماته على جنود النظام السوري، وكذلك على قوات سوريا الديمقراطية، وقد قدر المسؤولون الأمريكيون عددهم بـ 14000-18000ألف مقاتلاً ينشطون في سوريا والعراق[8]، إلى جانب القوى المذكورة تحتفظ كل من تركيا وروسيا وإيران وأمريكا بقواعد عسكرية في أماكن نفوذها وتوزعها.

قوى المعارضة والائتلاف واستمرار الأزمة السورية.

تتحمل المعارضة السورية وعلى رأسها الائتلاف مسؤولية جزء لا يقل عن مسؤولية النظام السوري في معاناة الشعب السوري طيلة السنوات العشر الفائتة، فمنذ تشكل المعارضة وهي تعاني

من التشرذم والخلافات والتكتلات وتنقسم فيما بينها، إلى جانب غياب الوضوح في الأهداف السياسية الأمر الذي حول المعارضة من تمثيل قضية السوريين إلى تمثيل أجندات الدول الدولية والإقليمية على الساحة السورية، وأصبحت الحرب جزءاً لا يتجزأ من حياة الشعب السوري، حيث تم تهجير الملايين بسببها الى حياة التشرد واللاأمان ويبدو أن الكثيرين فقدوا الأمل في العودة إلى مناطقهم. بشكل عام واستناداً على ما سبق هناك عوامل ذاتية وموضوعية تكمن وراء استمرار الأزمة.

من خلال عوامل ذاتية؛ وتتعلق بمسارين، مسار يتمحور حول العلاقات الداخلية بين المعارضة السياسية ومسار يتعلق بموقفها من القضية الكردية، فالبنسبة لمسار العلاقات الداخلية بين المعارضة السياسية فقد طغى الخطاب الطائفي المتطرف على حساب الهوية الوطنية والديمقراطية لدى العديد من قوى المعارضة السورية، ويبدو أنّ همهم الوحيد كان استبدال الاستبداد البعثي بالتطرف الإخواني والإبقاء على جميع المؤسسات الأخرى، هذا الخطاب الطائفي منذ بداية الانتفاضة ساهم بشكل كبير في عزوف غالبية الكرد والدروز والعلويين المعارضين للسلطة وحتى الكثير من العرب عن الانضمام إلى صفوف المعارضة السياسية والعسكرية وتبني شعاراتها ومشروعها السياسي، بل خدمت هذه الخطابات بشكل كبير النظام السوري وساهمت في زيادة التفاف بعض المكونات حوله كون (النظام السوري) أقنعهم بأنه في حال رحيله فسيتعرضون إلى إبادة عرقية أو طائفية على يد الإخوان والجماعات التابعة لها.

فافتقادها لرؤية مفصلة لسوريا وتأجيل كل شيء إلى ما بعد سقوط نظام بشار الأسد أثار الشكوك لدى جميع المكونات حول ما إذا كانت المعارضة بالفعل بديلاً يمكن الاعتماد عليه بعد النظام السوري؛ كما أن فقدانها لإيديولوجية وطنية محددة وقيادة كاريزمية أو هيئة تنظيمية مركزية فتح الباب أمام تعدد المنصات والأجسام السياسية المعارضة، والمشاركة في الاجتماعات المنعقدة بخصوص سوريا بوفود مختلفة وحتى آراء مختلفة الأمر الذي أفقد المعارضة السورية ثقة العالم وأولهم الشعب السوري؛ وما يعزز هذا الأمر البُعد الكامل عن معاناة السوريين والفساد الكبير المستشري بين أعضاء الائتلاف، وقيامهم بنهب الأموال التي كانت تأتي للشعب السوري بدلا من انشغالها بقضية الشعب الذي كان يأن تحت نير قصف النظام والروس كانت المعارضة منشغلة بكيفية تجميع رؤوس الأموال وصرف مليارات الدولارات على الاجتماعات الشكلية والتي كانت تنتهي بالشتائم والخلافات وتوصيفات بالخيانة والطائفية والعنصرية.

من ناحية أخرى هناك حضور دائم للغة التخوين بين أطياف المعارضة منذ نشوئها وإلى الآن، فكل طرف معارض يتهم الآخر بالخيانة والعمالة ويدعي الوطنية والبقية رهنوا أنفسهم لأجندات الدول الخارجية، إلى جانب عدم تقديمهم تنازلات لبعضها البعض لحساب المصلحة الوطنية؛ وكذلك الارتهان لدول إقليمية ودولية وتمثيل مصالحها وأجنداتها في سوريا؛ ولا يمكن نكران دعم ومساندة بعض قوى المعارضة (الائتلاف ومرتزقته) للاحتلال التركي في احتلال مناطق سورية كانت تنعم بالسلام والأمان ومحررة من عناصر النظام السوري ويقطنها مئات الآلاف من السكان الأصليين والنازحين الذين فروا من جحيم الحرب بين النظام والجماعات المعارضة له، وكذلك تقديم هذه القوى للمساعدة في عمليات التغيير الديمغرافي والإبادة الثقافية الممنهجة للمناطق الكردية. وتسببت الصراعات البينية والتنافس على المناصب التي لا قيمة لها في إضعاف موقف المعارضة، حيث فاقت حالة التناحر والتنافر بين مختلف أطياف المعارضة تناحرها مع النظام السوري نفسه. بالإضافة إلى عدم قدرتهم وإلى حد الآن كسب الإدارة الذاتية ومجلس سوريا الديمقراطية إلى صفها. قد يعود سبب كل ذلك إلى كون المعارضة لم تنشأ في ظروف موضوعية تمكنها من تحديد السياسات واتخاذ القرارات المستقلة التي تراها مناسبة للشعب السوري.

أما بالنسبة لمجلس سوريا الديمقراطية وعلى الرغم من توفيرها للأمان النسبي للشعوب في شمال وشرق سوريا، والحفاظ على الهوية الوطنية ووحدة البلاد من التقسيم، وتحقيق مكاسب نسبية في العديد من المجالات السياسية والعسكرية، إلا أن هذا المجلس بكونه الجناح السياسي للإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا كان عليها تقديم جهود أكبر طيلة المرحلة الفائتة من عمر الأزمة السورية، وهي فرض نفسه كقوى سياسية رئيسية في المنطقة والمشاركة في الاجتماعات المنعقدة بخصوص سوريا والاستفادة سياسياً بشكل أكبر من النجاحات العسكرية التي قدمتها القوات التابعة لها (قسد) كاعتراف سياسي بمشروع الإدارة الذاتية، إلى جانب عدم قدرتهم على لم شمل المعارضين الوطنيين (على الرغم من قلتهم) لحد الآن تحت مظلة واحدة هدفها إيجاد حل سياسي للأزمة المستمرة، وعدم تخطيهم في مشروع الإدارة الذاتية إلى خارج مناطق شمال وشرق سوريا فمثلاً منطقة السويداء أعلنت في مناسبات عديدة إعجابها بتجربة الإدارة الذاتية، وكان على المجلس أيضاً بذل المزيد من الجهود السياسية للحيلولة دون الهجوم التركي واحتلاله للمنطقة، هذه الأمور المذكورة شكلت بدورها عوامل إضافية في استمرار الأزمة.

أما المعارضة العسكرية فهي الأخرى كالمعارضة السياسية فشلت في توحيد نفسها في كيان واحد وتحديد استراتيجيتها العسكرية والتحول إلى جيش وطني لحماية الشعب السوري، إلى جانب ظهور جماعات إرهابية كداعش وهيئة تحرير الشام، الأمر الذي زاد من معاناة المعارضة العسكرية التي كانت دائما منقسمة بين العلمانيين و الإسلاميين ولم تكن هناك رؤية متفق عليها للدولة المستقبلية، إلى جانب وجود تنوع كبير في أجندات وسياسات الجماعات المسلحة، سواء فيما يتعلق برؤيتهم لطبيعة وأهداف القتال أو رؤيتهم تجاه قضايا الديمقراطية والحرية والتعددية والنظام السياسي الجديد، لتتحول الأخيرة إلى جماعات منقسمة ومختلفة منها جهادية ومنها متطرفة ومنها معتدلة ومنها علمانية ليصل عددهم إلى ما يقارب ألف فصيل ولكل واحدة منها إيديولوجية وأجندة معينة، فالبعض يسعى إلى تأسيس إمارة إسلامية سلفية والبعض إلى دولة إسلامية وبعضها الآخر دولة مركزية السلطة ...إلخ، وبدلاً من تشكيل ممرات آمنة للشعب وتوفير ظروف الحياة لهم بدأوا بتطبيق الأحكام الشرعية على الشعب(الجلد وقطع اليد.. الخ) لقد أدى كثرة الفصائل المسلحة إلى التضارب في الأجندات وبدلاً من الحرب ضد النظام كانت المجموعات المسلحة المختلفة تقاتل بعضها لأن معظمها كانت تلهث وراء السلطة لنفسه، ولم يكونوا على استعداد لمشاركتها مع الجماعات الأخرى (تماماً كما كان يفعل النظام في عدم تقاسم السلطة مع الآخر) الأمر الذي أفقدهم ثقة العالم.

لقد فشلت الكثير من الفصائل المسلحة في كسب المجتمعات السورية حتى أن بعضها شنت هجمات على المناطق الآمنة والمحررة من قبضة النظام السوري وارتكابها انتهاكات تقشعر لها الأبدان ومثالها في تل حاصل وتل عران عندما تم قتل 50مواطناً كردياً واختطاف 350 شخص آخر[9] ولا يزال مصيرهم مجهولا إلى الآن، مع العلم بأن المنطقتين المذكورتين كانت محررة من النظام من قبل جبهة الأكراد المعارضة آنذاك، بالإضافة إلى الهجوم على سري كانييه عام 2012م ولاحقاً المساهمة الفعالة في تمكين الدولة التركية من احتلال أجزاء من شمال البلاد.

وبالتالي فإنّ الإيديولوجية المتطرفة لمعظم التشكيلات العسكرية وتبنيها لصراعات تاريخية قائمة على الصراع الطائفي ساهم في إضعاف استراتيجياتها العسكرية، وخدم رؤية النظام الذي اعتبر هذه الجماعات فصائل إرهابية. وكذلك عدم الاعتماد على القوى الذاتية والاعتماد الكلي على

[9] مركز توثيق الانتهاكات في شمال سوريا، مجزرة تموز في مدينتي تل عران وتل حاصل، 29يوليو 2019م، الرابط: https://vdc-nsy.com/archives/21449

الدعم الخارجي تسبب في تحولهم إلى مرتزقة تحت الطلب وتنفيذ الأجندة التركية الاحتلالية كميليشيا الجيش الوطني الموالي لتركيا، إلى جانب ربط مصيرهم بالتفاهمات والمقايضات التركية الروسية لتخسر المعارضة معظم المناطق الخاضعة لسيطرتها لصالح النظام وتحتل المناطق المحررة بدعم تركي، وبالتالي نحن لم نكن أمام مشروع وطني سوري نهضوي إنما حركات وتيارات وأمراء حرب وامتدادات للقوى الإقليمية والدولية.

موقف المعارضة من القضية الكردية.

يعتبر الكرد كغيرهم من القوى السياسية المنقسمة، في ظل الأزمة السورية إلى تيارين، الأول فضل الانضمام إلى صفوف الائتلاف الإخواني ومشاركته في آرائه ومشروعه السياسي والعسكري لمستقبل سوريا، أما التيار الثاني فقد فضل الحفاظ على مناطقه من جحيم الصراع الدائر على الاستئثار بالسلطة بعد الاتفاق مع المكونات الأخرى على ميثاق اجتماعي تمثل بالإدارة الذاتية الحالية في شمال ووشرق سوريا، لقد كانت لكل من تشكيلات المعارضة نظرة مختلفة عن الأخرى للكرد وللإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا، إلا أن الموقف الأكثر تعصباً كان من قبل الائتلاف الإخواني الموالي لتركيا وفيما يلي سنعرض بشكل عام موقف المعارضة للكرد بمختلف تشكيلاته السياسية.

نظرة المعارضة للمجلس الوطني الكردي ENKS.

تأسس المجلس الوطني الكردي في خضم الأزمة السورية بتاريخ 26 تشرين الأول عام 2011م في أربيل، وانضم المجلس إلى الائتلاف بتاريخ 2013/8/27م بموجب وثيقة عقدت بين الطرفين، على الرغم من رفض الائتلاف طلب المجلس في اللامركزية السياسية وإصرارهم على المركزية الإدارية، ومنذ الاتفاق بين الطرفين هناك انصياع كامل للمجلس الكردي لهيمنة الإخوان المسلمين، حيث استفرد الائتلاف بجميع القرارات لصالح كتلتهم إلى جانب التمثيل الضعيف للمجلس، والذي يكاد يكون غائباً في الاجتماعات الدولية وكأن مشاركته يقتصر في هذه الاجتماعات كإكمال عدد، ولم يفسح الائتلاف المجال أمام المجلس لممارسة دوره السياسي الأمر الذي ساهم في انسحاب بعض الشخصيات والتيارات منه، إلا أن المجلس الوطني ما زال شريكاً مع الائتلاف إلى الآن.

لم يحقق المجلس الوطني أياً من أهدافه السياسية التي كان يدعيها بتمثيل قضية الشعب الكردي وإيصال معاناته طيلة سلطة البعث إلى المحافل الدولية عبر انتزع ضمانة للكرد بعد انتهاء الأزمة السورية، ولم يستطع تحقيق أي مكسب سياسي ملموس طيلة مشاركته مع الائتلاف، بل تحول في معظم الأوقات إلى عائق أمام القضية الكردية عبر مشاركته بيانات الائتلاف بحق الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا ومن ضمنها الكرد وتوجيه اتهامات لهم، وكان باستطاعة المجلس التحول إلى معارضة وطنية للإدارة الذاتية عبر تسليط الضوء على أخطائها وتصحيحها بدلاً من حالة العداء معها، بالإضافة إلى عدم اتخاذ موقف صريح تجاه المناطق الكردية المحتلة بل قام بزيارة تلك المدن المحتلة التي تسيطر عليها مجموعات المرتزقة الموالية للدولة التركية. ولأن الائتلاف أصبح حكراً على جماعة الإخوان المسلمين التي تتلقى توجيهاتها من تركيا فنظرتهم إلى الكرد بشكل عام هي عدم منحهم ولو فرصة واحدة من أجل المطالبة بحقوقهم الديمقراطية لا الآن ولا لاحقاً، وتتخذ من المجلس كحصان طروادة من أجل تلميع صورتها أمام الرأي العام العالمي بأنهم مع الحقوق الكردية وقضيتهم، وتتعامل بانتهازية مع المجلس لحين القضاء على الإدارة الذاتية وتتخلص منهم بطريقة أو بأخرى.

بالنسبة لموقف الائتلاف من الحوار الكردي -الكردي الذي انطلق بمبادرة من قوات سوريا الديمقراطية وبرعاية غربية منذ ما يقارب العامين كان واضحاً ألا وهو إفشال هذه الحوارات عبر فرض شروطها وإملاءاتها على المجلس الوطني الكردي، وطرحها في هذه الحوارات بغرض إفشاله، وقد يكون الائتلاف سبباً مباشراً في توقف هذه الحوارات بعد زيارته الأخيرة لإقليم كردستان وتحريضه على الإدارة الذاتية وزيادة الشروط المسبقة وتعقيدها لإفشال هذه الحوارات والإبقاء على حالة الانقسام السياسي الكردي.

على الرغم من هذه السياسة المتبعة من قبل الائتلاف ومرتزقته بحق الكرد عامة والمناطق المحتلة خاصة ومبايعتهم لتركيا كوصية عليهم، وعلى الشعب السوري إلا أن المجلس الوطني الكردي لا يزال شريكاً للائتلاف، ويسير معه في طريق مجهول كحركة سياسية تناضل من أجل الحقوق الكردية في سوريا المستقبل كما تدعي، علماً أن الائتلاف الحالي لم يعد له قيمة أو مصداقية كبيرة لدى معظم الدول.

نظرة المعارضة للكرد في الإدارة الذاتية

منذ نشوء الإدارة الذاتية ككيان سياسي في شمال وشرق سوريا يعترف بحقوق جميع المكونات، وهي لا تحظى بقبول لدى معظم تيارات المعارضة السورية وخاصة الائتلاف الذي نصب نفسه عدواً لها، حيث اتهموا الكرد المنخرطين في هذه الإدارة بأنهم يسعون إلى إنشاء كيان انفصالي تارة، وتارة أخرى بأنهم يدعمون النظام السوري، وتارة يتهمونهم بالكفر والإلحاد، لذا يتبنى الائتلاف الاستراتيجية الإخوانية التركية القائمة على استهداف الوجود الكردي في المنطقة، والوقوف ضد أي مشروع من شأنه ضمان الحقوق الكردية، ولتحقيق ذلك بدأت وبمشاركة تركيا والمرتزقة التابعين لها بسلسلة من الهجمات على المنطقة، وتمكنوا من احتلال كل من عفرين وسري كانييه وكري سبي وممارسة عمليات واسعة لتغيير ديمغرافي ستكون لها نتائج كارثية في المستقبل.

لم يتوان الائتلاف وأعلامه بالتنسيق مع نظام أردوغان في الهجوم على الكرد والإدارة، وتجاوزت شوفينيتهم تجاه القضية الكردية والإدارة الذاتية شوفينية نظام البعث. كان باستطاعة الائتلاف كسب الإدارة كحليف استراتيجي في المنطقة وتوحيد قواهم في سبيل تحقيق التغيير المنشود في سوريا خدمة للمصلحة الوطنية، أما بالنسبة للمنصات المعارضة فنظرتهم للإدارة الذاتية والكرد تشبه نظرة الدولة الداعمة لهم، أما المعارضة الداخلية كهيئة التنسيق الوطنية فلها علاقات جيدة مع الإدارة الذاتية، إلا أنها لم تتطور إلى مستوى الاعتراف بالإدارة، وقد يسفر عن استمرار العلاقات بينهما في المستقبل عن توقيع مذكرات تفاهم جديدة.

على الرغم من موقف الائتلاف الشوفيني تجاه الإدارة الذاتية والكرد وقيامهم بمساعدة تركيا في احتلال مناطقها إلا أن مجلس سوريا الديمقراطية وجه لهم عدة دعوات من أجل حل الإشكاليات بينهم وحتى مشاركتهم في إدارة المنطقة، إلا أن تلك الدعوات كلها قوبلت بالرفض من الائتلاف ومن خلفه نظام أردوغان الذي يمنع جميع التشكيلات السياسية القابعة تحت سيطرته عن التعامل مع الإدارة الذاتية بسبب مخاوفها من نيل الشعب الكردي لأية حقوق ديموقراطية وتمنح الكرد اعترافا بالوجود. بل تبذل تركيا جهوداً للتوافق مع النظام السوري الذي حاربه على مدى عشر سنوات من أجل ضرب استقرار مناطق الإدارة الذاتية عبر التعاون الاستخباراتي، وبالاشتراك مع حلفائهم من المرتزقة. وقد سخرت كل علاقاتها وديبلوماسيتها المتعلقة بسوريا وإمكانياتها في سبيل الحيلولة دون نيل الكرد والإدارة الذاتية أي اعتراف في سوريا ، ويبدو أن تركيا تسخر الفوبيا الكردية داخلياً لتشريع أجنداتها الإقليمية.

العوامل الموضوعية

تتميز الحرب في سوريا بتعدد القوى الفاعلة وتضارب مصالحها، واختلاف أجنداتها ومشاريعها الاستراتيجية التي تمتد إلى دول أخرى في المنطقة، لذا تتحكم في هذه العوامل مسارين مسار يتعلق بنشاطات هذه القوى في جغرافية المنطقة ومسار يتعلق بالتفاهمات والصفقات الدولية.

نشاطات القوى في جغرافية المنطقة

تعتبر التدخلات الخارجية في الأزمة السورية بدون أدنى شك أحد أسباب تعقيدها وإطالة أمدها، فقد سعت كل قوة من القوى الفاعلة إلى تصفية القوى المنافسة لها سواء عبر تدخلها المباشر أو عبر جماعات مسلحة عميلة ومحظية لديها لتتحول الجغرافية السورية إلى ساحة لحروب الوكالة وتصفية الحسابات بين الدول الإقليمية والدولية، وسعي كل قوة منها لإيجاد موطئ قدم لها، فمثلاً الدولة التركية تسعى لإحياء الميثاق الملي أي اقتطاع أجزاء من شمال سوريا والعراق(من حلب إلى الموصل) وضمها للأراضي التركية، إلى جانب استكمال مشروع مخطط إصلاح الشرق 1925م الذي يسعى إلى عمليات تطهير عرقي وتغيير ديمغرافي تستهدف الكرد والعرب والمسيحيين في المنطقة بعد نجاح أجنداتها نسبياً ضد الأرمن والسريان في القرن الماضي، بالإضافة إلى إيصال جماعة الإخوان المسلمين إلى سدة الحكم في البلاد لتحويل سوريا إلى ولاية تابعة لأنقرة في سياق العلاقات السياسية والاقتصادية.

أما إيران فتسعى إلى إقامة جبهة متقدمة خدمة لصراعها الأيديولوجي مع الدول الغربية، خاصة إسرائيل وأمريكا، ونشر الأفكار الشيعية في المنطقة، وتسعى للحفاظ على النظام الحالي لضمان حسن سير مشروعها، بالإضافة إلى الحضور الدائم لمنع قيام أي كيان يمنح الكرد حقوقهم، وكذلك فإن وصولها إلى موانئ البحر المتوسط في سوريا ولبنان يساهم بفعالية كبيرة في كسر الحصار المفروض عليها ودعم القوى الموالية لها، لذلك تتخذ موقفاً معارضاً متشدداً تجاه المعارضة وتعمل على إضعافها وضمان تشتتها ومنع النظام من تقديم أية تنازلات لها.

بالنسبة لروسيا فهي على غرار إيران تسعى إلى توسيع دائرة نفوذها في الشرق الأوسط وإقامة قواعد عسكرية استراتيجية قد تساهم في كسر حصار حلف شمال الأطلسي لروسيا بالقواعد العسكرية، إلى جانب التواجد في مياه البحر المتوسط، وتعمل على إبقاء النظام الحالي لضمان أجنداتها خاصة في مجال احتكارها للغاز المصدر إلى الأسواق الأوروبية وتعطيل أي مشروع ينافسها في هذا المجال ويهدد أمنها القومي في نفس الوقت، ولا توجد مشكلة لروسيا في تغيير رأس النظام الحالي بل المهم لها بقاء النظام الحالي بمؤسساته الرسمية لضمان شرعية وجودها بحسب السياسات الدولية، كونها وقعت اتفاقيات مع السلطة التي تحظى بالشرعية الدولية وممثلة في مؤسسات الأمم المتحدة، وقد قامت بالكثير من الجهود لتشتيت المعارضة بشكل أكبر من خلال صفقاتها مع أردوغان وموقفها من المعارضة يتطابق مع الموقف الإيراني إلا أنّ لها سياسة خاصة بها في هذا المجال.

بالنسبة لأمريكا فهي تسعى إلى احتكار هيمنتها على المنطقة عامة وسوريا خاصة، ومنع تمدد نفوذ أي قوى منافسة لها خاصة روسيا وإيران وتركيا والصين، بالإضافة إلى إقامة جبهة متقدمة لحماية مصالحها الاقتصادية وقواعدها العسكرية في المنطقة، إلى جانب نقل ساحة الصراع مع الجماعات الأصولية الراديكالية بعيداً عن مناطق تواجد المصالح الاستراتيجية الأمريكية، ويبدو أن الحفاظ على أمن إسرائيل ومعاداة الحركات اليسارية لا يزال حاضراً في الاستراتيجيات الأمريكية، لذلك فأنها لا تضغط على المعارضة والنظام في توحيد وجهات النظر بينهما، حتى أنها لم تسع إلى

إشراك الإدارة الذاتية في الاجتماعات الخاصة بحل الأزمة السورية، يبدو أن استمرار الأزمة يصب لصالحها على غرار روسيا وإيران.

أما اسرائيل فهي الأخرى تسعى إلى الحد من النفوذ الإيراني وإيقاف نقل الأسلحة المتطورة إلى حزب الله، ومنع سوريا من تشكيل تهديد عسكري ملموس على أمن اسرائيل، أو السماح لإيران بفعل ذلك، ولذلك تراقب الخطوات الإيرانية عن كثب وتقوم بعمليات قصف تكاد تكون يومية للمخازن والمليشيات الإيرانية لاحتواء نفوذها، وبنفس الوقت الحفاظ على التوازن النسبي للصراع بين النظام والمعارضة وإنهاكهما بمعارك مستمرة.

أما الدول العربية فهي أيضاً تسعى إلى الوقوف في وجه التمدد الإيراني والتركي في المنطقة وخاصة في سوريا، وتسعى الدول العربية في الآونة الأخيرة لتطبيع علاقاتها مع سوريا بعد فشل مراهناته على الجماعات المعارضة من خلال السعي لإعادة تشغيل مقعد سوريا في الجامعة العربية، وقامت بعض الدول العربية بفتح سفاراتها لإعادة النشاط الدبلوماسي من جديد، ومحاولة إيجاد حل لأزمة في سوريا تتناسب مع الأمن القومي العربي إلا أن جهوده تصطدم بالنفوذين الإيراني والتركي لذلك ليس من مصلحتها انتهاء الصراع لصالح إحدى هاتين القوتين.

وبالتالي فإن الخلافات الإيديولوجية والاستراتيجية، وتضارب المصالح للدول الإقليمية والدولية في المنطقة تعد بشكل عام من العوامل الموضوعية الكامنة وراء استمرار الأزمة ليعقّدوا المشهد أكثر مما هو معقّد، وتصبح الأزمة السورية عصية على الحل ومرتبطة وبشكل كبير بالتوافقات الدولية والإقليمية على صياغة نهائية لمستقبل سوريا والمنطقة بشكل عام.

التفاهمات والصفقات الدولية

لقد عقدت الكثير من الاجتماعات والمؤتمرات السياسية الدولية بخصوص سوريا والتي كانت ترعاها بعض القوى الدولية أو الأمم المتحدة من أجل محاولة إنهاء الأزمة السورية عبر رعاية مفاوضات بين النظام والأطراف المعارضة، إلا أن أياً من الاجتماعات المنعقدة بخصوص سوريا لم تساهم بقيد أنملة في الدفع بالعملية السياسية وإنهاء الصراع المسلح على الأراضي السورية، وكانت بعض الاجتماعات المنعقدة بخصوص سوريا بمثابة إطالة عمر الأزمة ومعها معاناة الشعب السوري عبر إلغاء بعض الأطراف لإرضاء أطراف أخرى تربطها علاقات اقتصادية واستراتيجية، إلى جانب عقد البعض من الاجتماعات من أجل تحديد مناطق النفوذ بين الأطراف الدولية والإقليمية وتصفية المعارضة السورية وبمشاركة المعارضة نفسها، وغابت عن هذه الاجتماعات قضية الشعب السوري الذي انتفض من أجل واقع أفضل من الذي كان يعيشون به في ظل سلطة البعث.

يبدو من المفيد تقييم بعضاً من هذه الاجتماعات والمؤتمرات التي برزت فيها معارضة مقصودة بخصوص مشاركة الحركة السياسية الكردية السورية المستقلة فيها، ولاحقاً الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا؛ وفيما يلي سنتطرق إلى أبرزها:

محادثات جنيف.

شارك كلٌ من النظام السوري والمعارضة منذ حزيران عام 2012م في مفاوضات بوساطة الأمم المتحدة في إطار بيان جنيف الذي أقرته كل من الولايات المتحدة وروسيا، ويدعو البيان إلى إنشاء هيئة حكم انتقالية تتمتع بصلاحيات تنفيذية كاملة. ووفقًا للوثيقة، فإن مثل هذه الحكومة "يمكن أن تضم أعضاء من الحكومة الحالية والمعارضة والجماعات الأخرى، ويتم تشكيلها على أساس التراضي". ولم تحرز المفاوضات اللاحقة تقدمًا يذكر، حيث تبنى الجانبان تفسيرات مختلفة

للاتفاقية. فمثلاً ترى المعارضة أنّ أي حكومة انتقالية يجب أن تستبعد نظام بشار الأسد. بينما يؤكد النظام السوري أن الأسد قد أعيد انتخابه (عن طريق الاستفتاء) في عام 2014م، وتشير إلى أن بيان جنيف لا يطالبه صراحة بالتنحي.

لم تستطع المعارضة المشاركة في هذه المحادثات من تحقيق أي شيء ملموس كونها كانت مقسمة ومشتتة ومحتارة على تمثيلها، فالقيادة العسكرية لم تكن تعترف بالقيادة السياسية وبالعكس، إلى جانب خلافاتهم المستمرة والعقيمة على المناصب والتمثيل الأكبر من أجل طرح وجهة نظر الدولة المرتبطة بها والداعمة لها، حيث كانت تتجه نحو جنيف بوفود وآراء مختلفة إلى أن قامت الدول الراعية لها بتجميعها في الهيئة العليا للتفاوض كما ذكرنا سابقاً، والتي أصبحت فيما بعد حكراً على الائتلاف، باختصار كان دور المعارضة في محادثات جنيف هو الذهاب كقناصل لتمثيل رؤية الذين يأوونهم ويدعمونهم للحل في سوريا، ولم يكن يوجد في برنامجهم طرح المستجدات السورية أو الأمور التي طرأت على الساحة السورية منذ عشر أعوام، وكنتيجة لهذه الأمور لم يعد هناك شيء اسمه معارضة سورية تفاوض من أجل الشعب السوري في جنيف بل هناك معارضة ممسوخة تفاوض من أجل بقائها في مناصبها، ويتم استدراجهم إلى التفاصيل الصغيرة بعيداً عن مسارات الحل في البلاد.

لم تحقق هذه المحادثات منذ بداياتها على الرغم من كثرتها (9جنيفات) أي شيء يذكر للشعب السوري بل عمقت من مأساته ومعاناته أضعافاً مضاعفة، ولا يزال هناك تصلباً في موقف كل من النظام والمعارضة من أجل عدم تقديم تنازلات على طاولة المفاوضات، وتستمر محادثات جنيف بين النظام السوري وممثلي المعارضة إلى الوقت الحالي من دون تحقيق نتائج تذكر، استناداً إلى ما تم ذكره لا يوجد في المستقبل القريب بوادر خير بنجاح وانفراج في هذه المحادثات.

محادثات آستانة

وهي محادثات أطلقت من قبل روسيا وتركيا وإيران في العاصمة الكازاخية "آستانة" تلعب فيها روسيا دوراً رائداً، وذلك من أجل تنسيق العمليات القتالية بين الدول المذكورة على الجغرافية السورية، ومنع الاشتباك بينهم بعد عدة حوادث كادت أن تشعل حرباً بينهم لعل أبرزها إسقاط الطائرة الروسية من قبل تركيا في عام 2015م. عقدت أولى جلسات هذه المحادثات في كانون الثاني 23-24 عام 2017م بحضور وفد من النظام السوري، ووفد المعارضة والجماعات المسلحة وبمشاركة المبعوث الأممي إلى سوريا سابقاً ستيفان دي مستورا وبمشاركة أمريكا بصفة مراقب إلا أن الأخيرة انسحبت من المحادثات بعد حضور عدة جولات. وتم الاتفاق خلال الاجتماع على إنشاء مناطق خفض التصعيد أو التوتر في عدة مناطق سورية وتهدئة جبهات القتال.

إلا أن هذه المحادثات كانت بمثابة فخ قاتل للجماعات المسلحة التي تقاتل النظام السوري آنذاك، وذلك عبر استراتيجية روسية منسقة قائمة على السيطرة على المناطق الساخنة التي تسيطر عليها داعش ثم البدء بقضم الأراضي التي تشملها اتفاقية خفض التصعيد منطقة تلو الأخرى، لتسلم المعارضة المسلحة على إثر هذه المحادثات رقبتها لدولة الاحتلال التركي بشكل مطلق، ولتقوم الأخيرة بتحقيق أجنداتها عبر صفقات مع روسيا، وتخسر المعارضة معظم المدن الاستراتيجية التي كانت تتحصن فيها لصالح النظام السوري، ويتم شحن الجماعات المسلحة والمدنيين بالباصات الخضراء إلى منطقة إدلب الذي تحول إلى خزان بشري هائل وقنبلة موقوتة تهدد الأمن الإنساني والدولي، أما المدنيين والمسلحين الذين قرروا مصالحة النظام فهم يعيشون في خوف رهيب نتيجة الملاحقات الأمنية والاعتقالات اليومية على الرغم من الضمانة الروسية لهم. ويعتبر النظام السوري والروس من الرابحين بالدرجة الأولى في هذه المحادثات حيث سيطروا على مساحات

واسعة من سوريا بعد سلسلة من العمليات العسكرية ضد الجماعات المعارضة، ودون تقديم تنازلات سياسية كبيرة.

ومن نتائج محادثات آستانة أيضاً احتلال بعض مناطق الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا "عفرين وسري كانييه وكري سبي" بتوافق روسي وتركي وإيراني وسوري على هذه العمليات الاحتلالية والقيام بتهجير المواطنين الكرد واستيطان عوائل المرتزقة بدلاً منهم، وكذلك المهجرين من الغوطة الشرقية وحلب وغيرها بهدف تغيير ديمغرافيتها وهندستها بشكل يناسب الأجندات التركية في المنطقة، وأمام صمت دولي مطبق، وما زالت الانتهاكات مستمرة وتزداد بوتيرة مكثفة ضد الوجود الكردي في المناطق المحتلة، إلى جانب التسبب بكارثة إنسانية في إدلب من خلال اكتظاظ المخيمات بالنازحين ويبدو أن التهديدات والهجمات التركية المستمرة على عين عيسى وتل تمر وغيرها، والانسحابات الروسية التكتيكية من بعض قواعدها العسكرية ثم العودة إليها مجدداً، وقطع المياه والاغتيالات بحق سكان المنطقة، والضغط على الإدارة الذاتية وقوات سوريا الديمقراطية، بالإضافة إلى مناقشة الوجود الأمريكي في المنطقة وسبل إخراجه من المنطقة كلها من المواضيع التي تناقش بين الدول الضامنة في محادثات آستانة التي وصلت عدد جولاتها إلى 15 جولة، والتي تهدف في جميع بياناتها المشتركة إلى إضعاف قوات سوريا الديمقراطية والإدارة الذاتية التي يبدو أنها تحولت إلى عدو مشترك للأطراف المشاركة.

وتستمر هذه المحادثات بين الدول الثلاث بشكل دوري وقد تتفق هذه الدول على مخططات وصفقات جديدة في سوريا وخاصة بحق الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا كما فعلت سابقاً عبر الضغط عليها أكثر من أجل تقديم تنازلات أو حتى إجبارها على الانسحاب من بعض المناطق عبر مقايضات روسية تركية جديدة.

مؤتمر سوتشي

بعد نجاح روسيا وحليفها النظام السوري في استثمار محادثات آستانة ذات الشق العسكري، وذلك عبر إعادة مناطق واسعة إلى سلطة النظام السوري، عمدت موسكو إلى عقد مؤتمر في سوتشي في 30 كانون الثاني 2018م بهدف إيجاد حل سياسي للأزمة السورية بحسب الاستراتيجية الروسية، وشارك في المؤتمر العديد من الشخصيات من داخل سوريا (شخصيات من مجلس الشعب ونقابات العمال وأعضاء من حزب البعث وغيرهم) ومن خارجها (الذين يدعمون الحل الروسي للأزمة السورية كرندة قسيس وأحمد الجربا وقدري جميل)، إلى جانب حضور كل من مندوب تركيا وإيران، وكذلك المبعوث الأممي إلى سوريا آنذاك ستيفان دي مستورا، في ظل غياب الدول الغربية التي رفضت المشاركة في هذا المؤتمر لأنها خارج مظلة الأمم المتحدة، ولا تتقيد بمحادثات جنيف كمخرج وحيد لحل الأزمة في سوريا.

أما بالنسبة للهيئة العليا للمفاوضات المعارضة فهي رفضت المشاركة في المؤتمر إلا أن تركيا حضرت بالنيابة عنهم وقبلت الهيئة مخرجات المؤتمر بعد انتهائه، كما رفضت الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا وممثليها السياسيين حضور المؤتمر بسبب الهجوم على عفرين من قبل تركيا ومرتزقتها وفسح روسيا للمجال أمام الهجوم على المدينة الآمنة. يبدو أن روسيا سعت لعقد مثل هذا المؤتمر لإعادة تشكيل العملية الدبلوماسية لتناسب الواقع العسكري والسياسي الجديد لروسيا والنظام السوري وتحقيق مكسب سياسي بعد الانتصارات العسكرية، وإيصال رسالة للمعارضة السورية بأنه لم يعد لديها الكثير لتفاوض عليه، ومن الأفضل لها أن ترضى بالحلول الروسية كتشكيل حكومة مصالحة بوجود نظام الأسد، إلى جانب رغبة روسيا في أن تحول الملفات التي من المفروض أن تناقش في جنيف إلى سوتشي وتثبيت رؤيتها لحل الصراع السوري بتعطيل جنيف.

إلا أن الجهد الروسي الكبير في سبيل إنجاح المؤتمر لم يحقق لها النتائج المرجوة على الرغم من تصريحاتهم المتكررة بأن المحادثات والمؤتمرات التي تنظمها موسكو هي من أجل خدمة محادثات جنيف والقرار 2254، بعد غياب معظم الأطراف الفاعلة في الأزمة السورية، إلا أن روسيا استطاعت من خلال مؤتمر سوتشي تشكيل لجنة من أجل كتابة الدستور السوري في جنيف.

اللجنة الدستورية السورية

تعتبر كتابة الدستور السوري من مخرجات محادثات جنيف لكن تم تأجيله لعدة مرات بعد خلافات بين المعارضة والنظام على تكوينها ولإضاعة الوقت من أجل إعطاء الأولوية للحسم العسكري، إلا أن مؤتمر سوتشي المنظم من قبل روسيا أعاد كتابة الدستور السوري للواجهة من جديد بعد أن فشلت روسيا في تمرير مسودة الدستور الذي كتبته واقترحته لسوريا في مناسبتين، لتبدأ اللجنة التي أنشئت في أيلول 2019م أعمالها بعد موافقة الدول الغربية والعربية تحت رعاية الأمم المتحدة.

تتكون اللجنة التي استغرق تشكيلها قرابة العامين، من 150 مندوباً 50 منهم يمثل النظام السوري 50 مندوباً من المعارضة (الهيئة العليا للتفاوض) وقائمة "الثلث الأوسط" تضم 50 مندوباً سورياً اختارتهم الأمم المتحدة من بين الخبراء القانونين في البلاد، وأعضاء المجتمع المدني والمستقلون السياسيون وبعض زعماء القبائل. اجتمعت اللجنة لأول مرة في جنيف في تشرين الأول 2019م، حيث شكلت مجموعة صياغة دستور أصغر تتألف من 45 عضواً، وبدون مشاركة الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا بعد فيتو تركي، وتم اختزال القضية الكردية بمشاركة عضو واحد من المجلس الوطني الكردي وتحت مظلة الائتلاف والمعارضة وليس لتمثيل القضية الكردية في سوريا.

كغيره من الاجتماعات والمحادثات التي حصلت طيلة السنوات العشر الفائتة بخصوص الحل في سوريا لم تحقق اللجنة الدستورية السورية أي تقدم من شأنه المضي بالحل السياسي، ولم تناقش أي مواد دستورية على الرغم من تجاوزها للجولة الخامسة من المفاوضات، حيث تغيب المحادثات الجوهرية والتي تلامس الواقع والبؤس السوري، وجميعها تصنف في خانة البروباغندا الإعلامية لكل من النظام السوري والائتلاف والدول الراعية لهم بهدف تحقيق أجنداتهم، إلى جانب إهمال الدول الغربية لأعمال هذه اللجنة واستيائهم من تعنت وتصلب مواقف الطرفين المشاركين. إنّ مسار اللجنة الدستوريّة بشكله الحالي يتناسب مع الرؤية الروسيّة التي عملت مع النظام على تكتيكات تفاوض من شأنها إغراق اللجنة بالتفاصيل، والابتعاد عن بحث دستور جديد للبلاد، لذا واستناداً إلى الفشل الذي لاحق الاجتماعات والمؤتمرات السابقة، يبدو أن أعمال اللجنة الدستورية سيتم عقدها من قبل الأطراف الراعية لهذه الاجتماعات إلى حين وصولهم إلى نفق مسدود يتم من خلالها إيقاف أعمال هذه اللجنة، أو إعادة تشكيل اللجنة من جديد وبمشاركة جميع الأطراف الفاعلة على الأرض في سوريا في حال رغبت الدول والأمم المتحدة في السير على الطريق الصحيح.

على الرغم من الاجتماعات والمؤتمرات والمحادثات طيلة السنوات الفائتة من الصراع لم تستطع هذه الاجتماعات المذكورة آنفاً في خلق مناخ سياسي هادئ بين القوى الفاعلة على الأرض السورية من أجل بدء عملية سياسية وعسكرية شاملة على مستوى سوريا بقدر ما ساهمت في إحداث شرخ بين هذه القوى عبر تغذية الصراعات بين هذه الأطراف في محاولة لإضعافها، واتهام بعض القوى السياسية بالانفصال عن البلاد ومحاولة تقسيمه كما حصل في اجتماعات آستانة ولا زالت مستمرة إلى الآن، إلى جانب عدم جدية القوى العظمى من أجل إيجاد حل للأزمة السورية عبر الضغط على الأطراف المشاركة في هذه الاجتماعات وغياب مؤتمر أو اجتماع يقوم بحلحلة

الأوضاع السياسية والعسكرية المعقدة على الأرض السورية، وإيجاد النقاط المشتركة الإيجابية بين هذه القوى.

وكان بإمكان المجتمع الدولي التركيز في محادثاته واجتماعاته بخصوص سوريا على عدد من النقاط من أجل ضمان مستقبل مستدام لسوريا والمنطقة، وهي طبيعة الحكم في سوريا بحكم تنوعها الإثني والثقافي الفريد وكتابة دستور على أساس هذا التنوع، وعدم تغيب أي طرف من الأطراف الفاعلة لإرضاء دول إقليمية؛ وكيفية تطهير منابع التطرف من خلال دعم القوات المحاربة لها، وكذلك إجبار الدولة التركية على الانسحاب من المناطق المحتلة، وإيقاف دعمها للتنظيمات المتطرفة ووقف عمليات التغيير الديمغرافي بحق أبناء المنطقة وعلى رأسهم الكرد، إلا أن الدول المتدخلة في الأزمة السورية فضلت مصالحها على مصالح الشعب السوري.

أما المعارضة السورية فكان دورهم كدور الممثلين في سيرك عملاق ضائعين وتائهين لم يتعرفوا على دورهم بعد في هذه الاجتماعات، ولأن معظمهم باعوا ذممهم بأثمان بخسة لتركيا كانت الأخيرة تعقد لهم اجتماع قبيل أي مؤتمر من أجل التنسيق معهم وتوجيههم بحسب الأهداف والاستراتيجية التركية، لذا لم يكن لديهم مشروع وطني واضح يمكن للمجتمع الدولي الاعتماد عليه وتطويره لإيقاف المحرقة السورية.

مستقبل المعارضة السورية

لقد فشلت المعارضة السورية بعد مرور عشر أعوام من عمر الأزمة فشلاً ذريعاً في تمثيل قضية الشعب السوري، وخلقت أزمة سياسية جديدة بانقساماتها ونزاعاتها، لذا تتحمل جزءاً كبيراً من معاناته. لم تستطع مجموعات المعارضة السياسية المقيمة بغالبيتها في المنفى في بناء جسور مع الداخل، وتحقيق هوية وطنية متماسكة، واستمر الحال كما هو عليه في الماضي بمشاكله وتناقضاته الإيديولوجية، لتبقى مشتتة وغير موحدة، إن هذه الأخطاء المرتكبة من قبل مختلف أطياف المعارضة، وعدم اتفاقهم على برنامج وطني إلى جانب مقابلة النظام لهذه الأحداث بالعقلية العسكرية الكلاسيكية القائمة على استهداف معارضيه ورفض أي شكل من أشكال تقاسم السلطة وضع البلاد في نفق مظلم ودوامة من العنف وإخراجه من سياقه التاريخي الطبيعي، ليدفع ثمن ذلك الشعب السوري بمختلف مكوناته ومناطقه.

استناداً إلى ما تم ذكره يبدو أن مصير المعارضة السورية ومستقبلها مرتبط بدرجة كبيرة في كيفية التخلص من النفوذ الخارجي وخاصة مسألة خضوع شقها الديني بشكل كامل لإرادة تركيا، ومدى قابليتها في إعادة النظر في توجهاتها العامة، وتصوراتها السياسية وإقامة رؤية جديدة استراتيجية هادفة إلى طرح ميثاق وطني بأجندة وأهداف سورية يضم جميع القوى المعارضة بمختلف انتماءاتها وتوجهاتها وبدون استثناء، وفك الارتباط مع جماعات الإسلام السياسي والقاعدة، والاجتماع مع بعضهم بدون شروط مسبقة، وإنهاء لغة التخوين وتوصيفات كالارتهان ومحاولة الانفصال السائدة بينهم، وتشكيل مرجعية سياسية من جميع السوريين، في حال رغبت التشكيلات السياسية السير على المسار الصحيح وإيجاد مخرج للأزمة وتحقيق أهدافها السياسية وإعادة بصيص من الأمل للشعب السوري بأن هناك أشخاصاً يعملون من أجل قضيته.

ويبدو أن هناك مسعى لمجلس سوريا الديمقراطية في هذا السياق من خلال نشاطات دبلوماسية تتمحور حول تنظيم مؤتمر موسع يضم جميع المعارضين الوطنيين في الداخل والخارج والمؤمنين بالحل السياسي للأزمة السورية، رغبةً منها في تقريب وجهات النظر بينهم، وتشكيل معارضة جديدة تمثل إرادة السوريين في التغيير وتدافع عن قضيتهم، وفي حال تشكل هذا المؤتمر وإنشاء

جسم سياسي جديد، باستطاعة مجلس سوريا الديمقراطية طرح مقترح على المنصات والهيئات المعارضة بنقل مكاتبها السياسية إلى أماكن سيطرة الإدارة الذاتية في حال رغبت هذه المنصات في الخروج من تحت العباءة الإقليمية والدولية وقبول الإدارة الذاتية كنموذج للحل في سوريا، بالإضافة إلى إمكانية تقبل الإدارة للاقتراحات والتعديلات التي قد تطرحها هذه المعارضة في بعض الجوانب الإدارية والسياسية للإدارة الذاتية التي من شأنها أن تخدم الحل في سوريا وتكون بعيدة عن الأجندة الدولية والإقليمية، ويحتاج لمّ شمل هذه المعارضة إلى جهود كبيرة جداً وإمكانيات هائلة، وحنكة سياسية، والتواصل مع كافة المكونات بهويتها الأصيلة.

لذا فإن نشوء جسم سياسي جديد من المعارضين غير المتشددين والمنفتحين على الحوار، والبدء بنشاط سياسي من مناطق الإدارة الذاتية كونها من المناطق الآمنة والمستقرة وتتبنى معايير ديمقراطية نسبياً على عكس مناطق سيطرة النظام السوري والائتلاف الإخواني هذا من شأنه أن يسهل من النشاط السياسي للمعارضون السوريون الراغبين في العودة، إلى جانب امتلاك الإدارة الذاتية لمشروع سياسي وطني غير انفصالي يضم مختلف المكونات السورية ومنفتحة على الحوار مع مختلف القوى، وقادرة على انتشال البلاد من الحالة والمأزق التي يمر بها في مختلف الجوانب، وللمنطقة رمزية خاصة لأنها كانت معقل لهزيمة تنظيم داعش التي أثمرت بجهود قواتها العسكرية العلمانية(قسد التي تضم مختلف المكونات السورية) التي تلقى قبول لدى الدول الغربية (التي تمتلك قواعد عسكرية في مناطق الإدارة لضمان هزيمة داعش وعدم عودتها مجدداً) وروسيا وحتى الدول العربية. فنشوء جسم سياسي في هذه المنطقة سيزيد الضغط على النظام السوري الذي أصبح على دراية وقناعة تامة بإن المعارضة التي لديه الإمكانيات والقدرات لتحقيق التغيير في سوريا وتلبي طموح مختلف المكونات السورية ينطلق من مناطق الإدارة الذاتية وليس الائتلاف الإخواني الذي أصبح ورقة ضغط بيد تركيا لـتأثير على المشهد السياسي في سوريا، لذلك لا يخشى النظام من مختلف تشكيلات المعارضة بما فيها الائتلاف بل يكرس جهوده السياسية والعسكرية والاقتصادية وبدعم من ألته الإعلامية لتشويه حقيقة المشروع السياسي للإدارة عبر كيد الاتهامات لها بالانفصال عن البلاد بغية إثارة لمشاعر القومية والدينية لدى البعض من المكونات كمحاولة لمتزيق العقد الاجتماعي وضرب استقرار المنطقة كأداة من أدوات الحرب الخاصة التي تستهدف المنطقة على مدة عدة أعوام من القوى المختلفة.

هذا وسيحظى الجسم الجديد بقبول الدول الغربية وحتى العربية، وبإمكان الأخيرة دعم مثل هذه المبادرات، لاسيما أن معظم تشكيلات المعارضة قد أسدل عليها الستار بسبب خلافاتها المستمرة، ونلاحظ ذلك في كلٍ من هيئة التفاوض ومنصة القاهرة وغيرها، فكل هذه المعارضة في حكم المنتهية والمنسقة ولم تعد تمتلك قاعدة شعبية لا داخلياً ولا خارجياً ولم تعد تمثل أحداً سوى منصاتها وهيئاتها وأجندات داعميهم. بالمقابل فإن فشل المعارضة في توحيد نفسها في جسم سياسي جديد سيساهم بشكل كبير في تحكم الائتلاف الإخواني في السيطرة على الهيئات والقرارات السياسية للمعارضة التي تتماهى مع التوجهات التركية في المنطقة، والتي قد لا تبشر بخير على مستقبل البلاد ويتجه به إلى حالة تشبه الانقسام السياسي والعسكري والاقتصادي في ظل وجود عوامل موضوعية وذاتية لهذا السيناريو.

بينما النظام السوري اختزل القضية والأزمة في سوريا طيلة هذه الأعوام التي أنهكت البلاد والعباد بأن ما يحدث في البلاد منذ عام 2011م ليس سوى مؤامرة كونية واستراتيجية غربية-إسرائيلية- خليجية منسقة هادفة إلى إسقاط النظام الحاكم في دمشق الذي يعتبر نفسه عضواً فاعلاً ضمن محور المقاومة التي تقودها إيران والتي تقاوم الإمبريالية الغربية بحسب ادعاءاتهم، حيث لا تغير في عقلية وذهنية النظام الحاكم في ظل تسلط الرؤية العسكرية على معظم قادته الذين

يصرحون مراراً وتكراراً بأنهم سوف يعيدون السيطرة على جميع الأراضي السورية؛ وقد قام النظام السوري في الآونة الأخيرة بإجراء انتخاباته الرئاسية التي تخالف جميع المحادثات والاتفاقيات والمعايير الدولية بشأن سوريا، بهذه العقلية الكلاسيكية ورفض جميع أشكال الحوار وقراءة الواقع المستجد بشكل صحيح وموضوعي يساهم بشكل كبير في إطالة الأزمة لسنوات متعددة.

أما الائتلاف الإخواني فهو لا يخطو خطوة بمعزل عن الأتراك الذين يحتلون المنطقة ويسعون لاحتلال مناطق أخرى بمساعدة مرتزقتها. فقد أقدم الاحتلال التركي إلى ربط إدارة هذه المناطق بشكل مباشر بإدارة المقاطعات الحدودية لتركيا، وتقدم المؤسسات المحلية التركية جميع الخدمات الأساسية؛ ويتم تدريس مناهج التعليم باللغتين العربية والتركية والتعامل بالعملة التركية بينما تفتح الجامعات التركية فروعًا محلية لها في المناطق المحتلة. وتهدف تركيا من هذه العمليات إلى إنشاء دويلة صغيرة منفصلة يسيطر عليها مرتزقته السوريين على غرار جمهورية شمال قبرص. ويبدو أن هناك محاولات من قبل تركيا، وبعض الدول الغربية من أجل دمج حكومة الإنقاذ التابعة للقاعدة مع الائتلاف، وتشكيل كيان ساسي وعسكري جديد في الشمال السوري بعد تصفية العناصر غير المرغوب بهم (السياسيين والعسكريين من القاعدة والمعارضين للاحتلال التركي) وتكريس حالة الانقسام على الجغرافية السورية.

فالنظرة الشوفينية من قبل كل من الائتلاف والنظام السوري والتهديدات المشتركة للإدارة الذاتية، ومحاولة القضاء عليها ورفض الحوار معها سيزيد من تشبث الإدارة بأهدافها السياسية للدفاع عن مناطقها ومكوناتها من السياسات الغوغائية التي ينتهجها هذين الطرفين، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى تأجيل الحل السياسي إلى أجل غير مسمى وتأزيم الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي وحالة الانقسام في البلاد.

بمعزل عن هذا السيناريو المذكور فلا يمكن الحديث عن أي تسوية للنزاع السوري من دون اتفاق الدول الإقليمية والدولية، وقد تحصل مقايضات دولية على الجغرافية السورية لم تكن في الحسبان.

أخيراً.

يبدو من الصعوبة بمكان معالجة تداعيات أخطاء المعارضة واستبداد السلطة المركزية وانتشال البلد من مأزقه؛ لقد تسببت الأزمة السورية إلى أكبر عملية لجوء ونزوح جماعي لم تشهدها البلاد من قبل، حيث يعيش ما يقارب 5 ملايين ونصف في تركيا والعراق ولبنان ومصر والأردن بحسب الأمم المتحدة[10] ما عدا البلدان الأخرى والنازحين في داخل المدن السورية والذين وصل عددهم إلى أكثر من 6 ملايين، وأصبح حلم معظم السوريين الحصول على خيمة لجوء تصون عائلاتهم، وفقدان حوالي 606 ألف شخص لحياته منذ بدء الأزمة بحسب آخر إحصائية المرصد السوري لحقوق الإنسان[11]، وتكبد البلاد لخسائر اقتصادية فادحة تقدر بنحو 442 مليار دولار بحسب لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا[12]، إلى جانب بلوغ الفقر إلى

[10] أخبار الأمم المتحدة، برنامج الأغذية العالمي: جائحة كوفيد- 19 تفاقم عوز اللاجئين السوريين، 23 حزيران 2020م،

[11] المرصد السوري لحقوق الإنسان، منذ انطلاقة الثورة.. أكثر من 606 آلاف شخصاً قتلوا واستشهدوا في سورية من ضمنهم نحو 495 ألف تمكن المرصد من توثيقهم بجهود حثيثة، حزيران 2021م،

[12] أخبار الأمم المتحدة، سوريا: 442 مليار دولار حجم الخسائر الاقتصادية بعد ثماني سنوات من الحرب، 23 أيلول 2020م، الرابط:
https://news.un.org/ar/story/2020/09/1062062

مستويات خطيرة وأصبح البلاد على حافة المجاعة حيث أصبح التسول مهنة بعض المواطنين، ويعيش أكثر من 80% من السوريين تحت خط الفقر[13] وكذلك انهيار قيمة الليرة السورية إلى مستويات قياسية، بالإضافة إلى الانتشار الكبير لمخيمات النازحين والمهجرين على امتداد الجغرافية السورية وبعضها تشبه الألغام الموقوتة كما في مخيم الهول، إلى جانب هذه الإحصائيات المذكورة فقد تعرضت البلاد إلى احتلال مباشر من قبل تركيا والمرتزقة التابعين للائتلاف، وانتشار الوجود والقواعد العسكرية لكل من روسيا وإيران وأمريكا بشكل واسع الأمر الذي يفسّر تحول البلاد إلى ساحة صراع إقليمي ودولي.

ويبدو أنّ الحوار الداخلي الاستراتيجي من أهم الحلول التي قد تخدم قضية السوريين في هذه الأوقات الصعبة التي يمر بها الشعب بكافة مكوناته ومناطقه من أجل تذليل العقبات وبناء جدران من الثقة بينهم بعد عشرة أعوام عجاف من عمر الأزمة في بلادهم، وإذا كانت المعارضة السورية جادة في خطاباتها السياسية التي تبنتها منذ عشرات السنيين بدمقرطة سوريا والحرية لكافة مكوناته للعيش بكرامة بدون تمييز أو تفريق بين طائفة أو أثنية أو مكون فعليها المصالحة مع الشعب من جديد عبر حوارات سورية - سورية هادفة لإنقاذ البلاد من الحالة التي يرثى لها وكما يقال(أن تصل متأخراً خيرٌ من أن لا تصل أبداً)، عبر توحيد صفوفها وتفضيل لغة الحوار البناء على لغة السلاح لإيجاد حل سياسي يضمن عودة طوعية ومستدامة للاجئين والمشردين السوريين، وإعادة إعمار البلاد بعد أن مزقتها الحرب وليعيش الشعب بأمان بعيداً عن أصوات الأسلحة والإيديولوجيات الدوغمائية ذات الامتدادات الإقليمية، فالأزمة في سوريا أثبتت لجميع القوى السياسية والعسكرية بأن أي حل للأزمة الراهنة لن يكون إلا سياسياً وبمشاركة جميع القوى السياسية الفاعلة، وإلا فالحلول العسكرية لن تعود بالخير على أحد ولن تجلب سوى الدمار والقتل والتهجير للشعب السوري الذي يعرف معنى هذه الأشياء كثيراً وذاقها على مر الأعوام العشرة الفائتة.

[13] أخبار الأمم المتحدة، الاحتياجات في سوريا هائلة والمساعدات تغطي الحد الأدنى فقط، 13آذار 2019م، الرابط: https://news.un.org/ar/audio/2019/03/1028831

السياسة الدفاعية للمعارضة السورية الإسلامية

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

مقدمة

لا شكّ أنّ تيارات الإسلام السياسي المتطرف في المعارضة السورية فشلت في تحقيق مشاريعها الخاصة بالبلاد، ولسان حالها في الآونة الأخيرة يشير إلى هذه الحقيقة، يبدو أنها أصبحت في وضع دفاعي وفقدت المبادرة في الهجوم سواء على جبهات القتال أو تنفيذ عمليات مؤثرة في عمق عدوها الرئيسي المفترض (النظام السوري) بعد فقدانها لقوة حاضنتها الشعبية على امتداد جغرافية البلاد نتيجة لسياسات خاطئة أو فاسدة، إلى جانب ازدياد الاختلاف بين تياراتها لعوامل تتعلق بالأيديولوجيا والمنافع المادية الأمر الذي خلق قوى معارضة داخل هيكل المعارضة نفسها، قد يكون هذا أحد الأسباب في تشتتها بين مجموعة من القوى الإقليمية والدولية التي تتعامل براغماتياً مع الأزمة التي تشهدها البلاد. حيث تتزاحم هذه التيارات حالياً في بقع جغرافية صغيرة نسبياً محتلة من قبل الدولة التركية أو خاضعة لهيمنتها.

إنّ فشل هذه التيارات أدى إلى تحولها إلى مشكلة حقيقية بالنسبة للسكان المقيمين في المناطق الخاضعة لهيمنتها وفي المناطق المجاورة لمسرح عملياتها العسكرية بالإضافة إلى تحولها لعائقٍ أمام الحلول السياسية الممكنة لأزمة البلاد. إنّ ما تم ذكره يُعبّر نسبياً عن أخطاء استراتيجية ارتكبتها قيادات هذه المعارضات (العسكرية والسياسية) ويشير إلى ضعف في قراءة وتحليل المشهد السياسي والأمني، المحلي والإقليمي والدولي؛ كل هذا الأمور إلى جانب العنف الذي يمارسه النظام السوري تعد من العوامل الرئيسية في استمرار الأزمة التي تشهدها البلاد وما يتخللها من دمار وقتل وفقر وبؤس ومعاناة واحتلال.

في خضم هذا المشهد تتبع القوى الرئيسية في المعارضة سياسات دفاعية براغماتية للحفاظ على هياكلها السياسية والعسكرية والإدارية بأي ثمن كان، وتوظف الديماغوجية في إبقاء ولاء حاضنتها الشعبية لها من خلال خلق أعداء وهميين لها (كالإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا) التي يصفها بمصطلحات بعيدة عن الواقع بغرض التضليل، وكذلك الترويج لخطر التعرض لعمليات إبادة جماعية ذات نزعة طائفية (علوية- شيعية) في المناطق التي تتركز فيها من قبل النظام السوري وحلفائه، وتستثمر أيديولوجية الإسلام السياسي المتطرف (الإخوانية- السلفية) في دعم هذه السياسات وخلق أمل وهمي بالنصر، واقصاء كل من يقع خارج حدود عقيدتها السياسية.

تحاول هذه الدراسة تقييم السياسة الدفاعية للمعارضة السورية بشقها الإسلامي وذلك بالاطلاع على مجموعة من الآراء السياسية الخاصة بمجموعة من مراكز الدراسات العالمية وما يتوفر من معلومات من مصادر محلية عن المناطق الخاضعة لسلطتها وبعض المؤسسات المعنية بحقوق

الإنسان والتقارير الإعلامية التي ترصد الوضع في مناطق المعارضة، وكذلك الاستناد على علاقاتها مع القوى الإقليمية والدولية الفاعلة في الأزمة السورية.

مفهوم السياسة الدفاعية.

يبدو أنّ هذا المصطلح جديد نسبياً على الكثير من المهتمين بالسياسة والأمن في المستوى المحلي، على الرغم من أنه يُمارس بشكل عفوي في مختلف النشاطات والأعمال المُكرّسة لتحقيق مكاسب معينة بعد تذليل الصعوبات والعوائق الكامنة وراء بلوغها؛ وللوصول إلى مفهوم واضح للسياسة الدفاعية من المفيد البحث في مفهومي كلٍ من السياسة والدفاع؛ بالنسبة للسياسة تكاد معظم الثقافات متفقة على مفهوم واحد ويشتق تعريفها منه وهو المفهوم الإغريقي للسياسة بكونه (فن إدارة المدينة) أي أنه يجمع بين السلطة والإدارة، بمعنى أنها أسلوب تعامل السلطة مع المجتمع؛ وهذا ما يقودنا إلى التطرق لعلاقة السياسة بالعلاقات داخل المجتمع الواحد وطريقة التعامل فيما بين أفراده، هنا من المفيد الإشارة إلى تعريف المفكر أوجلان للسياسة كظاهرة اجتماعية ويعرفها على أنها " تحقيق تطور المجتمع من خلال إدارة شؤونه بحرية، وتأمين رقي الفردانية فيه... أنها مساحة حرية المجتمع ومساحة الخَلقِ التي يزداد فيها التطور معنى وإرادة... هو إدراك المجتمع لذاته ولهويته فكراً وممارسةً، وتطويرُه إياهما، ودفاعه عنهما..."[1] ويعتبر الأخلاق شكلاً من أشكال السياسة. بالنسبة للسياسة على المستوى الفردي تقدم الموسوعة السياسية (الإلكترونية) تعريفاً للسياسي بأنه "الشخص الدبلوماسي الذي يتصف بالمرونة والقدرة على توظيف واستخدام كل الموارد والوسائل والأدوات المتاحة للوصول إلى أهداف أو غايات محددة، بصرف النظر عن مشروعية أو عدم مشروعية هذه الأهداف والغايات..."[2]؛ وهناك من يربط السياسة بمفهومي البراغماتية والديماغوجية. استناداً على ما تم ذكره يبدو أن التعبير " فن إقامة وإدارة العلاقات لتحقيق مكاسب بشكل مؤقت أو دائم" مناسباً لتوضيح المفهوم العام للسياسة، وتم اختيار كلمة (فن) كون احترافها يرتبط بموهبة الفرد الابداعية. بالنسبة للدفاع تكاد معظم الثقافات متفقة على مفهوم واحد لها وهي (ردع الخطر) أي المقاومة بأية وسيلة لأي شيء يمكن أن يتسبب بضرر مادي أو معنوي، للمجتمع أو الفرد؛ يبدو أن ماهية الضرر تختلف من عقيدة فرد إلى أخرى.

وبحسب بعض الدراسات الحديثة نسبياً تُعبّر السياسة الدفاعية عن الإجراءات المتخذة لتنمية وتنسيق كامل الطاقات السياسية والعسكرية والاستخباراتية والاقتصادية والثقافية والتسليح اللازم وتطبيع بعض العلاقات المناسبة وتحييد بعضها الآخر التي يمكن أن تشكل خطراً، والتعامل مع استراتيجية المنطقة الرمادية[3] لمواجهة مختلف الأخطار والتهديدات على أسس تقييمها كماً ونوعاً في حالتي السلم والحرب، وتؤثر أيديولوجية السلطة القائمة على طبيعة هذه السياسة.

---

[1] عبد الله أوجالان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية/ القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية (دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكّي الإبادة الثقافية)؛ المجلد الخامس- الطبعة الثالثة؛ ترجمة من التركية: زاخو شيار؛ مطبعة الشهيد هركول؛ ص28.

[2] الموسوعة السياسية؛ مفهوم علم السياسة - The concept of political science؛

[3] استراتيجية المنطقة الرمادية شكل من أشكال الحرب الهجينة، وهي حالة نزاع تقع بين حالتي الحرب والسلام وتمارس فيها أفعالاً سرية بشكل مباشر أو من خلال وكلاء بطريقة يسهل إنكارها ولا يضع الخصم في موقف محرج يدفعه للتصعيد والصراع المباشر، كعمليات الاغتيال وتنفيذ هجمات عسكرية بصواريخ أو طائرات مسيرة واستهداف الشحن

استناداً على ما سبق يمكن تقديم تعبيراً للسياسة الدفاعية بأنها مجموعة من الإجراءات والتدابير والسلوكيات الدبلوماسية الطابع[4]، الكفيلة بحماية كيان ما من الأخطار والأضرار، ويضمن إدارته الذاتية لشؤونه، في إطار عقيدة هذا الكيان؛ ويمكن اسقاطه على الفرد أي لكل فرد سياسته الدفاعية لتحقيق أمنه الإنساني، هنا يمكن تقديم تعبيراً آخر لها في المستوى الفردي بأنها الوسيلة التي تضمن قدرة الفرد على الإدارة الذاتية لشؤونه الخاصة وتأمين احتياجاته المادية والمعنوية، ومقاومة الأخطار ومعالجة الأضرار التي قد تحدث؛ لذا بالنسبة لبراديغما الأمة الديمقراطية يبدو مفهوم السياسة الدفاعية أقرب ما يكون إلى مصطلح نظام الدفاع الذاتي[5].

وبالتالي لكل كيان مهما كان نوعه وشكله، سياسي أو اجتماعي أو ثقافي أو اقتصادي أو عسكري... إلخ، سياسة دفاعية خاصة به يتم صياغتها وفقاً لنوع وشكل الأخطار والتهديدات، لذا يمكن وصفها كأنشطة تكتيكية بغرض تحقيق الاستراتيجية (الأهداف البعيدة المدى)؛ كما أنها تعدّ ضمانة لتماسك التنظيم وحمايته مسبقاً من أخطار يحتمل وقوعها في المستقل القريب أو معالجة تداعيات أضرار واقعة.

البنى التنظيمية للمعارضة الإسلامية

تنحصر المعارضة الإسلامية السورية بعد الإخفاقات السياسية والعسكرية التي منيت بها في منطقة جغرافية ضيقة نسبياً تضم أقصى الريف الشمالي لمنطقة اللاذقية وإدلب والريف الشمالي والغربي والشرقي من حلب والمناطق المحتلة (عفرين- تل أبيض/كري سبي- وسري كانييه)؛ يتقاسم الهيمنة على هذه المناطق قوتين عسكريتين تتحكمان بإرادة باقي الفصائل المسلحة الأضعف منها، هما هيئة تحرير الشام (السلفيين)[6] وتتخذ من ما تسمى بحكومة الإنقاذ مظلة سياسية وإدارية لها في المناطق التي تسيطر عليها، وميليشيات الجيش الوطني (الإخوان المسلمين) الموالية للدولة التركية والتي تتخذ من الائتلاف السوري لقوى المعارضة والثورة مظلة سياسية لها كما وتتخذ من

الدولي والتأثير في الانتخابات والهجمات السيبرانية والاستعراض الرمزي للقوة كنشر قوات الناتو في ليتوانيا لمنع هجوم الروس عليها وفرض عقوبات على دولة تملك مصالح اقتصادية مع دولة أخرى كقانون قيصر على سبيل المثال، واستهداف قادة من الصف الثاني كاستهداف قاسم سليماني الذي يعد من أبرز المنخرطين في هذه الاستراتيجية وذلك بغرض تفادي الصراع المباشر الذي قد يكلف خسائر كبيرة للطرفين المتصارعين، كمثال تتبع كلاً من إيران وأمريكا هذه الاستراتيجية في الشرق الأوسط

[4] باعتبار أن الدبلوماسية بمفهومها العام هي فن التفاوض ونسج العلاقات في سبيل كسب مواقف سياسية معينة أو تحييدها أو إضعافها...

[5] لمعرفة مفهوم نظام الدفاع الذاتي في الأمة الديمقراطية مراجعة:
عبد الله أوجالان؛ مانيفستو الحضارة الديمقراطية/ القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية (دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكّي الإبادة الثقافية)؛ المجلد الخامس- الطبعة الثالثة؛ ترجمة من التركية: زاخو شيار؛ مطبعة الشهيد هركول؛ ص466.

[6] الممثل الرئيسي لهذا التيار هي جبهة النصرة التي تأسست عام 2011م بتمويل قادم من دول الخليج العربية باعتبارها فرعاً من القاعدة، ولاحقاً اعلنت انفصالها عن القاعدة عام 2017م، وشكلت مع حركة نورالدين زنكي ولواء الحق وجيش السنة وجبهة أنصار الدين هيئة تحرير الشام، وتهدف الى إقامة حكم إسلامي في سوريا وطرد الميليشيات الإيرانية. يتلقى التنظيم ضغوطا من قبل كل من تركيا والنظام وداعش والجبهة الوطنية للتحرير التي تضمن احرار الشام وجيش الاحرار وصقور الشام. أنشأت الهيئة حكومة الإنقاذ بتاريخ 2 تشرين الثاني عام 2017م ضمت أكاديميين وهيئات محلية تحت شعار انقاذ ادلب...

ما تسمى بالحكومة المؤقتة[7] مظلة إدارية لها في المناطق التي تسيطر عليها. بشكل عام هناك علاقة تكافلية لهاتين القوتين مع الدولة التركية التي يبدو أنها تفضل الإخوان المسلمين على السلفيين الذين يمتلكون تعاطفاً نسبياً تجاه الحركة الوهابية التي قاومت سلطة السلطنة العثمانية. تواجه سياسة هاتين القوتين مقاومة شديدة من قبل قوى معارضة أخرى لها، تتمثل هذه المقاومة بقوات تحرير عفرين التي تتركز مسرح عملياتها العسكرية في المناطق الكردية المحتلة (غربي نهر الفرات) من قبل الدولة التركية ومرتزقتها من الجيش الوطني، وهي قوات علمانية تؤمن بالديمقراطية لحل الأزمة التي تشهدها البلاد وتضم مقاتلين محليين وتخوض حرباً ثورية مشروعة ضد المحتلين الأتراك لأجزاء من جغرافية البلاد، أما القوة الثانية فهي التنظيمات التي لا تزال متعصبة لأيديولوجية تنظيم القاعدة وترفض علناً السياسة المرنة نسبياً التي تمارسها هيئة تحرير الشام في علاقاتها الخارجية، وتصرّ على نهج الجهاد العالمي لمحاربة الصليبيين واليهود وحلفائهم بحسب أدبياتها الفكرية، وتؤمن بدولة الخلافة الإسلامية لحل أزمة البلاد، هذه القوة تضم مقاتلين أجانب إلى جانب مقاتلين محليين، وتخوض تنافساً من أجل النفوذ والهيمنة ضد هيئة تحرير الشام إلى جانب استهداف بعض المصالح العسكرية التركية والروسية والنظام السوري في بعض الأحيان، يبدو أن هذه القوة أصبحت مؤخراً عاجزة عن مواجهة الضغط الممارس عليها من قبل كلٍ من هيئة تحرير الشام والدولة التركية وروسيا وأصبحت أفغانستان بعد الانسحاب الأمريكي منها ساحة محتملة لنشاطها، فمثلاً تم الطلب مؤخراً من قائد كتيبة "جنود الشام القوقاز" المدعو "مسلم الشيشاني" بتفكيك كتيبته أو مغادرة المنطقة إلى أفغانستان[8] حيث يشير المراقبين إلى سعي هيئة تحرير الشام لفرض سيطرتها المطلقة على كامل المنطقة؛ وهذا ما يشير إلى إخفاق القوى الإسلامية بالمعارضة السورية في خلق مناخ سياسي يساهم في حل الأزمة التي تشهدها البلاد عبر التوحد في هيكل سياسي وعسكري واحد، الأمر الذي تسبب بخلق معارضات أخرى داخل المعارضة نفسها، مع استمرار تبعية مقاتلي الفصائل العسكرية لزعمائهم، بالتزامن مع تنافس هذه الفصائل على النفوذ ومحاولة كل واحدة القضاء على الأخرى أو إضعافها، وتعد العصبية المناطقية والأيديولوجية والعشائرية المختلفة لكل فصيل من أبرز المسببات لحالة التشتت لهذه المعارضة وفقدانها لعاطفتها الوطنية. لذا على الرغم من التوحد الظاهري لبعض قوى المعارضة الإسلامية[9] إلا أنها تعاني من انقسامات بنيوية يمكن أن تولد نزاع دموي آخر قد يستنزف طاقاتها ومواردها، ويتسبب بالمزيد من الإخفاقات لها ومنح انتصارات مريحة للنظام السوري وحلفائه، وتبدو مسألة تأجيج الساحة الأفغانية بعد الانسحاب الأمريكي منها واحتمال تمدد الصراع إلى الحدود الغربية للصين والحدود الشرقية من إيران متنفساً جديداً للفكر الديني المتشدد.

---

[7] الحكومة المؤقتة تأسست في عام 2013م إثر مؤتمر عقد في إسطنبول. تتخذ من عنتاب مقراً رئيساً لها وتهيمن شكلياً على مناطق جرابلس والباب واعزاز ومارع وعفرين؛ تتولى عملياً ولاية كلس وهاتاي الاشراف على الخدمات والإدارة وتقديم الدعم اللوجستي ودفع الرواتب وصيانة البنية التحتية، ويُرفع بشكل واضح العلم التركي إلى جانب علم الثورة الأخضر في كل المؤسسات العامة والمخافر وأجهزة الأمن والمدارس والمشافي، وكذلك الأمر بالنسبة لصور الرئيس التركي أردوغان...

[8] الميادين نت؛ تنظيم "جنود الشام القوقاز" في سوريا يعلن حل نفسه؛ تاريخ النشر: 2021/7/9م.

[9] هنا تبرز أهمية خلق عدو وهمي آخر لكل هذه الفصائل، يشترك الجميع في محاربته، ويبدو الكرد هدفاً مناسباً لها بسبب النزعة القومية لهذه الفصائل، وذلك بعد سلسلة اتفاقياتها مع النظام السوري بضمانة روسية-تركية وإجراء مباحثات مباشرة معه في اللجنة الدستورية، وخسارتها لمعظم المناطق التي كانت تسيطر عليها...

مقوّمات السياسة الدفاعية للمعارضة الإسلامية

تنقسم المعارضة الإسلامية السورية بشكلٍ عام إلى تيارين، إخواني وسلفي، متنافسين ومتخاصمين أيديولوجياً، ينتهجان سياسة دفاعية مختلفة نسبياً عن بعضهما ومرتبطة بشكل وثيق بعقيدتهما السياسية؛ يتم صياغة هذه السياسة وفقاً لمسارين، مسار يتعلق بالعلاقات الخارجية ويتركز بشكل أساسي على التحالف الوثيق مع نظام أردوغان؛ والانخراط في أي عملية سياسية يمكن أن توقف التمدد العسكري للسلطة المركزية وحلفائها، والسعي لنيل قبول دولي لوضعها السياسي والعسكري، ومسار آخر يتعلق بعلاقاتها الداخلية حيث يمتلك كل تيار اتجاهاً خاصاً به يتعلق بكيفية تمكين هيمنته في المناطق التي يسيطر عليها والتمدد إلى مناطق أخرى وصهر الفصائل العسكرية الضعيفة نسبياً في قواتها المسلحة؛ بشكل عام تشكل العلاقة مع نظام أردوغان عاملاً مشتركاً لكلا المسارين.

العلاقات الخارجية

يتحالف التياران بشكل وثيق مع نظام أردوغان، وذلك بغرض الاستفادة من الغطاء الإعلامي والاستخباراتي، والناري (الجوي والمدفعي)، التي توفرها القوات المسلحة للدولة التركية في كلٍ من مناطق ما تسمى بخفض التصعيد حيث أصبحت نقاط المراقبة العسكرية التركية بمثابة حواجز أمام تقدم قوات النظام السوري وحلفائه وإعاقة شنّ أي هجوم حاسم على المعاقل الأخيرة للمعارضة؛ وفي المناطق المحتلة من روجآفا بغرض نهبها وتمكين عمليات الاستيطان والتطهير العرقي فيها، ونقل العديد من الفصائل العسكرية غير المنضبطة أو يصعب اخضاعها للتمركز فيها بهدف تحقيق نوع من مسافة الأمان أو التباعد الناري بين المجموعات المتنازعة أيديولوجياً في المناطق الخاضعة لسيطرتها بغرض تصفيتها تنظيمياً عبر تحويلهم إلى مرتزقة وزجهم في معارك مع قوات سوريا الديمقراطية إلى جانب عدم التدخل في الاقتتال الذي ينشب بينها أحياناً على الغنائم، وبنفس الوقت إلهاء قوات سوريا الديمقراطية بجبهات قتال أخرى بغرض تشتيت قوتها العسكرية؛ بالمقابل يقدم التياران مساعدة لجيش الاحتلال التركي في إبادة الكرد السوريين السكان الأصليين للمنطقة، من خلال إقامة المستوطنات والاستيلاء على ممتلكاتهم، كما ويمدّان نظام أردوغان (خاصة التيار الإخواني) بالمرتزقة لقتال شعوب أخرى في المناطق التي تسعى الدولة التركية للهيمنة عليها كأرمينيا وليبيا واليمن وكردستان وغيرها، مؤخراً يبدو أنّ التيارين أصبحا ورقة أردوغان الرابحة في أفغانستان من خلال وجود جيش من المرتزقة كوديعة تحت الطلب.

إنّ السياسة الدفاعية بالنسبة لهذا المسار قد تكون ناجحة في المستوى التكتيكي إلّا أنها تبدو خاطئة في المستوى الاستراتيجي كونها تلغي الهوية الوطنية للبلاد ويعرضها لخطر الانقسام، إلى جانب خلق مشاعر كراهية وحقد بين المجتمعات المحلية قد يستمر تداعياتها لسنوات طويلة، وقد تزيد من احتمال تعرض التيارين لعمليات انتقامية وطردها إلى خارج المناطق التي تسيطر عليها، ونقل المستوطنين الذين يشكلون حاضنتها الشعبية في المناطق المحتلة من المستوطنات إلى المخيمات، ذلك في حال تم بيعهم في سوق النخاسة السياسية على غرار الصفقات السياسية التي جرت بين أردوغان وبوتين، أو في حال انهار النظام التركي الحالي أو انسحبت القوات التركية من

المناطق المحتلة بضغط دولي، أو حصول المقاومة على أسلحة نوعية قادرة على تحييد سلاح الجو والمدفعية التركية؛ إلى جانب التسبب بخلق أعداء إضافيين لهما في المستوى الدولي بسبب قتالهم كمرتزقة في الاعتداءات الدولة التركية على بعض الشعوب. قد تخدم هذه السياسية الدفاعية بعض أمراء الحرب في المعارضة إلا أن لها تداعيات على المستقبل السياسي للبلاد، فاستعداء الكرد بذريعة أنهم انفصاليين يغطي أطماع الدولة التركية، القديمة والحديثة، في احتلال شمال سوريا وفقاً للميثاق الملي العثماني الباطل الذي يهدد الأمن الوطني للبلاد الضامن الوحيد للأمن القومي للكرد والعرب والسريان السوريين في الجغرافيا السورية، لذلك نجد الكثير من السوريين يستخدمون مصطلح الخيانة أو العمالة كأفضل وصف لهذه السياسة؛ وبالتالي يمكن القول بأنّ العلاقة الودية مع سلطة دولة محتلة لأجزاء من البلاد ويضطهد قسماً من مواطنيها مقابل الحفاظ على السلطة، التنظيمية والمالية والمعنوية، كسياسة دفاعية لزعماء المعارضة السورية ينسف التبرير الأخلاقي لمطالبهم بإصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية للبلاد وإنهاء الأزمة، والتي يتحججون بها لعسكرة الانتفاضة الشعبية السورية.

من ناحية أخرى يُبدي التياران استعدادهما للانخراط في أي عملية سياسية يمكن أن توقف التمدد العسكري للنظام السوري وحلفائه؛ ترتكز فيها على الخضوع الكامل للإملاءات التركية وتهميش باقي قوى المعارضة السورية الأخرى كالإدارة الذاتية وهيئة التنسيق الوطنية والمنصات المتعددة؛ بالتأكيد تتحكم الدول الفاعلة في الأزمة السورية خاصة تركيا وروسيا وأمريكا بمسارات العملية السياسية الخاصة بالأزمة السورية، وهناك قناعة لدى المعارضة الإسلامية باتخاذ نظام أردوغان كضامن لها على الرغم من أنه خذلهم في الغوطة وحمص وحلب وتسبب بفقدانهم مناطق واسعة لصالح النظام السوري وحلفائه، حتى أنه عجز عن إيقاف الضربات الصاروخية الروسية على بعض النقاط العسكرية للمعارضة . على الرغم من أن اتفاقيات خفض التصعيد أوقفت تمدد القوات المسلحة للسلطة المركزية وحلفائه باتجاه ما تبقى من جغرافية في يد المعارضة الإسلامية السورية، إلا أنها تبدو مكسباً مؤقتاً كونها تستند على براغماتية الدول الضامنة لاتفاقية خفض التصعيد وغياب ضمانات دولية وقرارات ملزمة من مجلس الأمن الدولي حتى أنها لم تتمكن على الأقل من استثمار قوى المعارضة الأخرى كورقة ضاغطة على النظام السوري وتأمين عمق استراتيجي لها في حال تعرضها لحصار خانق. كما أنّ التوقف المؤقت للقتال أجّج النزاعات بين أمراء الحرب في المعارضة على النفوذ والمال، ويشير التفجيرات والاغتيالات والاقتتال بينها وعمليات الخطف إلى هذه الحقيقة، وبنفس الوقت فسحت المجال للنظام بتكثيف نشاطاته الاستخباراتية والعسكرية وتحسين وضعه الأمني الداخلي وتعزيز مواقعه العسكرية. بالإضافة إلى ذلك وعلى الرغم من وجود اتفاقيات أمنية بينهما بخصوص ضبط التهريب على الحدود وتسليم المطلوبين وقتال قوات سوريا الديمقراطية هناك مشكلة عدم ثقة بين التيار السلفي والدولة التركية التي تسعى لاعتبارات عنصرية تاريخية إلى إيقاف تمدد الوهابية وما يتعاطف معها في مناطق سيطرتها بالتزامن مع مخططها في إبادة الكرد في روجآفا؛ بشكل عام لا تخضع هيئة تحرير الشام بقيادة الجولاني بشكل كامل للهيمنة التركية الأمر الذي يمنحها قوة تنظيمية ذات تأثير على الأرض بعكس الفصائل الأخرى، قد يعود ذلك إلى قناعة قادة التنظيم بكون الدولة التركية العضوة في حلف الشمال الأطلسي ذات عقيدة أمنية مخالفة للحركة الجهادية العالمية، كما أن زيادة التواجد العسكري

التركي في المناطق الخاضعة لسيطرة التنظيم يقلص من هيمنته العسكرية على هذه المناطق، وكذلك توجد تكهنات بوجود صفقة بين بوتين وأردوغان وبرضى غربي على تفكيك هيئة تحرير الشام وتدميرها واغتيال قادتها[10]، الأمر الذي يشير إلى أن السياسة الدفاعية للتيار السلفي يعاني من ضغوطات ومآزق كبيرة وبات يركز على ضمان وجوده أكثر من ضمان مصالحه وأهدافه، قد يفسر هذا الأمر المرونة المفاجئة التي يبديها زعيم التنظيم تجاه تحسين العلاقات مع الغرب.

العلاقات الداخلية

يروج التيار الإخواني لدولة إسلامية بنزعة قومية واقتصاد ليبرالي ترتكز سياسته الدفاعية على ثلاثة مقومات وهي:

1- الخطاب الشعبوي الديماغوجي الموّجه إلى حاضنته الشعبية.

2- الخضوع الكامل لنظام أردوغان الذي يدعم التيار بشكل مطلق حيث يرى أحد قادته المدعو ياسر الحجي "... إذ تعتبر الحكومة السورية المؤقتة علاقتها مع الأخوة الأتراك استراتيجية، ولا يمكن أن يكون هناك أي عمل أو نشاط في الريف الشمالي بدون التشاور معهم"[11].

3- استثمار تأجيج الكراهية السنية تجاه الطائفة العلوية والشيعة والفكر القومي العلماني العربي لشرعنة سلطته.

استناداً على ذلك يقدم التيار الإخواني دعماً كبيراً لعمليات التطهير العرقي التي تطبقها الدولة التركية في المناطق المحتلة في روجآفا عبر خلق تصور وهمي بكون الكرد أعداء لا يقلون خطورة عن النظام السوري، ويسعى من إقامة المستوطنات وسلب ممتلكات المهجرين[12] وتغيير معالم جغرافية المنطقة بقطع الأشجار وجرف القبور وتغيير أسماء الأماكن ودعم سياسة التتريك والأسلمة المتطرفة لمجتمع المستوطنين وإقامة قواعد عسكرية، إلى تمكين سلطتها وترسيخها في المناطق المحتلة والتخلص من أية معارضة علمانية ديمقراطية لسلطتها الرجعية والقضاء على أي أمل للمهجّرين بالعودة الى مناطقهم، كما أن العديد من أمراء الحرب يتحصنون بالحماية التركية لحماية فسادهم المالي وتحقيق ثراء ورفاهية خاصة بهم، حيث يشكل المرتزق محمد الجاسم[13] الملقب بأبو عمشة (زعيم عصابة لواء السلطان سليمان شاه) نموذج من الكثير من النماذج المعبّرة عن ذلك؛ وبنفس الوقت مقاومة تمدد الفكر السلفي في مناطقها والاستفراد بتمثيل المعارضة الإسلامية السورية على الساحة الدولية. من ناحية أخرى يعمل هذا التيار على صهر الميليشيات الخاضعة أو المؤيدة لعقيدته السياسية في جسم عسكري واحد وبدعم تركي، حيث يتم استغلال أي

---

10 اغتيل مؤخراً كلاً من المتحدث الرسمي باسم الجناح العسكري لهيئة تحرير الشام الملقب بـ" أبو خالد الشامي" ومسؤول التنسيق الإعلامي العسكري الملقب بـ "أبو مصعب" في حزيران 2021م بصاروخ موجه.

11 القدس العربي؛ حكومتان في الشمال السوري... هل هناك جهود لدمجهما؟؛ تاريخ النشر: 2019/2/7م؛

12 للاطلاع على بعض هذه الانتهاكات الموّثقة، راجع موقع (مركز توثيق الانتهاكات في شمال سوريا)؛

13 للاطلاع على بعض الانتهاكات التي قام بها المدعو أبو عمشة بحماية الدولة التركية راجع:
المرصد السوري لحقوق الإنسان؛ أبو عمشة من متاجر بصواريخ غراد إلى محتل لبيوت الأكراد" وملك مملكة شيخ الحديد"؛ تاريخ النشر: 2021/4/14م؛
الحرة؛ أحمد رحال.. ضابط سوري منشق مهدد بالقتل و"أبو عمشة" المحرك؛ تاريخ النشر: 2021/5/24م؛

عملية عسكرية في روجآفا لتشكيل قوالب عسكرية جديدة كان آخرها ما يسمى بالجيش الوطني السوري في محاولة لتذويب الميليشيات فيها عن طريق اخضاعها الى الانضباط العسكري والتراتبية القيادية، وقد برز مؤخراً مؤشرات لتشكيل هيكل عسكري جديد لهذه الميليشيات في المستقبل القريب من خلال الإعلان عن تشكيل (جيش القعقاع) من قبل هيئة تحرير الشام وبحسب بعض المتابعين فإنّ الغاية من تشكيله هي بناء آلية حوار جديدة للهيئة مع ميليشيا الجيش الوطني السوري الإخوانية[14] قد تفضي لبروز هيكل عسكري جديد بمسمى جديد، وبالفعل هناك محاولات جارية لتحقيق هذا الأمر حيث تم الإعلان في صيف عام 2021م عن تشكيل هيكل عسكري جديد تحت مسمى جبهة تحرير سوريا وآخر تحت مسمى غرفة عمليات العزم إلا أنهما حتى الآن لم يترسخا بعد في الجغرافيا التي تتواجد فيها هذه المعارضة بسبب استمرار الخلافات والتعارض في طموحات زعمائها.

تبدو هذه السياسة الدفاعية مفتقرة إلى الرؤية الاستراتيجية، فالحاضنة الشعبية مهما كانت درجة ولائها فأن الفساد وعدم تحقيق الرفاهية واستمرار البؤس سيجعله منفتحاً على أي منفذاً ينتشله من معاناته، وستضعف ثقته وعقيدته القتالية بدرجة كبيرة؛ كما أنّ نظام أردوغان راحل وستبقى الدولة التركية بسبب بقاء وضعها الجيوبوليتيكي والاستراتيجي رهينة لصراعات الأقطاب الأوروبية والأوراسية والأمريكية، والإسلاموية والقوموية التركية، ولا يوجد أي مصير واضح يمكن أن تؤول إليه وضع الدولة التركية في المستقبل القريب؛ كما أن عقلية الكراهية المذهبية يقابلها من الطرف الآخر عقلية مماثلة وتزداد قوة خاصة بعد بروز بوادر بتحويل حلب إلى معقل شيعي ما يشير إلى ذلك فتح قنصلية إيرانية فيها وهيمنة ميليشيات موالية على العديد من المناطق الهامة وعدم السماح لعودة فئة من المهجرين من المدينة إليها على الرغم من العلاقات الودية التي تربط الجماعة مع إيران[15]، يضاف إلى ذلك وجود أخطار ذات طبيعة ديمغرافية تهدد كيانها القائم في المناطق المحتلة، خاصة بعد التسوية التي تمت في درعا ورغبة الجماعات التي رفضت البقاء تحت ظل علم النظام السوري بالانتقال إلى المناطق المحتلة من قبل تركيا، بالإضافة إلى وجود نية تركية لترحيل اللاجئين السوريين لديها إلى هذه المناطق، الأمر الذي يطرح تحديات جدّية أمام دمج هؤلاء في المجتمعات المتطرفة التي يتحكم بها كل تيار وإخضاعهم لأيديولوجيتهم، إلى جانب وجود مئات الآلاف من المهجرين من الكرد وأعداداً ليست بقليلة من العرب والسريان، المتعطشين إلى الانتقام من الذين تسببوا بتهجيرهم وسلب ممتلكاتهم وقتل أبريائهم، وبنفس الوقت هناك رغبة للعديد من المستوطنين في العودة إلى المناطق التي هُجروا منها؛ وكذلك النزعات الميليشاوية بين الفصائل المسلحة التابعة لها، فعلى الرغم من تكوين هياكل عسكرية لصهرها فيها إلا أن العقلية العشائرية والمناطقية لا تزال مهيمنة على عقيدة القتال لدى مقاتليه من المستوطنين، كما أن الارتزاق أفقد التنظيم مصداقيته الأيديولوجية وأصبحت المنفعة المادية مقدمة على الدافع الأيديولوجي، يعد هذا الأمر كما هو معلوم من العوامل المفسدة لأي أيديولوجية؛ من ناحية أخرى يصعب الوصول إلى اتفاق استراتيجي أو شراكة مستدامة وتعايش سلمي مع التنظيمات السلفية التي

[14] عبد الله سليمان علي؛ "جيش القعقاع": الجولاني يتمدد إلى "درع الفرات"... بغض نظر تركي؛ الناشر: النهار العربي؛ تاريخ النشر: 2021/6/15م؛

[15] حلمي النمنم؛ في مواجهة العثمنة والأيرنة؛ الناشر: موقع المصري اليوم؛ تاريخ النشر: 2019/7/7م.

تمتلك جاذبية شعبوية كبيرة لدى الطبقات الفقيرة البائسة، وقد يوفر الفساد والبؤس المستشري في المؤسسات التابعة لهذا التيار وخوف المستوطنين من عودة أصحاب الأرض، فرصة لهيئة تحرير الشام لاستقطاب المؤيدين، وسيبرز كقوة معارضة رئيسية ما من شأنه أن يزعزع أركان الكيان الإخواني.

التيار السلفي:

يتمثل بهيئة تحرير الشام، يروّج هذا التيار لدولة إسلامية مركزية السلطة بنزعة إسلاموية، ويحاول استثمار النجاح المرتقب لاتفاقية السلام بين حركة طالبان وأمريكا التي وقعت في الدوحة شباط/ 2020م[16] في قبول وجوده كقوة إسلامية غير معادية للغرب على غرار باكستان والسعودية، ومنفصلة عن القاعدة ومتخاصمة مع تنظيم داعش، وذلك عبر اعلان معارضتها للعقيدة السياسية لداعش والرغبة في فتح صفحة جديدة مع الغرب وذلك بحسب ما صرّح به زعيم التنظيم في بعض مقابلاته الإعلامية[17]، يبدو أن من مؤشرات ذلك عدم حماية أبو بكر البغدادي من التصفية أثناء تواجده في منطقة تهيمن الهيئة استخباراتياً عليها (منطقة باريشا في إدلب).

إنّ خصومة هيئة تحرير الشام مع كلٍ من التيارين الإخواني والداعشي وفي حال ازدادت حالة التوتر مع الدولة التركية قد تتهيأ أرضية لتفاهم تكتيكي مؤقت بينها وبين أي فصيل أخر، وإمكانية تحييد التيار السلفي في أية معارك حاسمة لتحرير المناطق المحتلة من قبل الميليشيات الإخوانية، قد يكون هذا الأمر ما يدفع بالدولة التركية إلى احتواء هيئة تحرير الشام ومحاولة دمجها بالتيار الإخواني وفق صيغة توافقية وعلاقة تكافلية بين الأثنين على أسس تقاسم السلطة التنفيذية، السياسية والعسكرية والاقتصادية، والتوحد في السلطتين التشريعية والقضائية، وتصدير طاقة التطرف لديهما في محاربة الشعب الكردي وفي القتال في أفغانستان، من أبرز مؤشرات هذا الأمر الإعلان مؤخراً عن تشكيل تنظيم مسلح جديد تحت مسمى (جيش القعقاع) في إدلب وجبل الزاوية، يتبع ايديولوجياً لهيئة تحرير الشام، وبحسب استراتيجيته المعلنة على لسان الناطق باسم هذا التشكيل[18] سيتمدد إلى المناطق الخاضعة لسلطة الإخوان المسلمين وبغض نظر تركي، قد يكون ذلك استناداً على التفاهمات التي ستتم بين تركيا وأمريكا وذلك بهدف القضاء على حالة التشتت والفوضى للميليشيات المسلحة وإخضاعها لقيادة تنظيمية واحدة يسهل ضبطها، وبنفس الوقت التركيز على

---

16 للاطلاع على بنود الاتفاقية باللغة الإنكليزية مراجعة:
Agreement for Bringing Peace to Afghanistan between the Islamic Emirate of Afghanistan which is not recognized by the United States as a state and is known as the Taliban and the United States of America; February 29, 2020;

17 للاطلاع على مضمون بعض المقابلات، مراجعة مايلي:
موقع العربي الجديد؛ مقابلة للجولاني في الإعلام الأمريكي: على واشنطن رفع " هيئة تحرير الشام" من قائمة الإرهاب؛ تاريخ النشر: 2021/4/3م؛
القدس العربي؛ الجولاني في مقابلة جديدة: تصنيف "تحرير الشام" "إرهابية" من جانب واشنطن غير عادل؛ تاريخ النشر 2021/6/2م.

18 للمزيد حول هذا الموضوع من المفيد مراجعة إحدى المقالات من المواقع الموالية للمعارضة الإسلامية، وهي:
خالد الخطيب؛ "جيش القعقاع".. عصا الجولاني في مواجهة الجيش الوطني؛ الناشر: موقع سوريا.tv؛ تاريخ النشر: 2021/6/17م.

محاربة الفصائل المسلحة المحسوبة على الحرس الثوري الإيراني في المنطقة استناداً على المعنى الأيديولوجي الكامن وراء اختيار هذا الاسم بشكل يكسب رضى الأمريكيين والروس، لذا قد يندرج ذلك في سياق تفاهمات أردوغان- بوتين بخصوص مصير هيئة تحرير الشام وتحييد خطرها على الأمن القومي الروسي، وبنفس الوقت خلق مناخ ودّي مع جماعة الإخوان المسلمين وتمزيق حالة الخلاف الأيديولوجي بين الطرفين، وقد يكون لهذا الأمر أيضاً ارتباطاً مع السياسة التركية في الساحة الدولية من خلال مبادرتها للقيام بدور شرطي في أفغانستان واستعدادها لحماية وإدارة مطار كابول بعد انسحاب قوات حلف الناتو من هناك عبر اعداد شراكة استراتيجية مع التيار السلفي. إلا أن الخلاف الأيديولوجي وتناقض السياسة الدفاعية لداعمي التيارين (تركيا والسعودية) وعدم الثقة بالدولة التركية بعد الصفقات التي عقدت على حساب السلفيين مع روسيا، ومحاولة تقرب الهيئة من أمريكا وطرح نفسها كبديل يمثل الإسلام السياسي غير المهدد للغرب سيمنع أو يعيق تحقيق ذلك الأمر، ولو حدث أي اتفاق سيكون مؤقتاً وذلك بالاستناد إلى التجربة السابقة بين أمريكا والقاعدة في محاربة السوفييت. من ناحية أخرى تحاول السلفية عدم إضاعة زخمها القتالي عبر السياسة الحالية للهيئة ويبدو أنها تحتفظ بخط رجعة في حال تعرضها للغدر وذلك من خلال استراتيجية المنطقة الرمادية عبر الإبقاء على بعض التنظيمات الجهادية السلفية مستمرة في القتال وتبدو منشقة ظاهرياً عن الهيئة كتنظيم حراس الدين وغيره. إن بقاء هيئة تحرير الشام على قائمة التنظيمات الإرهابية الدولية وعقيدتها السياسية المخالفة لقوى المعارضة الأخرى يشكل تحدياً كبيراً لسياستها الدفاعية وفقاً لهذا المسار، حتى أن النظام السوري وحلفائه يجعلونها ذريعة لتبرير هجماتهم العنيفة على المناطق الخاضعة لسيطرة المعارضة بالتزامن مع عدم وجود تأييداً نسبياً لنفوذه في بعض المناطق الخاضعة لسلطته حيث توجد حواضن شعبية، إخوانية ويسارية وقوموية وداعشية، خاصة في مناطق سراقب والأتارب وسرمدا.

يعمل التياران على تصوير بعض جوانب الصراع مع النظام السوري كصراع علوي- شيعي وسني، أي الإصرار المستمر على النزاع الطائفي للصراع في سوريا وليس كثورة شعبية تمثل كل السوريين، فهما يلعبان على العواطف الإسلامية الدينية للحفاظ على تماسك صفوفهما وتمكين سلطتهما، وبنفس الوقت يتلاعبان بالمصطلحات وتسمية الأشياء بغير مسمياتها الرسمية لخلق تصور أو رأي عام بعيد عن الحقائق الموجودة على الأرض فيصفان النظام السوري بالنظام النصيري على الرغم من اشتراك العشرات من السنة والعلويين والمسيحيين في مؤسساته، ويصف الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا بالانفصالية على الرغم من أنها لا تملك أي مشروع انفصالي وتسعى للوحدة بموجب ميثاقها الاجتماعي، وتصف قسد بحزب العمال الكردستاني على الرغم من علاقات قسد الوثيقة مع التحالف الدولي الذي يجمعه مع الدولة التركية علاقات استراتيجية بالإضافة إلى أن نشاطات الحزب موجهة ضد استبداد الدولة التركية تجاه حقوق الشعب الكردي ودعاة الديمقراطية من الأتراك. وكلما سنحت لهما الفرصة يوجه التياران خلاياهما النائمة لضرب الاستقرار في المناطق الآمنة في شمال وشرق سوريا كما حدث مؤخراً في منبج وريف دير الزور وغيرها.

من هنا تبدو السياسة الدفاعية للتيارين قائمة على أسس غير ثابتة وخاضعة لرحمة تقلبات المواقف الدولية الفاعلة في الأزمة السورية، فمنهجهما الأيديولوجي لا يتوافق مع مبادئ الديمقراطية والعلمانية ولا يتوافق مع مبادئ الليبرالية الإسلامية التي يتقبلها الغرب، وتحولهما إلى أدوات ومرتزقة بيد الدولة التركية العلمانية العضو في حلف الأطلسي والصديقة لروسيا ولإسرائيل يتناقض مع أيديولوجيتهما، كما أن التزام المجتمع الدولي بأمن دولة إسرائيل من شأنه منع أي تنظيم إسلاموي- قوموي من الهيمنة على السلطة في دمشق ما يشير إلى ذلك استمرار غض النظر عن استمرار النظام السوري في السلطة؛ كما وأن تسببهما بجزء من معاناة ملايين السوريين، من كرد وعرب وعلويين ومسيحيين وشيعة، وفشلهما في تحقيق الأمان والخلاص للمجتمعات العربية السورية أفقد الثقة بهما، خاصة بعد أن برز تأثيرهما في لعب دوراً سلبياً في الأزمة الاقتصادية التي تشهدها البلاد من خلال التعامل بالليرة التركية واحتكار منتجات الشركات التركية للأسواق الخاضعة لسيطرتهما وقطع الآلاف من الأشجار الزيتون وسرقة المعامل والتسبب ببطالة عشرات الآلاف ممن تم تهجيرهم من المناطق المحتلة؛ لقد وضعت المعارضة الإسلامية نفسها في حالة انفصال عن البلاد وتتجه نحو التحول التدريجي إلى ولاية تركية أخرى؛ وفقدت الدعم العربي المباشر، السعودي والمصري والإماراتي، وتشتت إلى منصات ومجموعات معارضة أخرى، وتسببت بإغلاق قنوات التواصل مع الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا ومؤسستها العسكرية كقوة اقتصادية وعسكرية واجتماعية مهمة في الجغرافيا السورية، وأضعفت الهوية الوطنية بأعمال التهجير والاستيطان والقتل والتخوين والاعتداءات واضطهاد السكان الأصليين من الكرد وكل من يشك بتعاطفه مع الإدارة الذاتية أو مع النظام السوري على حد سواء، ولم تستطع السيطرة على الفساد المستشري في مؤسساتها وميليشياتها.

حالياً يبرز توجه من قبل الجيش التركي لتعزيز استراتيجيته بأساليب الحرب الهجينة[19]، خاصة بعد فشل آخر عملياته العسكرية في الهجوم على عين عيسى في بداية عام 2021م وبروز بوادر أزمة عسكرية مع كلٍ من روسيا وإيران والنظام السوري في نقاط التماس لمناطق النفوذ، حيث من المتوقع أن تتم إعادة تنظيم ميليشيات المعارضة الإسلامية بتياريها في هيكل عسكري جديد تحت أي مسمى كان لتحقيق حالة جهوزية تستجيب للأوامر العسكرية المستعجلة الصادرة من قبل قيادة الجيش التركي في تنفيذ اعتداءات جديدة على المناطق الآمنة من شمال سوريا أو أي منطقة في العالم، وبحسب مفهوم هذه الحرب[20] لن ينخرط الجنود الأتراك في القتال المباشر

---

19 للتعرف على نظرة الأتراك للحرب الهجينة راجع: إلهان أفيونكو؛ التحول في منظور الحرب: الحرب الهجينة؛ الناشر: جامعة الدفاع الوطني التركي- 2017م؛ ترجمة: ضرار الخضر- أحمد علي لصالح مركز نورس.

20 الحرب الهجينة، خليط من التكتيكات القتالية المختلفة تقدم من خلالها القوات العسكرية لدولة ما دعماً عسكرياً مباشراً لمجموعة من الميليشيات التي تنفذ عمليات عسكرية على الأرض لمواجهة التفوق العسكري المعادي بهدف تحقيق أغراض سياسية، أي قيام أحد الدول باستخدام خليطاً مضبوطاً من الأسلحة التقليدية والإرهاب والسلوك الإجرامي في الوقت نفسه وفي فضاء المعركة نفسه للحصول على أغراضه السياسية... للمزيد عن مفهوم الحرب الهجينة راجع: أندرو رادن، الحرب الهجينة في منطقة البلطيق/التهديدات والاستجابات المحتملة؛ الناشر: مؤسسة RAND؛ سنة النشر عام 2017م.

د. أحمد علو (عميد متقاعد)؛ الحرب الهجينة (HYBRID WARFARE) قتال بأرواح الآخرين وبأموالهم؛ الناشر موقع الجيش اللبناني/ دراسات وأبحاث، العدد 365- تشرين الثاني 2015م.

للتقليل من خسائرهم البشرية، وسيكتفون فقط بتقديم الدعم الجوي والمدفعي بينما سيتولى المرتزقة تنفيذ عمليات الهجوم البرية، قد تأتي هذه الاستراتيجية مع ازدياد التكهنات بسعي قوات سوريا الديمقراطية لحيازة تكنولوجيا صناعة الأسلحة التكتيكية كالطائرات المسيرة والصواريخ الحرارية والقذائف الموّجهة، واحتمال استخدامها كسلاح رئيسي في معاركها الدفاعية المقبلة.

يبدو أن هذه الأمور أفقدت التيارين خط الرجعة وإعادة النظر في سياساتهما الدفاعية في مسار العلاقات الداخلية والخارجية، الأمر الذي سيدفع بالتيارين أكثر إلى التمسك بسياستهما الدفاعية والتمترس خلف قوى دولية وإقليمية بتقديم خدمات ارتزاقيه الطابع، وهذا ما قد يشكل خطأ استراتيجي ستقع فيه الأطراف السورية الأخرى، سواء أكانت الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا أو النظام السوري أو قوى المعارضة المعتدلة نسبياً في حال عدم رغبتها في الوصول إلى تفاهمات بأي شكل كان مع هذه المعارضة. استناداً على هذا الأمر لا يحمل المستقبل بشائر خير للمعارضة الإسلامية في حال إصرارها على تعنتها ومعاداة كامل قوى المعارضة الأخرى، وسيزداد استنزاف قوتها ومواردها وقد تنهار ميدانياً تحت ضربات جيش النظام السوري وحلفائه، لذا من المفيد أن تطور سياساتها الدفاعية وعدم المراهنة على بقاء الأزمة بوضعها الحالي أو الحصول على تبدلات جذرية في مواقف القوى الدولية تجاه الأزمة السورية لصالحها، ويبدو تحسين العلاقات مع الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا وإنهاء حالة العداء معها من شأنه أن يخدم سياستها الدفاعية، وهذا الأمر قابل للتطبيق بسبب المرونة السياسية الكبيرة لمجلس سوريا الديمقراطية (إحدى المؤسسات السياسية الرديفة للإدارة الذاتية) كونها تعتمد في سياستها الدفاعية على براديغما الأمة الديمقراطية، حيث بلغت المرونة درجة التواصل مع النظام السوري في دمشق عبر وساطة روسية؛ وذلك من منطلق الحاجة لمشروع مصالحة وطنية سورية قبل الانخراط في أية مباحثات أو اتفاقيات بخصوص التسوية السياسية وإنهاء الأزمة، ما يشير إلى ذلك فشل معظم المؤتمرات والاتفاقيات في إنهاء الأزمة التي يعاني منها البلاد منذ عشر سنوات كان آخرها ما يسمى بالجولة السادسة عشر من مفاوضات آستانا في بداية الشهر السابع من عام 2021م.

أخيراً

باتت سياسة فصائل المعارضة الإسلامية السورية في المناطق المحتلة من شمال البلاد مُسخّرة في تنفيذ أجندات جيش الاحتلال التركي، ولايزال كل فصيل يصرّ على الحفاظ على خصوصيته التنظيمية بدليل استمرار كل فصيل بالاحتفاظ باسمه التنظيمي وعلمه الخاص، والتعامل مع الأماكن التي يسيطرون عليها كغنائم، وبدلاً من إجراء مراجعة لأخطائهم الاستراتيجية وبذل بعض المرونة تجاه الإدارة الذاتية على غرار المرونة التي يبدونها تجاه النظام السوري من خلال التفاوض معه، اعلنوا عن استعدادهم للانخراط في أي عملية عدوانية للدولة التركية تجاه المناطق الآمنة من شمال سوريا، واستثمارها في ببروباغندا تمجد انتصارات وهمية للتغطية على هزائمها الفعلية أمام النظام السوري وحلفائه، ما يشير إلى ذلك مشاركتهم اعلانهم النفير العام والاستعداد للانخراط في أي عدوان محتمل لنظام أردوغان على المنطقة بعد تصاعد تهديدات أردوغان في شهر تشرين الثاني ضد سكان المنطقة؛ لذلك تتحمل المعارضة الإسلامية السورية جزء من المسؤولية المباشرة عن إخفاق الانتفاضة الشعبية في البلاد في تحقيق مطالبها الشرعية بتطبيق مبادئ الديمقراطية وتحقيق

الأمن الاقتصادي وإنهاء الاستبداد، كما وتتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية في المعاناة التي يعيشها ملايين المهجّرين والنازحين والمهاجرين السوريين، وفوق ذلك تستغل الحالات الإنسانية المأساوية لإثارة مشاعر الرأي العام لصالحها، ولم تحقق أي تقدم سياسي أو عسكري على حساب النظام بل أصبحوا منفصلين عن باقي جغرافية البلاد، ومن المتوقع أن يتسببوا باستمرار أزمة البلاد السياسية والاقتصادية من خلال انخراطهم في الحرب الهجينة لصالح المحتل التركي وتحولهم إلى مبررات لاستمرار التواجد العسكري الروسي والإيراني في البلاد؛ هذه الأمور وغيرها تفرض على المعارضة الإسلامية السورية إجراء مراجعة موضوعية دقيقة لسياستها الدفاعية بغرض تطويرها لصالح الخير العام لجميع السوريين؛ خاصة أن هناك سعي من قبل بعض الأطراف الدولية والإقليمية المهيمنة لتعميق النزعة القومية في القوى التنظيمية الإسلامية بشكل يخلق تناقض بنيوي في أيديولوجياتها من شأنه أن يحدث شرخ في هيكل العقيدة الإسلامية العامة للشعوب المعتنقة لها، ويهيئ أرضية لأصحاب الطموحات الشخصية والأيديولوجية للتصادم والصراع، وبالتالي خلق فوضى يسهل ضبط إيقاعها ويدعم تمكين الهيمنة على البلدان؛ حيث نجد في الآونة الأخيرة مسعى لعثمنة الحركة السياسية الإسلامية بعد أيرنة[21] قسماً منها مسبقاً بالتوازي مع تعزيز النزعة القومية العربية الإسلامية لخلق ثلاثة محاور متنازعة في الهيكل العام للإسلام السياسي، المحور السني- التركي والمحور الشيعي، والمحور السني- العربي، ما من شأن ذلك أن يتسبب باستمرار أزمات المنطقة ومعاناة مجتمعاتها من القهر والبؤس ردحاً آخر من الزمن.

الجفاف في غرب كردستان

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

لعب الجفاف دوراً كبيراً في التطورات التي شهدتها الجغرافيا البشرية، فقد أجبر العديد من المجموعات البشرية على الهجرة أو الاقتتال كالشعوب التي وفدت إلى الهلال الخصيب، ودفعت ببعضها الآخر إلى إنشاء السدود وخزانات لتجميع المياه، كما ويعد من الأسباب المباشرة لظهور المجتمعات الطبقية عبر سيطرة الطبقة الفوقية على مصادر المياه وإخضاع الشعوب المهاجرة، كما في وادي النيل وميزوبوتاميا وإنشاء دول المدن على ضفاف الأنهار والبحيرات، حتى أنها شكلت مصدر إلهام لصياغة أساطير قصة الخلق، كما وتسببت أيضاً بانهيار حضارات واضمحلال ثقافات؛ لذا لها دور مؤثر في الجغرافيا السياسية وفي العلاقات الجيوسياسية. بالتأكيد كان الجفاف سبباً في معاناة الكثيرين وبنفس الوقت مصدراً لرخاء البعض الآخر.

يبدو أن هذا السيناريو لا يزال مستمراً ببعض جوانبه في تاريخنا المعاصر. مع ثورة النشاطات الاقتصادية التي يشهدها العالم والمتزامنة مع الازدياد المضطرد للنمو السكاني ولظاهرة الاحتباس الحراري، أصبح الجفاف خطراً يهدد الأمن والسلم الدولي، وباتت دولٌ تستغل الموارد المائية التي تسيطر عليها كأداة ابتزاز لتحقيق مخططات تآمرية على مجتمعات وبلدان معينة؛ وبالتالي تحول إلى عاملٍ رئيسي في تهديد الأمن الوطني للعديد من الشعوب في إطار ما يسمى بتحديات الأمن المائي، خاصة في الشرق الأوسط، وتعد أزمة المياه في كل من مصر والعراق وسوريا والأردن وغيرها مؤشرات على هذه الحقيقة.

في روجآفا لا يقل خطر الجفاف عن خطر التهديدات العسكرية بعد أن تحول إلى ظاهرة متكررة فيها، فهو مصدر خطرا استراتيجي لارتباطه بالأطماع الجيوسياسية ولكونه عامل مزعزع للجغرافيا السياسية المحلية نظراً لتداعياته على كلٍ من الأمن الغذائي[1] والاقتصادي ما من شأن ذلك أن يوفر ظروفاً قد تخدم مساعي بعض القوى الراغبة في احتلال المنطقة. بحسب منظمة الأغذية والزراعة (FAO) التابعة للأمم المتحدة : لا يجلب الجفاف فقط المجاعة بل يعتبر قاتل

[1] لمنظمة الأغذية والزراعة (FAO) تعريف شامل للأمن الغذائي ينص على أن ذلك يتحقق عندما "يستطيع كل الناس في جميع الأوقات الوصول إلى ما يكفي من الغذاء المأمون والمغذي للمحافظة على حياة صحية ونشطة". ولا يقتضي التعريف إنتاج ما يكفي من الطعام فحسب، بل يقتضي أيضا أن يكون في مستطاع كل فرد وكل أسرة الوصول إلى الغذاء الذي يحتاجونه. وقد تم التعبير عن أهمية هذه المسألة تعبيراً واضحاً في كثير من الإعلانات الدولية التي تدرج الأمن الغذائي في عداد حقوق الإنسان الأساسية....
منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة FAO؛ الخطط طويلة الأجل بشأن إدارة ظاهرة الجفاف وتخفيف آثارها في الشرق الأدنى/ المؤتمر الإقليمي السادس والعشرون للشرق الأدنى (طهران، جمهورية إيران الإسلامية، 9-13 مارس/آذار 2002)؛

رهيب من خلال تسببه بالحروب وجلب الأمراض كالملاريا والرمد الربيعي والجرب والتسممات وحرائق الغابات وغيرها[2].

تعريف الجفاف:

أول ما يتبادر إلى الذهن لدى ذكر كلمة جفاف، مشهد لصحراء أو سطح تربة متشققة؛ على الرغم من ذلك توجد مفاهيم علمية للجفاف من ناحية التعريف والتصنيف والمعدل؛ لذلك من المفيد تسليط الضوء على مفهوم الجفاف قبل التطرق إلى وضع الجفاف في روجآفاي كردستان (غرب كردستان) والبحث في أسبابه والعوامل المُفاقمة له وتداعياته.

الجفاف ظاهرة طبيعية مقترنة بالتصحر وذات بعد عالمي، وبمعدلات مختلفة من سنة إلى أخرى في المناطق شبه الجافة[3]، وبنسب تأثير غير ثابتة من منطقة إلى أخرى، مرتبطة بشكل رئيسي بالتغيرات المناخية[4] مع وجود تأثير للنشاطات البشرية في مضاعفة تداعياته على البيئة، وهي ظاهرة قديمة كان لها تأثيرها على كلٍ من الثقافات والجغرافيا السياسية، بشكل خاص في الجغرافيا الممتدة من المحيط الأطلسي إلى آسيا الوسطى، عبر تسببها ببروز النزاعات بين المجتمعات ونشوء الدول ذات الأنظمة الطبقية، لذا تبدو وكأنها قانون من قوانين الطبيعة.

بشكل عام نالت ظاهرة الجفاف اهتماماً عالمياً، وتم الاتفاق النسبي على تعريف شامل للجفاف بحسب اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر، حيث تشير المادة(1)- البند (ج) من هذه الاتفاقية[5] "يعني مصطلح " الجفاف" الظاهرة التي تحدث طبيعياً وتوجد عندما ينخفض الهطول انخفاضاً ملحوظاً فيصبح دون المستويات الطبيعية المسجلة مما يسبب اختلالاً هيدرولوجياً خطيراً يؤثر تأثيراً سيئاً على نظم الإنتاج لموارد الأراضي."، وهو أحد التعاريف الذي اعتمدته المنظمة العالمية للأرصاد الجوية[6] إلى جانب اعتمادها لتعريف آخر وهو "تخلف المطر عن السقوط أو سوء توزيعه لفترة طويلة."؛ ولإبراز الجدّية الدولية في مواجهة الجفاف والتصحر والتنبيه إلى مخاطره تم اعتماد يوم 17 من شهر حزيران في كل عام (اليوم العالمي لمكافحة التصحر والجفاف)؛ تشير معظم الدراسات التي أهتمت بهذه الظاهرة إلى وجود عدة تصنيفات لها[7]، كالجفاف المناخي أو

---

[2] نفس المرجع السابق.

[3] Dr. Wadid Erian- Dr. Amjad Abbashar- Ms. Luna Abo-Swaireh; DROUGHT VULNERABILITY IN THE ARAB REGION/ Case Study- Drought in Syria (Ten Years of Scarce Water (2000 – 2010)); Publisher: ACSAD (Arab Center for the Studies of Arid Zones and Dry Lands)/ ISDR(United Nations, secretariat of the

[5] اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر في البلدان التي تعاني من الجفاف الشديد و/أو من التصحر، وبخاصة إفريقيا؛ الجمعية العامة للأمم المتحدة/النص النهائي للاتفاقية؛ 12 تشرين الأول 1994؛ الرابط:
https://undocs.org/ar/A/AC.241/27

[6] منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة FAO؛ المؤتمر الإقليمي الـ26 للشرق الأدنى/ طهران؛ جمهورية إيران الإسلامية، 9-13 مارس/آذار 2002؛ الخطط طويلة الأجل بشأن إدارة ظاهرة الجفاف وتخفيف آثارها في الشرق الأدنى؛

[7] للمزيد راجع:
تقرير التقييم العالمي بشأن الحد من مخاطر الكوارث لعام 2011م- الكشف عن المخاطر وإعادة تعريف التنمية/ الفصل الثالث: مخاطر الجفاف؛

الموسمي المرتبط بضعف معدل الهطولات (المطرية أو الثلجية) وانخفاض الرطوبة الجوية، وجفاف التربة الناتج عن نقص الرطوبة في التربة وعدم كفايتها، والجفاف الهيدرولوجي المرتبط بتدهور الموارد المائية السطحية والجوفية، والجفاف الإيكولوجي الذي يرتبط بتدهور البيئة الطبيعية من غابات ومسطحات خضراء، حيث توفر النباتات نسبة من الرطوبة الجوية وظلال لما حولها نتيجة عمليات النتح والادماع[8]. وتحول عدم حصول الفرد الواحد سنوياً على كمية 1000 متر مكعب من المياه النظيفة كحدٍ أدنى مقياساً للفقر المائي في أي منطقة جغرافية من العالم.

إلى جانب التأثير المناخي والبيئي في معدل الجفاف يلعب عدم الكفاءة و/أو الإهمال في الإدارة الحكيمة للموارد المائية وضعف السياسات الوطنية المتعلقة بالنشاطات الاقتصادية التي تسبب تدهوراً للبيئة وتلوثاً للمياه دوراً في زيادة حدة الجفاف. ليصبح الأمن المائي جزء لا يتجزأ من الأمن الاقتصادي بشكل خاص في مجالي الأمن الغذائي وأمن الطاقة، ليتحول بذلك إلى عاملٍ مؤثرٍ على الوضع الجيوسياسي لأي منطقة يحل فيها.

الوضع الجيوسياسي لروجآفا.

في سبيل صياغة رؤية عامة للجيوبوليتيكا (أو الجيوسياسية) من المفيد تسليط الضوء على الجغرافية السياسية بمفهومها العام؛ يعتبر مفهوم الجغرافيا السياسية مفهوم واسع ومتشعب[9]، ويعدّ أحد فروع الجغرافيا البشرية، يتركز مفهومه على ما يسمى بالإقليم السياسي[10]، ويختص بالعلاقات بين العوامل الجغرافية والأنظمة السياسية من خلال التأثير المتبادل ما بين الأرض والإنسان وخلقها لعوامل القوة للنظام السياسي؛ حيث يشكل كلٌ من الموقع الجغرافي والأقاليم الطبيعية والسكان والنشاط الاقتصادي وانماط السكن والمدن والتكوين الحضاري للناس من حيث سلالاتهم ومجموعاتهم اللغوية وتنظيمهم الطبقي، وعناصر البيئة الطبيعة من أشكال السطح الأرضي والمناخ والتربة والنبات الطبيعي والمجاري المائية والبحيرات عناصر رئيسية للجغرافيا السياسية لأية منطقة؛ كونها تخلق بذلك التجمع البشري من حولها وتقيم الكيان المترابط للوحدة وتوجه كل الولاء له بحسب ما تقتضيه مصلحة هؤلاء الناس، كما ولها بعد أمني من خلال دور

---

9 للمزيد عن مفهوم الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا مراجعة:
كلاوس دودز- ديفيد أتكنسون؛ الجغرافيا السياسية في مائة عام: التطور الجيوبوليتيكي العالمي (الجزء الأول)؛ ترجمة: عاطف معتمد- عزت زيان؛ الطبعة الأولى 2010؛ الناشر: المركز القومي للترجمة/ القاهرة.
د. صباح محمود محمد- د. نافع ناصر القصاب- د. عبد الجليل عبد الواحد عمران؛ الجغرافيا السياسية؛ الناشر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- الجمهورية العراقية؛ بلا رقم طبعة وتاريخ نشر.
د. محمد رياض؛ الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا؛ الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة 2012؛ القاهرة؛ بلا رقم طبعة.
د. صلاح الدين الشامي؛ دراسات في الجغرافيا السياسية؛ الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية/مصر؛ الطبعة الثانية 1999؛

10 الإقليم السياسي هو قطاع من سطح الأرض يمارس فيه السكان لوناً أو أكثر من السلوك السياسي، أو السلوك الذي يعول عليه في تحديد الإقليم السياسي... هو ذلك النظام الذي تمارسه حكومة معينة في حكم الإقليم والسيطرة عليه ... لذا تعد وحدة سياسية في منطقة ص12 محدودة المساحة بخلال الإقليم الجغرافي...
د. صباح محمود محمد- د. نافع ناصر القصاب- د. عبد الجليل عبد الواحد عمران؛ الجغرافيا السياسية؛ الناشر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- الجمهورية العراقية؛ بلا رقم طبعة وتاريخ نشر. ص6-12.

الجغرافيا في تأمين الحماية لشعب أو مجتمع ما لذا تعد معياراً للقوة. يتفرع من الجغرافيا السياسية اتجاهان براديغميان هما الجيوبوليتيكا والجيواستراتيجية تحددان العقيدة السياسية والأمنية والعسكرية والاقتصادية (الداخلية والخارجية) لأي سلطة حاكمة؛ بالنسبة للجيوبوليتيكا لا يوجد تعريفاً محدداً لها، ويكاد يكون لكل أمة أو نظام دولتي منظورها الجيوسياسي الخاص[11]، وذلك بحسب الخطر أو التهديد الذي يتم صياغة طبيعته، لذا فهي خاضعة للتغيير بتغير الأزمنة وهياكل النظام العالمي، حيث ارتبط هذا المفهوم لدى الباحثين بمفهوم الإمبريالية الغربية والسياسات الاستعمارية عبر صياغة مبررات وذرائع للهيمنة على مناطق جغرافية حول العالم لضمان أمنها القومي ومصالحها، ويمكن أن نربط بروزها في السياسة الدولية بنشوء الدول القومية وتأطير البلدان بحدود سياسية مفروضة، وعلى أساسها يتم وضع الخطط الاستراتيجية لتحقيق قوة الدولة لتشكل صلب الأجندات السياسية، ويعد النازيون أكثر من تأثروا بها في صياغة استراتيجياتهم؛ يبدو أن هذا الأمر يعد السبب الكامن وراء الصراعات الدولية والإقليمية وحتى المحلية في المنطقة، فإخضاع الجغرافيا للنفوذ لتحقيق أغراض سياسية واقتصادية يحتم التمدد إلى خارج الحدود السياسية للبلاد أو الإقليم، وبالتالي تعمل على تطويع الجغرافيا وتسخيرها في خدمة طموحات وتطلعات أيديولوجية فالرؤية الجيوسياسية تحدد الحدود المادية والمعنوية التي تقسم العالم إلى مجالنا ومجالاتهم أي لها علاقة بكل من الأيديولوجيات، والتطرف السياسي وتنافس المصالح الاقتصادية، لذلك تخلق علاقة تكافلية بين الجغرافيا والسياسة والاقتصاد والجيش، إلا أن هذا لا يبرر النظرة السلبية التشاؤمية تجاهها كونه في السياسة الوطنية الدفاعية لأي نظام سياسي تؤخذ المصالح الجيوسياسية وتقليص التهديدات ذات الطابع الجيوسياسي بعين الاعتبار، فمثلاً إلى جانب تقديم وحدات حماية الشعب والمرأة الدعم الكامل لتحرير المجتمعات العربية من قبضة كل من داعش والنظام شكل تحرير مدن الرقة وكامل المنطقة الواقعة في الجانب الشرقي من نهر الفرات وشنكال أهمية جيوسياسية لسكان المنطقة بالتزامن مع بروز تهديدات جدية نابعة من المنظور الجيوسياسي للدولة التركية تجاه المنطقة الذي يتلخص باحتلال كامل روجآفا، فتحكم تركيا بمنابع دجلة والفرات يمنحها أهمية جيوسياسية وفرصة للعب دور في القضايا الجيوسياسية وفقاً لأجنداتها. بالنسبة للجيواستراتيجية فهي تحلل المستوى الاستراتيجي الجغرافي للنظام السياسي من خلال العناصر الجغرافية العشرة وهي، الموقع والحجم والشكل والاتصال بالبحر والحدود والعلاقة بالمحيط والتضاريس والمناخ والموارد والسكان؛ وبالتالي تشكل المسطحات المائية والمناخ والتربة والنبات كأجزاء من البيئة الطبيعية عناصر جغرافية مؤثرة في قوة أي نظام سياسي.

بشكل عام واستناداً على ما سبق يمكن تفسير الوضع الجيوسياسي أو الجيواستراتيجي لمنطقة ما بحساباتها الاستراتيجية الخاصة في محيطها السياسي، وبمستوى مكانتها في الخطط والحسابات الاستراتيجية للدول الأخرى بنفس الوقت؛ وهذا ما يطلق عليه القضايا الجيوسياسية والجيواستراتيجية.

لذا يشكل الجفاف وتدهور الموارد الطبيعية من العوامل المؤثرة سلباً على الجغرافية السياسية في المنطقة الموؤبة بها وتشكل تهديداً جيوسياسياً، لما قد تتسبب بعمليات نزوح جماعية وتدهور في

[11] الموسوعة السياسية (الإلكترونية)؛ الجيوبوليتيك – Geopolitics

الاقتصاد المحلي وضعف القدرة في ضبط الأمن الوطني وفرصة لتسيُّس تداعياتها في خدمة طموحات سياسية قد تتسبب بتمزيق الميثاق الاجتماعي أو تعرض المنطقة للاحتلال أو الخضوع لهيمنة قوة أخرى تفرض إرادتها على إرادة السكان، وتؤكد العديد من الدراسات[12] أبرزها تلك التي نشرتها الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية على دور الجفاف في اندلاع الأزمة السورية عام 2011م حيث أشارت إلى أنّ فشل أو اهمال النظام السوري لمعالجة الجفاف وتداعياته تسبب بهجرة الآلاف إلى المدن الرئيسية الكبرى وبروز مجتمعات فقيرة ومقهورة تضخمت معاناتها بالتزامن مع تراكم تداعيات كلٍ من السياسة الاستبدادية للسلطة واحتكارية الأوليغارشية، على الأمن الإنساني للمواطنين، الأمر الذي أدى إلى خلق بيئة منفتحة على الفكر الراديكالي بالإضافة إلى التسبب بضعف كبير في الاقتصاد الزراعي الذي يعتمد عليه غالبية المواطنين، ممّا مكّن من انفجار الأزمة ومشاركة مئات الألوف في الانتفاضات الشعبية التي طالبت بإسقاط نظام السلطة القائمة.

لذا فأن الوضع الجيوسياسي لشمال وشرق سوريا ومحيطها باعتبارها مكونة نسبياً من مجموعة من الأقاليم السياسية في ظل الجفاف يجعلها أمام تحديين، أحدهما يتعلق بالأجندات السياسية المحاكة ضدها والثاني يتعلق بسياستها الداخلية المتعلقة بتأمين أمنها الغذائي والمائي وأمن الطاقة. يشكل الجفاف ضغطاً كبيراً على الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا ويضعف من موقفها السياسي تجاه الالتزام بمبادئها، وتدفعها لتقديم تنازلات في سبيل الحفاظ على أمنها المائي والغذائي قد تؤثر على معادلات الجغرافيا السياسية للمنطقة من خلال إضعافها وزيادة نشاطات القوى المعادية، والخضوع للابتزازات وإضعاف المشاريع الاقتصادية والتنمية وازدياد نسبة الفقر والوصول إلى حافة خطر المجاعة؛ وبالتالي ازدياد قوة مسببات ضعف الإدارة الذاتية، بالتوازي مع تسهيل عمليات التغيير الديمغرافي وضرب استقرار المنطقة، الأمر الذي يشكل ضغطاً أمنياً اقتصادياً كبيراً على الإدارة الذاتية التي تؤمن الخدمات لحوالي أربعة ملايين مواطن ونازح ولاجئ، مما يحتم عليها تكثيف نشاطاتها الدبلوماسية مع المنظمات الدولية المعنية بقضايا المياه والجفاف والتصحر والصحة والغذاء واللاجئين والمناخ.

ظاهرة الجفاف.

تشكل جغرافية روجآفا جزءاً مهماً من المنطقة الشمالية من الهلال الخصيب (المتاخمة للجهة الجنوبية من سلسلة جبال طوروس) التي شهدت الثورة الزراعية وتدجين الحيوانات ومزاولة مهنة الرعي. تضم روجآفا حوضين مائيين رئيسيين هما حوض دجلة والخابور، وحوض الفرات، وتضم

[12] للمزيد حول الموضوع راجع:

Colin P. Kelley, Shahrzad Mohtadi, Mark A. Cane, Richard Seager, and Yochanan Kushnir; Climate change in the Fertile Crescent and implications of the recent Syrian drought; PNAS (Proceedings of the National Academy of Sciences of the United states of America); First published March 2,2015; Link:

فرانشيسكا دو شاتيل؛ الجفاف وتغير المناخ ودورهما في الانتفاضة السورية: فكّ تشابك محركات الثورة؛ ترجمة: مؤيد البني؛ تم مشاركة المقالة من قبل موقع الجمهورية في 10 حزيران 2014م؛

مخزوناً كبيراً من المياه الجوفية بحسب بعض الأبحاث التي تمت قبل عام 2010م[13]؛ ولدى تفحص موقعها على الخارطة نجد أنها تتوسط منطقتين جغرافيتين إحداهما شمال كردستان الغنية نسبياً بالرطوبة وبالموارد المائية، والثانية البادية السورية الممتدة إلى الحدود العراقية والتي تعاني من عمليات تصحر وجفاف مستمرين، هذا الواقع يفرض على المنطقة وضعاً جيوسياسياً خاصاً، حيث تعمل الدولة التركية على تعميق العزل بين روجآفا وشمال كردستان عبر بناء الجدران وعسكرة الحدود ويخطط في المراحل اللاحقة لاحتلال كامل المنطقة إذا سنحت له الفرصة على غرار قيامه باحتلال أجزاء منها (عفرين- كري سبي/تل أبيض- سري كانييه) وكأنه يتبع مجازياً أسلوب قضم الأراضي ومن ثم هضمها عبر عمليات التطهير العرقي ضد الكرد ليبدأ مرحلة قضم جديدة وهكذا، يبدو أن الجفاف الذي تساهم به الدولة التركية عبر التحكم السلبي بمحطة مياه علوك وبتدفقات نهر الفرات يُسهّل من هذه العمليات، أما من ناحية التأثير القادم من الجنوب تتعرض المنطقة لزحف ديمغرافي نتيجة الجفاف من المحتمل أن يستفيد النظام السوري وحلفائه منها في خلق بيئات موالية له ومنفتحة على العنف بغرض زعزعة استقرار المنطقة، لذا نجد تداخلاً بين تداعيات الجفاف البيئية والخطط التآمرية الساعية للسيطرة على المنطقة، حيث يلاحظ أن ندرة المياه والظروف المناخية القاسية تلعب دوراً مباشراً في تدهور الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والسياسية في المنطقة، ومن المتوقع بروز نزاعات حول المياه في المستقبل على غرار النزاعات المكرسة للهيمنة على مصادر الطاقة، إنّ هذا الأمر يسمح لنا بأن نصف الماء كمصدر آخر من مصادر الطاقة إلى جانب البترول والغاز والفحم واليورانيوم.

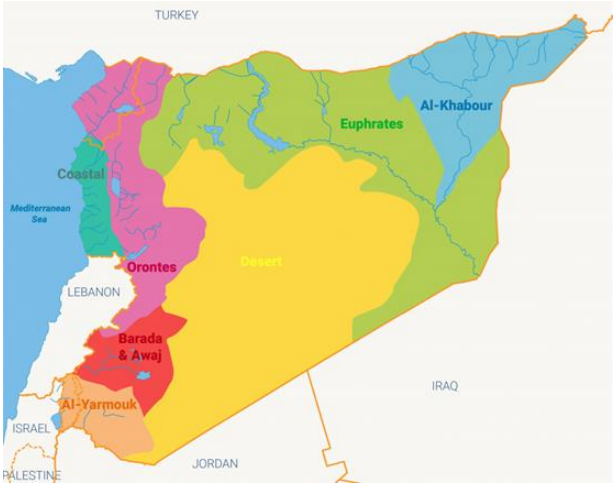

الأحواض المائية في الجغرافيا السورية[14].

[13] للمزيد راجع: د. مريم جمعة عيسى؛ الموازنة المائية في سورية وآفاقها المستقبلية من عام 1993-2008-2009 لغاية 2024-2025م؛ الناشر: مجلة جامعة دمشق- المجلد 29- العدد 3+4- 2013.

[14] https://water.fanack.com/wp-content/uploads/2019/04/Syria_Water-Basins_3000px-950x750.png

لا توجد دراسات وأبحاث دقيقة خاصة بروجآفا بخصوص ظاهرة الجفاف فيها، ومعظم الدراسات والإحصائيات التي تطرقت إليها كانت في سياق الجغرافيا السورية بحدودها السياسية المعروفة. بشكل عام تعد روجآفا من المناطق شبه الجافة وتندرج أجزائها الجنوبية في المناطق التي توصف بالجافة ومعظم كمية الأمطار الهاطلة تفقد بالتبخر أو الرشح، وقد شهدت فترات متفاوتة من الجفاف منذ عام 1930م من أبرز المؤشرات التي تؤكد على ذلك تدني نسبة الغطاء النباتي وانعدامه في الكثير من المناطق وارتفاع درجات الحرارة ونقص الهطولات المطرية والثلجية وكثرة الرياح المحملة بالأتربة، وتعرض الكثير من الأنهار للجفاف أبرزها نهر الخابور الذي كان يعد أهم روافد نهر الفرات، وصعوبة تأمين المياه في العديد من المناطق خاصة بعد قيام الدولة التركية بقطع متعمد وبشكل دوري للمياه الواردة من محطة مياه علوك المحتلة والتسبب بانخفاض منسوب نهر الفرات مؤخراً إلى مستويات متدنية وخطيرة، حيث تعتبر سياسة تركيا المائية[15] تجاه سوريا والعراق أحد العوامل الرئيسية لتنامي ظاهرة الجفاف في هذين البلدين بشكل عام. تعرضت المنطقة في عام 2007م لجفاف شديد لم تشهده المنطقة منذ 12000 عام بحسب ما نشرته الأكاديمية الوطنية للعلوم بالولايات المتحدة الأمريكية[16] في العام 2015م، والتي أشارت إلى أن مستقبل المناخ سيكون أكثر جفافاً وحرارة في الشرق الأوسط. على الرغم من ذلك لا يوجد سبب طبيعي واضح لهذا الاعتقاد بسبب صعوبة التنبؤ بسلوك الطبيعة والمناخ المقترنة بتفاعل الظواهر الفلكية مع حركة كوكب الأرض، خاصة فيما يتعلق بالطفرات المناخية كطفرة بوشان[17] والأعاصير المدارية وغيرها، ما يشير إلى ذلك تذبذب معدل الهطولات المطرية والثلجية في روجآفا منذ عام 2010م وحتى عام 2020م، فمثلاً في شتاء 2013/2014م شهدت المنطقة كثافة في الهطولات الثلجية لم تشهدها المنطقة منذ سنوات من قبل ذلك، وكان شتاء 2019/2020م شهد معدل هطولات مطرية أكبر من شتاء 2020/2021م. وقد أشارت إحدى الدراسات المختصة بالمناخ[18] إلى هذا الأمر من خلال ربط الجفاف في سوريا بالجفاف الذي تشهده منطقة الشرق الأوسط منذ عام 1931م، فمعدل هطول الأمطار لم يكن ثابتاً، وبحسب الدراسة لا يوجد أي دليل مؤكد على الازدياد التدريجي للجفاف واستمراره لعقود ودعت إلى عدم الخلط بين الادعاءات الاحتمالية والحتمية؛ على الرغم من ذلك هناك مؤشرات مناخية[19] على استمرار انخفاض معدل هطول الأمطار في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا خلال الفترة القادمة وسيستمر ازدياد متوسط درجات الحرارة في الصيف تدريجياً من 0.5 إلى 0.9 درجة مئوية لكل عقد خلال معظم فترات الصيف المنطقة وستعاني تركيا وسوريا من أزمة الجفاف بدرجة أكبر .

---

[15] تعتبر تركيا السبب الرئيسي للنزاعات حول نهري دجلة والفرات خاصة بعد اعلان خطط لأكبر مشروع مائي في المنطقة عام 1977 وهو مشروع جنوب شرق الأناضول المعروف اختصاراً بمشروع GAP... للمزيد راجع: موقع (Fanack/Water)؛ موارد المياه المشتركة في سوريا؛ تاريخ النشر: 4/9 /2019م

[18] يبدو أن هذه الدراسة هو رد للدراسة التي نشرتها الأكاديمية الوطنية للعلوم بالولايات المتحدة التي كان عنوانها Climate change in the Fertile Crescent and implications of the recent Syrian drought؛

[19] Ulrika Akesson and Knud Falk; Climate Change in Syria – trends, projections and implications/ Background document for Sida´s development of a results strategy for Syria 2015; Sida's Helpdesk for Environment and Climate Change; May 2015;

أسباب الجفاف

تتعدد الأسباب الكامنة وراء ظاهرة الجفاف في روجآفا؛ بشكل عام يعتبر ظاهرة مناخية وطبيعية إلا أن هنالك عوامل تزيد من حدتها، هذه العوامل تتعلق بكل من سياسة تركيا المائية، وضعف إدارة الموارد المائية في المنطقة سواء من قبل المؤسسات المسؤولة عن إدارتها أو من قبل المواطنين، وهذا ما يتم وصفه بالتأثير البشري في حدوث حالات جفاف شديدة ومستمرة في المنطقة، لذلك يمكن تصنيف الأسباب كمؤثرات خارجية ومؤثرات داخلية.

بالنسبة للمؤثرات الخارجية فأنها تتمحور حول سياسة تركيا المائية بالدرجة الأولى خاصة بعد تمكنها من إنشاء مشاريع مائية ضخمة على نهري دجلة والفرات بلغت قدرتها إلى الدرجة التي تمكنها من خفض مستوى النهرين إلى مستويات متدنية جداً تجلى ذلك في قيامها بقطع مياه نهر الفرات في صيف عام 2021م، بالإضافة إلى احتلالها لمحطة مياه علوك والإيقاف الدوري لضخ المياه منها نحو مدينة الحسكة وريفها. لدى معايشة معاناة سكان إقليم الجزيرة المتمثلة في صعوبة تأمين المياه اللازمة للاستخدام المنزلي والزراعي وفي ظروف تفشي جائحة كورونا والجفاف في المنطقة نجد مستوى الإرهاب المائي الذي تمارسه دولة الاحتلال التركي بحق سكان المنطقة ومدى انتهاكها لمواثيق حقوق الإنسان[20] والمواثيق الدولية[21]. إنَّ مسألة استخدام الدولة التركية للمياه كسلاح ليس وليد سياساتها الإقليمية الحالية بخصوص الفوضى التي تشهدها المنطقة، بل هي سياسة قديمة نسبياً تعود إلى بداية تأسيس الجمهورية التركية، ومحاولة قادتها استرجاع الهيمنة العثمانية على ما تبقى من مناطق في مجالها الجغرافي الحيوي من جهة الجنوب.

يعد نهري دجلة والفرات من أهم أنهار الشرق الأوسط، فقد قامت على ضفافهما مجموعة من أقدم الحضارات، ويعتبران شريان الحياة للسكان في هذه المنطقة بمختلف أعراقهم وعقائدهم منذ آلاف السنين، وسبباً لتعارف الثقافات وتمازجها، وكان لفيضانهما دور كبير في نشأة الميثولوجيا والمعتقدات الدينية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم، إلى جانب دورهما في الثورة الزراعية التي شهدتها المنطقة، وفي العصر الحديث ازدادت أهميتهما كثيراً، فبالإضافة إلى كونهما أهم مصدرين للمياه العذبة والأسماك، تحولا إلى مصدرين مهمين لتوليد الطاقة الكهربائية. تعتبر الدولة التركية أول دولة في التاريخ مزقت هذه الخصوصية الثقافية للنهرين باحتكار المياه لأغراض سياسية واستثمارها في عمليات الإبادة الجماعية التي تمارسها بحق الشعب الكردي في شمال وشرق سوريا عبر عمليات التغيير الديمغرافي والنقل القسري للسكان من مواطنهم الأصلية[22]،

---

[20] Human Rights Watch ؛ تركيا/سوريا: المياه سلاح خلال وباء عالمي؟ (الحماية من "كورونا" تعتمد على إيصال الكمية الكافية)؛ تاريخ النشر:

[21] الجمعية العامة/ الأمم المتحدة؛ اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية؛ تاريخ الإصدار: 1997/7/8م

للاطلاع على المزيد من الوثائق، راجع الوثائق الواردة في: لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا)؛ اجتماع فريق خبراء حول تطوير إدارة الموارد المائية المشتركة في إطار الاتفاقات العالمية والإقليمية القاهرة 30-29، تشرين الثاني/نوفمبر 2017

[22] بحسب المادة 7 /الجرائم ضد الإنسانية/ من نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية- الفقرة 2 البند (د) (يعني "إبعاد السكان أو النقل القسري للسكان" نقل الأشخاص المعنيين قسراً من المنطقة التي يوجدون فيها بصفة مشروعة، بالطرد أو بأي فعل قسري آخر، دون مبررات يسمح بها القانون الدولي؛).

وتكاد ممارستها تماثل ممارسة البرابرة المغول الذين دمروا حضارات المنطقة. لقد تعرض الكرد في القرن العشرين إلى أكبر عمليتي تغيير ديمغرافي من خلال السياسة المائية لكل من النظامين التركي والسوري، ففي تركيا تسبب مشروع GAP[23] بتهجير الآلاف من الشعب الكردي عن مناطقهم، علماً أن الشعب الكردي تعرض لعملية سابقة من خلال ما يسمى بمخطط إصلاح الشرق الذي طبقه مؤسس الجمهورية التركية أتاتورك تجاه الكرد بعد قمع ثورة الشيخ سعيد عام 1925م حيث تم تهجير عشرات الآلاف من الكرد عن شمال كردستان، وفي سوريا تم استثمار مشروع سد الفرات وبحيرة الأسد بالتهجير القسري للمئات من العائلات العربية عن مواطنهم الأصلية باتجاه المناطق الكردية في شمال البلاد والذي أطلق عليهم اسم (عرب الغمر) حيث تم انتزاع مساحات شاسعة من أراضي الملاكين الكرد وتوزيعها على هذه العائلات تحت مسمى قانون الإصلاح الزراعي؛

بحسب اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية[24] التي أقرت في عام 1997م جاء في المادة(2) البند (ب) (يقصد بـ" المجرى المائي الدولي" أي مجرى مائي تقع أجزاؤه في دول مختلفة؛) وكذلك المادة الثانية من مبادئ هيلسنكي لعام 1966، يعتبر نهرا دجلة والفرات نهرين دوليين، يسري عليهما بنود هذه الاتفاقية فيما يخص حقوق الدول المتشاطئة عليهما؛ إلا انّ الدولة التركية تذهب في اتجاه آخر وتصر على اعتبارهما نهرين تركيين عابرين للحدود ولها الحق في التحكم بهما واحتكاره مياههما لتبرير مشاريعها الهيدروبوليتيكية عليهما، وعمدت الحكومات التركية المتعاقبة إلى وضع القواعد اللازمة لبناء سوق للماء على غرار أسواق الطاقة العالمية وسَوّقت أفكاراً لبيع المياه إلى دول أخرى تعاني هشاشة في أمنها المائي[25] وأقامت في سبيل ذلك مشروع GAP الذي وصل طاقته الاستيعابية إلى مستوى القدرة على تجفيف أحد النهرين وهذا ما حدث لنهر الفرات في صيف عام 2021م، وكذلك ما يسمى بمشروع أنابيب السلام التي كان من المفروض أن يستثمر مياه نهري سيحان وجيهان في غربي تركيا من أجل بيعها إلى إسرائيل إلا أنه لم يطبق بسبب ضعف التمويل وصعوبة تنفيذه بسبب معارضة الدولة السورية. هذه السياسات أثارت حفيظة بلدان المنطقة وعرضت قضايا حقوق الإنسان وحقوق الدول في الأنهار الدولية لخطر الانتهاك، وهذا ما يتم بإدارة حكومة أردوغان في الوقت الحالي حيث تسبب لأول مرة في التاريخ بخفض منسوب نهر الفرات إلى أدنى مستوى له في كل من سوريا والعراق وعرض ملايين المدنيين من سكان المنطقة لخطر كبير، بعد الأضرار الاقتصادية التي تسبب بها للحقول الزراعية ومهنة صيد الأسماك وقطاع المياه العذبة وتوليد الطاقة الكهرو-مائية، وعلى الرغم من تحجج السلطات التركية بمعضلة الجفاف في الدولة التركية إلا أن انتهاكاتها المتعلقة بقطع مياه محطة علوك في ريف سري كانييه المحتل عن كل من مدينتي تل تمر والحسكة

---

[23] مشروع الـGAP وهي اختصار لمشروع جنوب شرق الاناضول، باللغة التركية: Güneydoğu Anadolu Projesi، وباللغة الإنكليزية: Grand Anatolia Project...

[24] الجمعية العامة/ الأمم المتحدة- الدورة 51 البند 144 من جدول الأعمال؛ اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية؛ 8July 1997 - A/RES/51/229؛ الرابط: https://undocs.org/ar/A/RES/51/22

[25] للمزيد حول هذا الموضوع من المفيد الاطلاع على دراسة: م.م مازن خليل ابراهيم؛ مشروع أنابيب السلام وأزمة العلاقات التركية السورية؛ جامعة المستنصرية/ العراق؛ بلا رقم طبعة وناشر وتاريخ نشر؛

وريفهما والتسبب بهشاشة الأمن المائي لأكثر من مليون مدني بغرض إرهاب الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا يفنّد هذه الادعاءات، وتدرك العشرات من المنظمات الحقوقية[26] والإغاثية العاملة في تلك المنطقة هذه الحقيقة، وعلى الرغم من مشاركة النظام السوري للدولة التركية في عدائها للإدارة الذاتية إلا أنها قدمت شكوى إلى الأمم المتحدة بخصوص هذه الانتهاكات التي طال تأثيرها عموم جغرافية البلاد وأعلنت الحكومة العراقية بدورها عن موقف معارض لهذه الانتهاكات.

تعد الدولة التركية من الدول الغنية بالموارد المائية على مستوى العالم، والموزعة بين الأنهار والأمطار والثلوج والمياه الجوفية، لذا فهي تمتلك فائضاً مائياً كبيراً يزيد عن حاجتها، وبالتالي فإنَّ مشاريعها المائية على نهري دجلة والفرات لا ينبع من حاجتها الطارئة للمياه بل توظفها في سبيل ممارسة إرهاب مائي ضد جيرانها الجنوبيين، ويؤمن لها نفوذاً جيوبوليتيكياً إقليمياً تستطيع بموجبه ممارسة سياسة عدوانية تجاه الأمن القومي لجيرانها وإخضاعهم؛ وعلى الرغم من ذلك لم تجني تركيا من سياستها تلك أية مكاسب عدا إلحاق الضرر بشعوب المنطقة، وتسببت بتدهور بيئي حاد بعد جفاف معظم أنهار إقليم الجزيرة وعلى رأسها نهري الخابور وجقجق وتنامي حالتي الجفاف والتصحر فيها، حتى أنها تعمل على استنزاف المياه الجوفية المشتركة على جانبي الحدود السياسية التركية- السورية عبر حفر الآبار الارتوازية وتحويل مجرى الينابيع إلى داخل أراضيها الغنية بالموارد المائية الأمر الذي تسبب بانخفاض منسوب المياه الجوفية على طول المناطق المتاخمة لهذه الحدود في شمال سوريا. كما ويلعب مشروع GAP دوراً استراتيجياً في السياسة المائية التركية حيث يعتبر أحد أضخم المشاريع المائية في العالم، وهو من المشاريع الاستراتيجية للدولة التركية التي سخرت لها ميزانية ضخمة، فإلى جانب أهدافها المعلنة من تأمين الكهرباء والمياه العذبة وري المزروعات، يخبئ المشروع بين أساساته أهدافاً أخرى يتمثل باستخدام الماء كسلاح في السياسة الخارجية التركية عبر ثلاث اتجاهات؛ الاتجاه الأول، للمشروع قدرة كبيرة على قطع جريان نهر الفرات تقريباً أو نهر دجلة باتجاه العراق وسوريا، من خلال تخزين مياهه أو تحويل مجراه، وبالتالي فرض حصار مائي خانق على كلٍ من سوريا والعراق إذا دعت الحاجة، إلى جانب اضعاف الثروة الزراعية لكلا البلدين والتحكم فيهما، وبالتالي وقوع الأمن الغذائي لكل من العراق وسوريا تحت الرحمة التركية، حيث يتذكر الكثير من المواطنين السوريين تصريح وزير الدفاع التركي عام 1988 مهدداً سوريا "بيدنا سلاحان لردع سوريا، المياه والقوة العسكرية" بعد تنامي القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية السورية ومطالبة السلطات السورية باسترجاع لواء اسكندرون المحتل وعدم تدخل تركيا في صراعها مع دولة إسرائيل. إنّ هذا المشروع يمنح الدولة التركية القدرة على احتكار أكثر من 80% من جريان نهر الفرات، الأمر الذي سيهدد الأمن القومي لكل من سوريا والعراق، والاتجاه الثاني هو تعزيز المصالح والعلاقات الاستراتيجية مع بعض الدول، من خلال تأمين امدادات مستمرة للمياه العذبة على شكل بنك مائي لدول واقعة تحت خط الفقر المائي كدولة إسرائيل والأردن ودول الخليج وحتى بيعها إلى كل من سوريا والعراق، أما الاتجاه الثالث فهو ضمان التفوق التركي في مجال الغذاء والطاقة الكهربائية في منطقة الشرق

[26] Human Rights Watch ؛ تركيا/سوريا: المياه سلاح خلال وباء عالمي؟- الحماية من "كورونا" تعتمد على إيصال الكمية الكافية؛ تاريخ النشر: 31 آذار مركز توثيق الانتهاكات في شمال سوريا؛ تركيا تقطع المياه مجددا عن الحسكة؛ تاريخ النشر: 23 كانون الأول 2021م

الأوسط، حيث يطمع النظام التركي إلى أن تتحول تركيا إلى سلة غذاء في الشرق الأوسط، وإلى دولة إقليمية مهيمنة تتحكم بإرادة شعوب المنطقة. حتى هذه اللحظة لا تُقيّم الدولة التركية أي احترام للاتفاقية الدولية الخاصة باستخدام المجاري المائية في الأغراض غير الملاحية والتي أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1997 وقواعد اتفاقية هلسنكي 1966 والقواعد التي أضيفت إلى هذه الاتفاقية لاحقاً بالنسبة لنهري دجلة والفرات، إلى جانب عدم تقيدها بالاتفاقيات الموقعة بينها وبين كلٍ من العراق وسوريا. إنّ هذا الأمر يعد من العوامل المهددة للأمن والسلام الدولي، ويشكل خطراً محدقاً بكل من حقوق الإنسان والأمن الوطني لكل من سوريا والعراق، ومن شأنه أن يخلق بيئات فقيرة ومتخلفة قد تشكل حواضن للفكر المتطرف العابر للحدود ويؤجج من النزاعات الطائفية والعرقية، ومن الممكن أن يخلق بيئة جديدة يمكن أن يتنامى فيها أيديولوجية تنظيم داعش مجدداً باستغلال الأوضاع المعيشية الصعبة وضعف الحكومة المحلية في حل الأزمة الاقتصادية المقترنة بندرة المياه. حالياً يواجه سكان شمال سوريا الذين ساندوا المجتمع الدولي في إيقاف تمدد إرهاب تنظيم داعش وتحرير مناطق واسعة من قبضته، وكذلك مئات الآلاف من النازحين، تهديدات جدّية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بسبب استخدام حكومة أردوغان للمياه كسلاح إرهابي ضد الإدارة الذاتية، وهذا الأمر لا يخدم قضية المجتمع الدولي في محاربة الإرهاب والذي قدم المئات من الضحايا في مواجهته.

من ناحية أخرى تشير دراسة أصدرتها أكاديمية العلوم الوطنية الأمريكية[27] إلى أن التغيرات في هطول الأمطار بسوريا يرتبط بارتفاع متوسط ضغط مستوى سطح البحر في شرق البحر الأبيض المتوسط، وتأثير ما يعرف بغازات الدفيئة البشرية المنشأ (غازات الاحتباس الحراري الصادرة عن معامل ومصانع الدول حول العالم) بالإضافة إلى الضعف في التدفقات الهوائية المحملة بالرطوبة القادمة من شرق البحر المتوسط، وبالتالي نقص هطول الأمطار وجفاف الهواء إلى جانب التدفق الهوائي الجاف القادم من الجنوب والمحمل بالغبار والأتربة أحياناً.

بالنسبة للمؤثرات الداخلية: فتتمثل بضعف إدارة الموارد المائية في المنطقة بسبب قلة الكفاءة والفساد والظروف الأمنية غير المستقرة التي فرضتها أزمة البلاد. حيث تشير العديد من الدراسات إلى دور السياسة التي لعبها النظام السوري منذ سيطرته على الحكم في البلاد في زيادة وتيرة الجفاف من خلال التركيز على زيادة الإنتاج الزراعي (الحبوب بشكل خاص) المقترنة بالدعم الحكومي لوقود الديزل وتربية بعض أصناف الحيوانات المجترة (الغنم والماعز والبقر والجِمال) حيث تجاوز عددها المليون رأس[28] ومنع تطور أية نشاطات اقتصادية أخرى في المنطقة من مصانع ومعامل أو نمط آخر من الزراعات كالأشجار المثمرة والبيوت البلاستيكية، الأمر الذي أدى

---

[27] Colin P. Kelley, Shahrzad Mohtadi, Mark A. Cane, Richard Seager, and Yochanan Kushnir; Climate change in the Fertile Crescent and implications of the recent Syrian drought; PNAS (Proceedings of the National Academy of Sciences of the United states of America); First published March 2,2015

[28] للاطلاع على الاحصائيات المتعلقة بالقروة الحيوانية في إقليم الجزيرة، راجع:
احصائيات مديرية الزراعة التابعة للحكومة السورية على موقعها الرسمي: وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي/ المجموعات الإحصائية؛
إحصائية صادرة عن الإدارة العامة للزراعة والثروة الحيوانية في إقليم الجزيرة التابعة للإدارة الذاتية في عام 2019م

إلى استنزاف المياه الجوفية التي تم ضخها واستخدامها بشكل غير مدروس وبدون ترشيد واعتماد غالبية السكان على المواسم الزراعية وتجارة الحيوانات المجترة لتأمين معيشتهم؛ هذا الأمر مع موجات الهجرة العراقية في الأعوام 2003 -2007 زاد من حدة الجفاف المقترن بالتغيرات المناخية وظاهرة تذبذب الهطولات المطرية في المنطقة، وتسبب بتداعيات كبيرة على حياة المواطنين، حيث فقد الكثيرون مصادر رزقهم وانخفضت المواسم الزراعية (انخفضت غلة القمح 67% و انخفضت غلة الشعير بنسبة47%)[29] وقلت أعداد الماشية بشكل متزايد منذ عام 2007م الأمر الذي دفع بالكثيرين إلى الهجرة من الريف إلى المدن للبحث عن فرص عمل أخرى؛

من ناحية أخرى وبالاستناد على واقع منزل نموذجي محلي لعائلة متوسطة الحال مادياً تلعب الثقافة المجتمعية في المنطقة دوراً في الجفاف الذي يزداد في فترة الصيف من خلال زيادة استهلاك المياه في نشاطات الغسيل والترطيب المنزلية المختلفة، واستخدام مكيفات تعتمد على المياه في عملية التكييف (يعرف محلياً بالمكيف الصحراوي) والنشاط العمراني الكثيف وسقاية الحدائق، يضاف إلى ذلك التسربات في شبكة أنابيب نقل المياه بسبب اهترائها وضعف صيانتها.

من ناحية أخرى وبحسب بعض المراقبين امتازت إدارة الموارد المائية في المنطقة من قبل الحكومة السورية بالسوء سواء من ناحية قلة الكفاءة أو الفساد أو الإهمال عبر تعزيز الممارسات الزراعية غير المستدامة من خلال التركيز على أصناف محددة من المحاصيل التي تستهلك كميات كبيرة من المياه كالقمح والقطن، وعدم تطوير أساليب الري، والاستخدام غير الفعال للمياه الذي تجلى في التفاوت الكبير بين معدل استهلاك المياه في الزراعة وصافي العائد من المحاصيل، وعدم انشاء مشاريع مائية كبيرة لاستثمار حصة البلاد من مياه نهر دجلة وإعادة تدوير مياه الصرف الصحي واستثمار الطاقة الكهروشمسية في عمليات التكييف الصيفية، وعدم تحديد نطاق المساحات المزروعة أو اطلاق مشاريع للتشجير لإيقاف التصحر والتقليل من تأثير العواصف الرملية الجافة، وإهمال صيانة شبكات نقل المياه واستحداث مجالات اقتصادية أخرى، كل هذه الأمور تشير إلى أن النظام السوري لم يعر أي اهتماماً للاستدامة والتنمية وحماية الأمن المائي في سياساته الاقتصادية تجاه المنطقة وبشكل يتناسب مع كلٍ من النمو السكاني والتغيرات المناخية؛ يبدو أن النظام تنصل من تحمل المسؤولية عن ذلك من خلال تصريح وزير الزراعة السوري[30] في تموز من عام 2008م علناً لمسؤولي الأمم المتحدة بكون التداعيات الاقتصادية والاجتماعية للجفاف تفوق قدرتهم كدولة على التعامل معها.

بشكل عام يمكن تلخيص أسباب ازدياد حدة الجفاف في المنطقة إلى أربعة أسباب وهي:

1-الطلب المتزايد على المياه بسبب التركيز على الإنتاج الزراعي في تأمين المعيشة وازدياد أعداد السكان. 2- ضعف قدرة الهطولات المطرية في السنوات الماضية تعويض النقص في مخزون المياه الجوفية والسدود التجميعية بالشكل المناسب. 3- عدم معالجة تداعيات مواسم الجفاف

[29] Ulrika Akesson and Knud Falk; Climate Change in Syria – trends, projections and implications/ Background document for Sida´s development of a results strategy for Syria 2015; Sida's Helpdesk for Environment and Climate Change; May 2015;

[30] للمزيد راجع نفس المرجع السابق.

المتعاقبة. 4- الإرهاب المائي الذي تمارسه الدولة التركية تجاه سكان المنطقة. إنّ إهمال معالجة هذه الأسباب بالتعاون بين المؤسسات والمجتمع سيزيد من احتمال حدوث حالات جفاف شديدة قد تستمر لسنوات.

بالنسبة للإدارة الذاتية يصعب تقييم أدائها في معالجة تداعيات الجفاف، بسبب التهديدات الأمنية والعسكرية والحصار وموجات النزوح واللجوء التي تشهدها المنطقة في سياق الأزمة التي تعاني منها البلاد؛ وكانت لها محاولات للسيطرة على عمليات حفر الآبار العشوائية والقيام بمشاريع تشجير كمبادرة زراعة حوالي أربعة مليون شجرة في مشروع تطوعي أطلق عليه اسم (الجدائل الخضراء)، وفسح المجال لنشاطات اقتصادية أخرى غير النشاط الزراعي وتقنين استخدام المياه المنزلية وغيرها، إلا أن هذه الإجراءات تبدو غير كافية لمعالجة تداعيات الجفاف خاصة في ظل ضعف إمكانياتها المالية والحصار المفروض عليها والتهديدات المستمرة من قبل الدولة التركية ومرتزقتها من المعارضة السورية، وما يزيد من تعقيد الأمور قيام العديد من المنظمات الدولية المعنية بقضايا المياه والغذاء والبيئة بتهميش التواصل مع مؤسسات الإدارة الذاتية ومؤسسات المجتمع المدني المحلية بسبب اعتراض بعض الدول كتركيا وروسيا وقطر وغيرها، حيث من المفروض أن لا تخضع هذه المنظمات المعنية بالأعمال الإغاثية والتنموية للضغوط السياسية من قبل بعض الدول والتي تنتهك المواثيق الدولية كالإرهاب المائي الذي تمارسه الدولة التركية بحق المنطقة.

تداعيات الجفاف.

دائماً ما يقترن الجفاف بندرة المياه والتصحر، ويتركز تأثيره السلبي في التنمية الاقتصادية والإنتاج الغذائي المتنوع؛ وفقدان السيطرة عليه سيؤدي إلى المجاعة والمزيد من النزوح الجماعي قد تشمل مجتمعات بأكملها، والجفاف المتطرف يمكن أن يدفع مجتمع متوتر سياسياً ويعاني من آثاره الى نقطة الانهيار واللجوء إلى العنف، لذا يشكل الجفاف عاملاً من عوامل اندلاع الأزمات، حيث يعتبرها البعض سبباً رئيسياً وراء اندلاع الحروب في المستقبل. بشكل عام يؤدي الجفاف إلى ازدياد الضغوط الاقتصادية التي تولد ضغوطاً اجتماعية وسياسية وأمنية على المجتمعات ومؤسساته الإدارية المختلفة.

تعد موجة الجفاف الحالية من أسوء موجات الجفاف التي شهدتها المنطقة؛ من المحتمل أن يزداد الأمر سوءاً حيث سيزداد الطلب على المياه مع ارتفاع معدل النمو السكاني وازدياد نسبة الاكتظاظ السكاني في المدن وتنامي الأنشطة العمرانية في المناطق المستقرة نسبياً من البلاد، وكذلك مع بدء مشاريع إعادة الاعمار والتنمية الاقتصادية لمرحلة ما بعد حل الأزمة. بشكل عام تتوقف نسبة تأثير تداعيات الجفاف على مقدار ما تخلفه من أضرار على كلٍ من البيئة والسكان والعلاقات السياسية؛ من أبرز هذه التداعيات:

تهديد الأمن الغذائي للمنطقة، كون الجفاف يتسبب بانعدام الأمن الزراعي من خلال انخفاض غلات المحاصيل الموسمية وازدياد نسبة التصحر، وخسائر في الثروة الحيوانية من خلال انخفاض اعداد الماشية المقترن بفقدان المراعي وتدمير الغطاء النباتي؛

تدمير الاقتصاد الريفي وازدياد معدل البطالة بهجرة الكثيرين من الريف إلى المدن أو إلى خارج المنطقة، يتزامن ذلك مع انخفاض القدرة الشرائية وارتفاع أسعار المواد الغذائية بسبب انخفاض نسبة الاكتفاء الذاتي في مجال إنتاج الغذاء من منتجات الحبوب والألبان والسكر والزيت النباتي والاضطرار إلى استيرادها من الخارج؛ حتى أن الجفاف أجبر بعض العائلات لبيع أصول[31] الأسرة المعيشية.

انخفاض انتاج الطاقة الكهربائية، حيث تسببت تداعيات الجفاف في الآونة الأخيرة في إضعاف إمدادات الطاقة الكهرومائية من سدود نهر الفرات بعد أن استغلت الدولة التركية جفاف المنطقة وتحويل المياه إلى أداة ابتزاز سياسية تجاه الإدارة الذاتية.

انخفاض مستوى المياه الجوفية حيث لوحظ شبه جفاف للعديد من الآبار، بالإضافة إلى تدهور البيئة الطبيعية للمنطقة وازدياد احتمال اندلاع الحرائق وبروز العديد من الأمراض فوفقاً لرأي منظمة الصحة العالمية كان الجفاف السبب الرئيسي للوفاة على نطاق العالم بأكمله بالنسبة لنصف ضحايا الكوارث الطبيعية[32].

ترك آثاراً وجروحاً عاطفية كبيرة على المتضررين، وبروز مصدراً جديداً لتهديد الأمن الوطني للمنطقة من خلال لجوء البعض إلى أعمال الجريمة المنظمة أو الهجرة، وانخفاض نسبة الالتحاق بالمدارس وتقديس المال بزيادة الادخار بشكلٍ جشع، هذه السلوكيات تعد من أبرز العوامل الهدامة للثقافة العريقة لمجتمعات المنطقة من خلال فقدان الهوية الثقافية وتشويه طبيعة العلاقات الاجتماعية، وقد تحدث موجات نزوح هرباً من الجفاف على غرار الفرار من خطر المعارك، حيث يتطلب الامر مخيمات إيواء وحملة اغاثية وطنية تُحمّل الإدارة الذاتية لأعباء إضافية قد تفوق طاقتها في السيطرة عليها.

العوامل المفاقمة

استنادا على ما تم ذكره في الفقرات السابقة فإنّ الجفاف أصبح واقعاً مفروضاً ومن المحتمل أن يستمر التأثير السلبي لكل من المناخ والبشر على موارد المياه، وبالتالي تناقص إجمالي المياه المتاحة بشكل تدريجي بالتزامن مع ازدياد الطلب على المياه، وهناك صعوبات كبيرة لإجبار الدولة التركية على التخلي عن إرهابها المائي؛ لذا يتوجب التعايش مع هذه الأزمة والتأقلم مع الظروف التي يفرضها باتخاذ تدابير وإجراءات تمنع تفاقم تداعياته على البيئة والبشر على حدٍ سواء. لدى رصد الموقف العام تجاه ظاهرة الجفاف نجد مجموعة من السلوكيات والحالات التي تعد بمثابة عوامل من الممكن أن تُفاقم أزمة الجفاف لعل أبرزها عدم وجود جدية في الاهتمام بهذه الظاهرة

31 الأصول: هي الأشياء ذات القيمة التي يمكن تحويلها بسهولة إلى نقد. مع أن النقد في حد ذاته يعدّ أيضاً أحد الأصول. وتشمل الأموال والأشياء الثمينة والبضاعة والسلع والاستثمارات والآلات والأراضي والمركبات والآليات والمعدات والمباني والعلامات التجارية وبراءات الاختراع وحقوق التأليف والنشر والبرمجيات والسندات والأسهم.... ونقصد من الأصول في سياق الفقرة كلاً من الحيوانات الداجنة والمزارع والحقول ومعدات الري وغيرها.

32 منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة FAW؛ الخطط طويلة الأجل بشأن إدارة ظاهرة الجفاف وتخفيف آثارها في الشرق الأدنى/ المؤتمر الإقليمي السادس والعشرون للشرق الأدنى (طهران، جمهورية إيران الإسلامية، 9-13 مارس/آذار 2002)؛

بدليل عدم وجود جمعيات مدنية مهتمة بالبيئة ومراكز أبحاث وإصدار تقارير وقرارات وسياسات تؤكد على خطر الجفاف وتقترح الحلول لمعالجة تداعياته، من أبرز مظاهر ذلك هناك ضعف في البنية التحتية لتخزين وتحويل المياه، وعدم وجود طرح لمشاريع مائية أخرى لحصاد مياه الأمطار وإعادة تدوير مياه الصرف الصحي والمياه الجوفية المالحة أو استثمار حصة البلاد من مياه نهر دجلة. هناك نسبة كبيرة من كمية المياه المهدورة بسبب ترهل شبكات توصيل المياه المنزلية ولا يوجد معالجة للتفاوت الكبير في الاستهلاك اليومي للمياه بين الريف والمدينة من خلال زيادة الوعي في ترشيد الاستهلاك ووضع تعريفة مالية لقيمة المياه المستهلكة، ولا يوجد خطط مدروسة لاستيراد المياه المعلبة؛ ولا يوجد اكتفاء في تأمين الطاقة الكهربائية اللازمة للتكييف في الصيف من أجل التقليل من كمية المياه المستخدمة في الشرب والتكييف، وكذلك لا يتم استخدام أدوات مناسبة في سقي الحدائق والبساتين وإرواء عطش الحيوانات الداجنة. لا يوجد تحديد للمساحات المزروعة وزراعة أصناف محاصيل أكثر تحملاً للجفاف، ولا يوجد استبدالاً لأساليب الري التقليدية بأساليب الري الحديثة (الري بالتنقيط)، ولا توجد خطط طويلة الأمد مدعومة لتوسيع القطاع الزراعي المعتمد على البيوت البلاستيكية والأشجار المثمرة. تبدو معالجة هذه المظاهر وغيرها في إطار الاقتصاد الإيكولوجي المجتمعي (الذي يتخذ من الموارد الطبيعية وحمايتها وتنميتها لضمان حقوق أجيال المستقبل بمثابة الطاقة الدافعة لها) من التدابير المناسبة لمواجهة تداعيات الجفاف المناخي أو الموسمي وتداعيات الجفاف الهيدرولوجي؛ بالنسبة لجفاف التربة والجفاف الإيكولوجي تعتبر عمليات التشجير المنظمة ولأصناف محددة من الأشجار المقاومة للجفاف وزراعة أصناف من النباتات من أفضل السبل لتخفيف تداعياته.

هناك عامل آخر من الممكن أن يفاقم من حدة الجفاف وهو لجوء بعض الدول إلى تقنيات الاستمطار[33] عبر إجبار السحب على إنزال محتواها من قطرات المياه حيث تم تسجيل قيام 56 دولة في عام 2016م بهذه العملية، هذا الأمر قد يحرم مناطق أخرى من الأمطار بعد أن تقوم الرياح بنقل هذه السحب إليها، فمثلاً يُلاحظ تزامن كثافة عمليات الاستمطار التي تتم في الإمارات العربية المتحدة بالتنسيق مع خبراء بريطانيين مع ازدياد حدة الجفاف في شرق منطقة الخليج وتشير مظاهرات الأحواز (خوزستان) الأخيرة احتجاجاً على انعدام الأمن المائي لدى المواطنين إلى تداعياتها، وهناك بعض الآراء تتجه إلى إمكانية استخدام هذه التقنية في إحداث فيضانات في مناطق معينة في حال توفرت الظروف المناسبة، حيث يشير البعض إلى استخدام أمريكا هذه التقنية

[33] الاستمطار هي عملية حثّ قطرات الماء في السحب على النزول... تعود تقنيات الاستمطار المستخدمة حالياً إلى عام 1946، عندما اكتشف علماء في مختبر جنرال إلكتريك للأبحاث أنه يمكن استخدام مركب يتواجد بشكل طبيعي في البيئة بتراكيز منخفضة يدعى يوديد الفضة (AgI) لتعزيز تشكل البلورات الجليدية في السحب. وعلى الرغم من أن هذه المادة لاتزال تستخدم حتى الآن في الاستمطار، إلا أن الأبحاث التي أجريت على مدى 70 عاماً أدت إلى تحسن كبير في التقنيات وإدخال مواد جديدة مثل المغنيزيوم وكلوريد الصوديوم وكلوريد البوتاسيوم... حيث تعمل في حال حقنها أو نشر بخارها في السحب على تشكيل بلورات جليدية تكثف بخار الماء الموجود في السحب ليجبرها على النزول على الأسفل....

إم آي تي تكنولوجي ريفيو العربية؛ ما هو الاستمطار وما مدى فعاليته في زيادة هطول الأمطار؟؛ الناشر: MIT Technology Review؛ تاريخ النشر 26 يناير 2020؛

في حرب فيتنام[34]. لذا فإنّ لجوء بعض الدول المجاورة إلى هذه التقنية سيكون له تداعيات سلبية على روجآفا بزيادة حدة الجفاف في ظل ضعف إمكانياتها للتعامل بهذه التقنية.

الحلول الممكنة

من المفيد أن نكرر التأكيد على أن الجفاف يشكل تهديداً استراتيجياً لا يقل خطورة عن تهديدات الاعتداءات العسكرية؛ وله تأثيره على الجغرافيا السياسية والوضع الجيوسياسي للمنطقة كونه يعد عاملاً مساعداً لزعزعة الاستقرار، فتداعياته تطال السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية؛ ويمكن أن يشكل مصدراً رئيسياً لاندلاع الحروب في المستقبل، حيث تعد أزمة سد النهضة بين مصر والسودان من جهة وأثيوبيا من جهة أخرى وكذلك الإرهاب المائي الذي تمارسه الدولة التركية بحق سوريا والعراق من أبرز المؤشرات على ذلك.

تؤكد العديد من الدراسات على استنزاف كبير لموارد المياه الجوفية والسطحية في شمال وشرق سوريا ومناطق أخرى من العالم وقد تستمر نوبات الجفاف لعشرات السنوات القادمة، وإذا استمر الوضع بهذه الوتيرة فمن المتوقع أن يصل النقص إلى مستوى كارثي بحلول عام 2050م بسبب الاستهلاك المتزايد وسوء إدارة الموارد غير المتجددة إلى جانب النمو السكاني والنمو الاقتصادي وتذبذب الهطول المطري وتعرض بعض الموارد للتلوث إلى جانب تحكم الدولة التركية بتدفقات نهري دجلة والفرات واستغلالها في خدمة سياساتها الهادفة إلى الهيمنة على المنطقة، حيث يردد بعض المسؤولين الأتراك منذ زمن ليس ببعيد بضرورة مقايضة كل برميل ماء ببرميل نفط، لذا فأن توحش الدولة التركية في سياستها المائية تجاه سكان المنطقة أمر محتمل الحدوث، على الرغم من أن تركيا تستطيع خفض منسوب تدفق مياه نهري دجلة والفرات إلا أنها غير قادرة على التحكم بالهطولات المطرية في منابع دجلة والفرات على جبال شمال كردستان وفي سوريا، أي قد تستطيع سدودها في أحد المواسم احتجاز المياه إلا أنها في المواسم المطيرة ستكون عاجزة عن تحقيق ذلك؛ لذلك هناك حاجة لوضع سياسات دفاعية وتدابير احترازية وإجراءات إسعافية في مجال الأمن المائي. فهناك العديد من البلدان تتخذ اعلان حالة الطوارئ، واعتماد برامج وطنية لمكافحة أو إدارة الجفاف. استناداً إلى كون الجفاف مشكلة عالمية يصعب تجنبه إلا أنه يمكن التخفيف من آثارها.

بالنسبة للإدارة الذاتية يبدو حل مشكلة الجفاف في المنطقة يشكل تحدياً يفوق طاقتها في ظل المناخ السياسي السائد في الشرق الأوسط والأزمة التي تمر بها البلاد، ما يشير إلى ذلك عجز حكومة النظام السوري في مواجهة الجفاف على الرغم من إمكانياتها الكبيرة قبل الأزمة. لذلك فأن الإدارة الذاتية بحاجة إلى دعم دولي لتأمين الخبرات والتمويل اللازم وتطبيق الاتفاقيات الدولية بخصوص تقاسم مياه الأنهار الدولية إلى جانب الاستعانة بالموارد المائية الأخرى في باقي الجغرافيا السورية. حالياً في ظل غياب موقف دولي واضح من الأزمة السورية يقع على عاتق الإدارة الذاتية تقديم حلول إسعافية للتخفيف من آثار الجفاف على كل من المواطنين والاقتصاد

[34] RT عربي نقلاً عن كمسمولسكايا برافدا؛ استمطار في الإمارات: ولّدوا فيضانات في الصحراء باستخدام درونات طائرة؛ تاريخ النشر 2021/7/20م؛

الزراعي، وتقييم التداعيات لاتخاذ تدابير وقائية استباقية للتصدي لحالات الطوارئ وإعداد خطط للتأهب لزيادة قدرات التأقلم، علماً أنها كانت لها تجربة سابقة في احتواء ظاهرة احتراق أو حرق محاصيل الحبوب، حيث استجاب المجتمع لمشكلة حرائق الحقول في موسم عام 2019 واستطاعوا بالتكاتف مع الإدارة الذاتية تحقيق انتصاراً على الطقس الحار والمتقصدين بافتعال الحرائق، لتسلم النسبة الأكبر من الموسم بعد استنفار مجتمعي كبير. يبدو الجفاف فرصة مناسبة لتعزيز التواصل بين المجتمعات والإدارة وتعزيز إدارتها الشفافة في خدمة المواطنين على أساس الحماية الذاتية الذي يعد مبدأ أساسياً من مبادئ الميثاق الاجتماعي للإدارة الذاتية، الأمر الذي قد يفرض تحقيق الاكتفاء الذاتي في مسألة المياه.

تتركز الموارد المائية المتاحة في شمال وشرق سوريا على مياه الأمطار والمياه الجوفية ومياه نهري دجلة والفرات؛ هناك محدودية لبعضٍ من هذه الموارد في ظل تزايد الطلب عليها. تستخدم هذه المياه لغرضين رئيسيين الأول للخدمة المنزلية والثاني في الزراعة وتربية الحيوان، ولكن يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الاستخدام المتزايد للمياه في مجال الأنشطة العمرانية التي تشهدها المنطقة وفي بعض النشاطات الاقتصادية كورشات المغاسل، وهناك مؤشرات لبروز أنشطة اقتصادية صناعية مع ازدياد معدل رؤوس الأموال في المنطقة.

بحسب الواقع المائي الحالي في المنطقة تتركز الحلول الممكنة على ثلاثة مرتكزات رئيسية وهي:

الإدارة الرشيدة للموارد المائية المتاحة.

معالجة العوامل المفاقمة للجفاف.

وضع سياسة اقتصادية وطنية لاستيراد المياه.

بالإدارة الرشيدة للموارد المائية المتاحة.

هناك ثلاثة مقومات للإدارة الرشيدة للموارد، وهي الاستخدام الفعال للمياه، وحماية المياه من الهدر، والحفاظ على الموارد المائية ودعمها، وهذا يتطلب تنمية للبنية التحتية المائية، وفرض برنامج عمل خاص بإدارة أزمة الجفاف، وإصدار تشريعات وقوانين مناسبة.

إنّ تنمية البنية التحتية المائية يتخذ بعدين، الأول من خلال إجراء عمليات صيانة وإصلاح للبنية الحالية الموجودة من محطات وشبكات أنابيب نقل المياه وأنظمة الصرف الصحي، وإلزام أصحاب الأنشطة التجارية باستيراد معدات ذات جودة عالية في هذا المجال. كما أن زراعة الأشجار على حواف البحيرات أو البرك الطبيعية أو خلف السدود التجميعية لمياه الأمطار من شأنه أن يلطف حرارة الأجواء فوق سطحها ويقلل من عمليات التبخر. أما البعد الثاني فيتعلق بإنشاء مشاريع جديدة لتأمين المزيد من المياه، وهناك عمليتين في هذا السياق، الأولى إعادة تدوير مياه الصرف الصحي كمصدر غير تقليدي للمياه، فمعظم المياه المستهلكة في المنازل والمشافي والجامعات والمؤسسات والمطاعم والورشات وغيرها تُطرح في الصرف الصحي لذلك فإنّ تنقية هذه المياه وتعقيمها في محطات خاصة وإعادة استخدامها من شأنه أن يدعم الموارد المائية للمنطقة، حتى لو لم يتم استخدامها في الشرب يمكن استخدامها في أعمال الغسيل وسقاية

المزروعات وفي أعمال البناء، من ناحية أخرى هناك مخزون جيد من المياه الجوفية غير الصالحة للشرب وقد لا تفيد سقاية المزروعات كونها تحوي نسبة عالية من الأملاح لذلك فأن استخدام تقنيات حديثة لتحلية هذه المياه من شأنه أن يرتد بنتائج إيجابية ويؤمن مورد جديد لمياه الشرب.

ويندرج في هذا البعد أيضاً ما يسمى بمشروع حصاد مياه الأمطار وهي تقنية تستخدم لجمع وتخزين مياه الأمطار لاستخدامها لاحقاً وحمايتها من التبخر والتسرب والجريان السطحي. يمكن استخدام هذه التقنية في نطاق ضيق من خلال الاستفادة من أسطح الأبنية بتخزين المياه في خزانات سفلية، وفي نطاق واسع عبر الاستفادة من المياه المتدفقة من التلال والأراضي المرتفعة إلى الوديان بتخزين المياه في بحيرات أو برك اصطناعية أو حتى حقنها في الآبار لتعويض الفاقد من المياه الجوفية، وقد حدث سابقاً أن فاضت بعض الأنهار الصغير الجافة المنتشرة في شمال المنطقة في فصول الشتاء بسبب غزارة الأمطار أو الثلوج في المناطق المتاخمة لسلسلة جبال طوروس إلا أن معظمها كان يضيع ولا يُستفاد منها.

برنامج عمل خاص بإدارة أزمة الجفاف.

إنّ حدة الجفاف تختلف من منطقة إلى أخرى ومن فصل إلى آخر ويختلف تأثيرها من نشاط اقتصادي إلى آخر، لذلك هناك حاجة لتقسيم المناطق في جداول بحسب درجة وشدة جفاف والوضع الديمغرافي والاقتصادي والفترة الزمنية لكل مرحلة جفاف، بالإضافة إلى توفير إحصائيات مائية سنوية دورية بالتوازي مع الاحصائيات الخاصة بعدد السكان والماشية والمساحات الزراعية المروية وتقدير الاحتياج المائي اللازم بغرض معرفة معدل الاستهلال السنوي التقريبي للمياه ومقارنته بالمعدل التقريبي للمياه المتاحة، وتحديد المناطق التي تحتاج إلى الدعم المائي بشكل عادل، يبدو أن ما تم ذكره يحتاج إلى وجود مركز دراسات وطني خاص بأبحاث الجفاف في المنطقة من شأنه أن يوفر الوعي ودعم السياسات الكفيلة بإدارة أزمة الجفاف، وتأمين خطط للتعامل مع تداعيات الجفاف والإنذار المبكر لأخذ الاحتياطات اللازمة، ووضع معايير لتوصيف شدة الجفاف وتقديم المقترحات المناسبة بهذا الخصوص لكل من السلطتين، التنفيذية والتشريعية، للإدارة الذاتية. لا يمكن تحقيق الإدارة الرشيدة للموارد المائية من دون إصدار تشريعات وقوانين مناسبة تضبط عمليات الاستهلاك، خاص في مجال حفر الآبار وتنفيذ المشاريع الخاصة بتنمية البنية التحتية المائية والحماية من الهدر في مختلف القطاعات الصناعية والتجارية والترفيهية والزراعية والخدمية؛ ودعم الاقتصاد التشاركي الإيكولوجي، ومنح تراخيص لمشاريع اقتصادية خاصة بتنمية الموارد المائية في المنطقة وتقديم قروض بدون فائدة إذا لزم الأمر.

معالجة العوامل المفاقمة

يبقى العامل البشري الأكثر تأثيراً في تفاقم تداعيات الجفاف، قد يكون ذلك بسبب ضعف الوعي أو الجشع أو قلة الإمكانيات أو سوء الإدارة أو عدم الاهتمام بالقوانين ذات الصلة بهذا الأمر، حيث يتعامل المجتمع مع المياه كقطاع استثماري مجاني، لذلك هناك حاجة لتطوير سياسة التعامل مع أزمة الجفاف؛ فمثلاً إشراك أصحاب المصالح في وضع السياسات المائية وإدارة أزمة الجفاف

ضروري لإيجاد وعي وفهم لأسباب وأخطار الجفاف، وقبول المواطنين للقرارات المتعلقة بإدارة الأزمة والتقيد بها والتجاوب معها الأمر الذي من شأنه أن يخفف من حدة الجفاف.

بشكل عام هناك ثلاثة مصادر رئيسية مسؤولة عن تفاقم أزمة الجفاف في المنطقة، وهي: الزراعة وتربية الماشية- النمو السكاني- الظروف الأمنية التي فرضتها الأزمة.

بالنسبة للزراعة وتربية الماشية، يعتمد معظم سكان المنطقة على الزراعة وتربية الحيوان كمصدر رئيسي لتأمين الدخل المادي، إلا انّ الأنشطة الممارسة في هذين القطاعين لا يتوافق مع الظروف التي يفرضها الجفاف، من خلال زراعة مساحات كبيرة بغرض تأمين المزيد من الأرباح واستخدام أساليب ري تقليدية كالري بالغمر فيحدث استنزاف كبير للمياه الجوفية وهناك من يسرق المياه المخصصة للشرب من شبكات النقل لري مزروعاته أو لسقاية حيواناته؛ إن أزمة الجفاف تفرض تحديد المساحات المزروعة إلى الحدود التي تحقق الاكتفاء الذاتي واستخدام تقنيات الري الحديثة وزراعة بذور مقاومة للجفاف للسنوات اللاحقة التي يتوقع أن يزداد حدة الجفاف فيها وتأمين التسويق اللازم لمحاصيل هذه البذور، وكذلك زراعة أصناف الأشجار المثمرة المقاومة نسبياً للجفاف وتشجيع الزراعة في البيوت البلاستيكية وتشجيع رعاية الماشية في المساحات المغلقة والمظللة يندرج في هذا السياق أيضاً؛ إنّ هذه الأمور من شأنها أن تحقق نسبياً الاستخدام الفعال للمياه ويحقق توازناً بين معدل استخدام المياه والمردود المادي العائد من المحصول.

هناك تزايد في النمو السكاني في مناطق شمال وشرق سوريا من خلال ارتفاع معدل المواليد ونزوح الآلاف من السكان إلى المنطقة كونها الأكثر أماناً نسبياً، وقد أدى ازدياد الكثافة السكانية في بعض المدن كمدينة الحسكة على سبيل المثال إلى تفاقم تداعيات أزمة الجفاف. مع ازدياد معدلات النمو السكاني وعدم تجانس التوزع السكاني تزداد الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والخدمية التي تعتمد بنسبة كبيرة على المياه الأمر الذي يتسبب بتدهور واستنزاف موارد المياه المحلية المتاحة. لذلك فإنّ زيادة الوعي بضرورة ترشيد استخدام المياه ومنع هدرها، وتعزيز الرؤية للمياه كمصدر معيشي وجودي محدود لا كمصدر للرفاهية، واعتماد التقنيات الحديثة في البناء والأنشطة الإنتاجية والخدمية التي تقلل استخدام المياه من شأنها أن تخفف من تفاقم حدة الجفاف.

من ناحية أخرى تبدو الظروف الأمنية التي فرضتها الأزمة تلقي بظلالها على تفاقم أزمة الجفاف، فتحكم دولة الاحتلال التركية بتدفقات نهري دجلة والفرات وبمحطة مياه علوك يلعب دوراً سلبياً في تفاقم حدة الجفاف، كما أن التهديدات المستمرة بشن اعتداءات عسكرية على المنطقة ورفض النظام السوري تعامل الشركات العالمية مع الإدارة الذاتية بشكل مباشر يشكل عائقاً لمشاريع دعم البنية التحتية المائية. يبدو أن مواجهة هذا الأمر يحتاج إلى حوار داخلي سوري ونشاط دبلوماسي على المستوى الدولي لإلزام الدولة التركية باتفاقيات حقوق الإنسان واتفاقيات المياه وجذب الشركات العالمية العاملة في القطاع المائي.

شراء المياه

أن تدهور الموارد المائية في الشرق الأوسط سيؤدي إلى تحول المياه إلى سلعة نفيسة على غرار البترول، وبالفعل هناك دول تضطر لشراء حاجتها من المياه من الخارج، فمثلاً اتفق الأردن مؤخراً مع إسرائيل على شراء 50 مليون متر مكعب من المياه؛ حالياً يضطر الكثير من المواطنين في روجآفا إلى شراء المياه من أصحاب الصهاريج والآبار ومن المحلات التجارية من أجل تأمين احتياجاتهم اليومية من المياه الأمر الذي يضيف عبئاً اقتصادياً آخر على كاهل المواطن، وهناك استيراد للمياه المعبئة في عبوات مغلقة في سياق عمليات الاستيراد التجاري من خارج مناطق الإدارة الذاتية. لذلك هناك حاجة لسياسة اقتصادية مستقبلية في حال الاضطرار إلى شراء المياه بكميات كبيرة بسبب استمرار الجفاف في المنطقة، وقد يكون المصدر تركيا أو المناطق الخاضعة لسلطة النظام السوري أو العراق أو غيرها، بالتأكيد سيكون لهذا الأمر تداعياته على الاقتصاد المحلي عبر التسبب بارتفاع الأسعار وانكماش الزراعة وتربية الحيوانات إلى جانب التعرض لابتزازات سياسية ستحول الماء إلى ورقة ضغط.

أخـــــــيراً.

إنّ إدراك تأثير ظاهرة الجفاف على الوضع الجيوسياسي للمنطقة، وامتلاك رؤية عامة وواضحة عن مفهوم هذه الظاهرة وأسبابها وتداعياتها والعوامل التي تزيد من حدتها، والبحث عن الحلول الممكنة لمواجهة تداعياتها على الأمن الوطني للمنطقة من شأنه أن يساعد أصحاب القرار في صياغة سياسة دفاعية مناسبة في هذا المجال؛ ويبقى تأسيس مركز أو مؤسسة خاصة بالأبحاث الخاصة بالجفاف في روجآفا من الأمور المبدئية والرئيسية في الوصول إلى قرارات وحلول، سليمة ومدروسة، ويمكن أن تدعم دبلوماسية الإدارة الذاتية من خلال التواصل مع مختلف الحكومات والمنظمات الدولية في إطار الدراسات والتقارير والإحصائيات والأنشطة الحوارية التي ستقوم بها بخصوص هذه الظاهرة؛ فأسوء الاحتمالات تشير إلى تفاقم هذه الظاهرة بشكل متصاعد في السنوات المقبلة بالتزامن مع ازدياد اعداد السكان وبروز تحديات اقتصادية كازدياد معدل البطالة وضعف المواسم الزراعية و تناقص المنتجات الحيوانية وازدياد التصحر وصعوبة تأمين الخدمات للمواطنين كل هذه الأمور وغيرها تخلق بيئات منفتحة على الفكر المتطرف والعنف، وتضع الإدارة الذاتية أمام امتحانات صعبة ومن المفروض أن تتجه إلى اتخاذ تدابير وإجراءات لازمة لمنع تفاقم تداعيات الجفاف على الأمن الوطني للمنطقة.

هجرة المكونات القومية إلى الرقة

محمد العزو

مدير المتحف الوطني بالرقة

الرقة في ظل الحكم العثماني:

ظل حكم "المماليك" مستمراً في الجزيرة الفراتية و"الرقة" حتى عام (١٥١٦-٩٢٣) هجري، حيث هزم السلطان "سليم الأول" المماليك في معركة "مرج دابق" وفيما بعد دخلت كامل الجزيرة الفراتية تحت حكم الدولة العثمانية وكانت "الرقة" ومدن الجزيرة مسكونة من قبل مكونات عربية وآشورية وكردية وسريانية ومردلية وغيرهم، وكان "للرقة" أهمية خاصة لمكانتها التاريخية الشهيرة، لذلك نجد أنه عندما صدر تشكيل الولايات سنة ١٥٦٦م جعلت "الرقة" إيالة مثل إيالة "بغداد" ومكونة من مجموعة مناطق وحواضر، ورغم أن السلطان العثماني "سليمان القانوني" أمر بإعادة إعمار "الرقة" لكن أمره ظل كلاماً فقط وهي الدولة المثقلة بالمشاكل والهموم وفي البداية، أخفقت الدولة العثمانية أيضاً في توطين وإسكان العشائر المختلفة في تكوينها، حيث يذكر الرحالة "تشيزني" الذي زار مدينة "الرقة" سنة ١٨٣٧ م أنه لم يصادف أي قرية ثابتة دائمة، ويصف المعجم الألماني الجغرافي مدينة "الرقة" في عام ١٨٥٥ م بأنها منطقة مشهورة بالحبوب والثمار والغزلان وأنه ليس فيها من حضري قبل١٨٥٠م ويستمر الوصف بان مدينة "الرقة" عبارة عن خرائب تحيط بها السهول الزراعية ذات الخيرات الوفيرة، لذلك وكما أسلفنا أنه بعد الغزو المغولي "للرقة" ظلت المدينة خرابا موحشا قرونا طويلة.. وفي عام ١٨٦٣م ونتيجة خوف الدولة العثمانية على مصالحها الخاصة قام العثمانيون المحتلون بإنشاء المخفر العثماني الجديد للولاية لحفظ الأمن مما حدا بالكثير من العوائل العربية وعشائر أخرى مثل الكردية والمردلية والآشورية والسريانية وعائلات أرمنية وشركسية وشيشانية وتركمانية الهجرة إلى "الرقة" منذ عام ١٩٠٠م ومحاولة السكن داخل الأسوار الأثرية مع المكونات التي سبقتهم في السكن في المدينة وأريافها بعد قدوم عوائل وأسر عربية وغيرها من تركيا والموصل ونصيبين وشرق سوريا بعد عام ١٨٦٠م واستقرارهم في "الرقة" حول المخفر الجديد إذ كانوا هم الأوائل الذين سكنوا المدينة.. زار "الرقة" مجموعة من الرحالة الأجانب من أمثال "الليدي آن بلينت" و"زاخاو" وآخرون، حيث تشير "الليدي آن بلنت" التي زارت "الرقة" ١٨٧٨م إلى وجود خيام (بيوت شعر) شوايا وبدو رحل كانت مسكونة، أما الرحالة الدكتور "زاخاو" الذي زار "الرقة" عام ١٨٧٩م، فقد وصلنا من تقاريره وصفا دقيقا لجميع مناحي الحياة في "الرقة" إذ يقول (عدد السكان الحالي للرقة لا يتجاوز المائة نفس من بينهم القائم مقام والضابطة (الشرطة) وكانوا من منشأ بدوي عددهم بين ٣٩-٤٠ رجلاً كما شاهدت عددا من العطارين المهاجرين من حلب شاهدت ما بين أربع إلى خمسة عشرَ مسكناً

بائساً في الجنوب الغربي والعدد نفسه على مقربة منها عن السور الجنوبي ومن السور، يستطيع الإنسان أن يرى الارض المنبسطة التي تؤدي إلى سفينة عبور "الفرات" وقد كان أهل "الرقة" يتكلمون اللهجة العامية للصحراء العربية أنها مرحلة واضحة تصور طفولة "الرقة" المبكرة في مرحلة الأعمار والاستقرار.

المكونات القومية التي سكنت "الرقة" بعد النصف الثاني من القرن ١٩م بعد عام ١٨٥٠م هي **المكون العربي.**

وهو المكون الأكثر تواجدا وأسبقية، ويتكون هذا المكون من عدد كبير من القبائل والعشائر العربية التي هاجرت إلى أرض "الرقة" من "العراق" عبر "نصيبين" وسكنت في أريافها وفي المدينة بدءاً من القرن السابع عشر الميلادي وما بعد، وكانت العشائر الكبيرة كقبيلة "البوشعبان" ومن معها من عشائر أخرى قد سكنوا في أرياف "الرقة" ومحيطها ومارست هذه العشائر نشاطها الرعوي والزراعي ومارست طقوسها التراثية والثقافية المستمدة من الموروث العربي القديم والزاخر بشتى أشكال وألوان الشعر والتقاليد والعادات. وكل أشكال الفلكلور الشعبي. وأنني أكتفي بهذا القدر من الكلام لأن الحديث عن المكون العربي يطول ويطول

المكون الكردي

الكرد هاجروا إلى الرقة من الشمال، لأسباب تمت الإشارة إليها وسكنوا حياً خاصاً بهم يقع شمال المدينة يسمى بحي الأكراد بعد توسع السكن خارج أسوار الرقة، والأكراد شعب آري قديم، حافظ على استمرارية وجوده عبر العصور التاريخية، وقد لمع نور وجوده في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد (الحضارة الميتانية) وأثناء مسيرتهم التاريخية عاشوا مع العرب والأشوريين والأراميين وغيرهم من الأقوام السامية الأخرى، فصقلوا شخصيتهم وتكونت لهم صفات ثقافية ونفسية ميزتهم عن السلالات الأخرى، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشعب الكردي يمتلك شعوراً عالياً بالانتماء إلى القبيلة، وقد امتاز هذا الشعب بالصدق والاخلاص والاحترام اللامتناهي للمرأة والثأر وهم يشتركون مع العرب في حبهم وتقديرهم للضيف وهم من أهل الشجاعة والإقدام لا يهابون الموت، وللكرد صفات امتازوا بها في حياتهم الاجتماعية القبلية منها.

تقديرهم والتفافهم حول القائد والزعيم ـ

ـ الطاعة المطلقة لرؤسائهم كون الرؤساء عندهم فرسان وأبطال مقاتلون

ـ هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام في بعض مفاهيمها قد تبدو لبعض الكرد فيها شك وهي أن الكرد في منطقة الجزيرة الفراتية ومنها الرقة والرها وديار بكر يتكلمون (اللهجة الهورامية أو الزازائية) بالإضافة إلى لهجة (الكوراني) (عبد الحميد الحمد.محمد.عشائر الرقة والجزيرة. دمشق ٢٠٠٣م) والاكراد بشكل عام في الجزيرة الفراتية وفي الرقة معظمهم مسلمون، أما الأمراء منهم وطبقاً لما ورد في كتاب (شرف ناما) فهم من أصول أزيدية حيث أنهم ظلوا يتمسكون بعاداتهم القديمة حتى بعد إسلامهم.

-*تواجد الأكراد في الرقة، بعد معاهدة (كوجك كينارجة) سنة (١٧٧٤م) وبدأت تظهر طموحات بتكوين إمارات خاصة ببعض الشخصيات ومنهم المدعو(علو باشا السويركي) وعندما أوكلت الدولة إلى علو باشا أمر إصلاح أحوال ولاية أورفا، لكنه لم يفلح في ذلك فرحل عنها في عام (١٧٩٦م) بمعاونة والي الرقة وأورفا (تيمور باشا بن كلش عبدي) تيمور باشا وهو من أهالي بلدة (قبا حيدر) الأورفلية وعين على ولاية حلب عام (١٧٨٧م) لكنه سرعان ما عاد إلى آمد ثم أنه فكر في تكوين جيش من العرب والكرد باسم (هزار ملة) وأصبح يعرف بتيمور المللي منذ عام ١٧٩١ م وخص نفسه بمجلس شيوخ سمي ب "كم "نقش"أي مجموعة الأختام المؤلفة من ثلاث فصائل هي:

ـ الأكراد من شيوخ الشيخان.

.ـ ومن الازيدية ومن وجهاء السرفيان والخالدان والدنادان ومروان وعلى رأسهم عائلة حسين قنجو

ـ ومن العرب الجبور والشمطة والعدوان والقراجة وغيرهم من البقارة والكواويس.

وعلى رأسهم عائلة (الأوسو) أكراد الرقة وحدث أن كان هناك مشاكل بين تيمور باشا والدولة العثمانية وعلى إثرها هرب تيمور باشا إلى الجبال تاركاً عبء الجيش على أخيه إبراهيم باشا الذي تصالح مع الجيش العثماني وعلى أثر وساطة حاكم ماردين آنذاك تم العفو عن تيمور باشا، وفي مرحلة الإعمار والإسكان في الرقة بعد عام ١٨٦٠م حصراً بعد عام ١٩١٥م هاجرت مجموعات من الكرد إلى جانب الأكراد الملية إلى الرقة، والكرد الذين هاجروا إلى الرقة مؤخراً ينتمون في أغلبيتهم الى (قبيلة الملية. حلف البرازية. عشائر الكيتكان. والبيجان. والبيشالتيان. والعيلدين. وسوركليان)، والكرد في الرقة أسهموا بالتعاون مع أخوتهم من العرب والمكونات الأخرى في بناء الرقة وكانوا يتوافدون من شمال الرقة، حيث بلغ عدد العائلات الكردية في الوقت الحالي ما بين (٢٨٠٠-٣٢٠٠) عائلة تقريباً والعدد يزداد بسبب العدوان التركي على مناطق الشمال السوري وكان الأكراد من المخلصين في عملهم وهي ميزة يشهد لها الجميع وحدث تزاوج ومصاهرة بين الكرد والعرب من أهل الرقة.

وقد مارس الكرد في الرقة طقوسهم وثقافتهم اللامادية من فلكلور وأعياد وعادات وتقاليد وحافظوا عليها مثل طقوس الأعراس وهي تتقاطع قليلاً مع طقوس الأعراس في الرقة. تاريخياً مارس الشعب الكردي أدبه الشعبي المدون، ويعد ملا أحمد جزيري الذي عاش في القرن الحادي عشر ميلادي (١٠٥٥- 975م) أحد المبكرين في وضع البداية لتدوين وكتابة الثقافة الكردية وأرشفتها، وكان للمغنين والرواة الكرد الفضل الأكبر في الحفاظ على موروثهم الثقافي اللامادي الشعبي من الضياع والاندثار ومن الأسماء اللامعة في الحفاظ على الموروث الثقافي الكردي أذكر راوي القصة الحكواتي (جبرو كبيج) والمغني (دنكبيج) فهما الرائدان في الأدب الشفهي الكردي لأنهما ينقلان صورة حقيقية ومتنوعة عن بلاد عانت الكثير من سيطرة الطبقات الحاكمة ومن النزاعات العشائرية، وكان التراث والأدب الكردي مرآة عكست روح الشعب الكردي المكافح ومزاجه وتاريخه، وفي العصر الحديث برزت أسماء لامعة في الرقة من الشعراء وعباقرة الفن

التشكيلي وعلى رأسهم الشاعر عمر بوزان والفنان العالمي عنايت عطار والفنان التشكيلي علي شيخو والفنان التشكيلي المتألق خليل حمسورك

المكون الأرمني

الأرمن أثانوس شعب له خصائصه اللغوية والتكوينية والنفسية ومكونه التاريخي والحالة الجغرافية الخاصة التي تميزه عن بقية الشعوب المحيطة بهم كشعب.

لقد سجل الأرمن حضوراً تاريخياً لاسيما في عهد الملك ديكران الكبير (٥٥-٩٤) قبل الميلاد ففي عهده استقلت أرمينيا عن الدولة الرومانية ولعظمة هذا الملك أطلق عليه (شيشرون) ملك آسيا العظيم وقم امتد نفوذ الملك ديكران إلى أنطاكية وحران وأورهي ونيكفوريون (الرقة) وحين نشأت الدولة العثمانية انضوى الأرمن تحت الحكم العثماني.

-*أسباب هجرة الأرمن إلى الرقة والشمال السوري.. كان الأرمن قد هُجروا إلى الشمال السوري مثلما هُجَر الكرد والسريان والشركس وغيرهم، وكانت أسباب تهجير الأرمن أنه في عام ١٩١٢ م عقد مؤتمر القسطنطينية فتقرر تقسيم المقاطعات الأرمنية السبع الى قسمين اثنين القسم الاول: يضم المقاطعات التالية طرابزون وسيواس وخربوط وديار بكر، أما القسم الثاني: فيضم وان وتبليس وأرضروم وكانت تركيا قد دخلت الحرب العالمية الى جانب ألمانيا وأعلنت الأحكام العرفية وبدأت باعتقال الأرمن وقتلهم وسجنهم ولم تسلم من هذا العنف والقتل المكونات الأخرى مثل العرب والكرد والسريان وغيرهم، وشمل التهجير كل من كان له القدرة على حمل السلاح في حملة الأتراك المسعورة والمشؤومة، ولقد تم تحديد مسار السوقيات أو قوافل الموت عبر طريقين

- طريق صحراوي يبدأ من تبليس ووان وديار بكر الى رأس العين/ سري كانييه.
- الطريق النهري عبر الفرات بدءاً من ملطية وبراجيك والرقة إلى مدن الجزيرة الفراتية

وكان عدد العائلات الأرمنية التي وصلت إلى مدينة الرقة بحدود ٧٠ عائلة أرمنية حيث تم استقبالهم وتسكينهم مع عائلات رقاوية، ثم فيما بعد الجميع امتلكوا مقاسم وشيدوا عليها بيوتاً خاصة بهم ويتمركز تواجدهم الحالي في منطقة الثكنة وشارع الوادي وشارع الكنيسة، وقد مارس الأرمن طقوسهم وثقافتهم والاحتفال بأعيادهم بكل حرية وأمان، حيث كان لهم في المدينة كنيستان هما كنيسة سيدة البشارة وكنيسة الشهداء اللتان دُمرتا من قبل تنظيم داعش، والأرمن مثل أخوتهم الكرد ساهموا في بناء مدينة الرقة فكان منهم تجار وأصحاب ورش ميكانيك سيارات وباعة أقمشة وألبان وأجبان، ويسجل للأخوة الأرمن في أنهم أول من شرع في لعبة كرة القدم في الرقة ومن أوائل من افتتح أماكن للتصوير الضوئي، وكان منهم كتاب وأدباء من أمثال الباحث آرسين كيومجيان وهكذا عاش الأرمن والسريان والكرد والعرب والشركس في الرقة الحوراء أخوة متعاونين في أمن ومحبة وسلام، لكن في ظل سيطرة تنظيم داعش على المدينة قاموا بفرض الجزية على الأرمن ومضايقتهم مما دفع بأغلبهم للهجرة من مدينة الرقة إلى حلب والدول الأوروبية..

هجرة الشركس الى الرقة

وصل الشركس والشيشيان إلى الرقة في مطلع عام ١٩٠٦م، حيث وصلت إلى بلدة الرقة حينها حوالي خمسين عربة تحمل مهاجرين من بلاد القفقاس واستقبلهم الأهالي بالترحاب ثم اقتطعت لهم الدولة الأرض للسكن مساحتها خمسون دونما في المنطقة الغربية الجنوبية من بلدة الرقة خارج السور الأثرى، وكونهم يعتنقون الديانة الإسلامية أُمر ببناء جامع لهم في حيَهم المذكور ومازال يحمل اسم جامع الشراكسة، رغم هجرة بعض العائلات إلى مسقط الرأس بعد زوال النظام الشيوعي إلا أنه مازالت هناك أعداد قليلة من العائلات الشركسية تسكن الرقة في حي ضمن المدينة يعرف باسم حي الشراكسة يعيشون بأمان وسلام مع باقي المكونات الأخرى..

المكون الآشوري والسرياني في الرقة

رغم قلة عدد العوائل الآشورية والسريانية في مدينة الرقة، إلا أنه كانت هناك بعض العائلات القليلة من هذين المكونين قدموا إلى الرقة في بداية القرن العشرين ميلادي إبان الحرب العالمية الثانية والجدير بالذكر أن سكان مدينة الرقة قبل فتحها في العصر الإسلامي كان سكانها جلهم من العرب السريان ومن الآشورين وتاريخياً تعتبر الرقة من أكثر المدن السورية التي تحتوي على الأديرة السريانية ولعل دير مار زكا أشهرها وكذلك دير العواميد، أما الثقافات العريقة للآشوريين والسريان والكلدانين فهي مجموعة العادات والتقاليد والأساليب المعيشية الخاصة بالشعب الآشوري والسرياني والكلداني، وتعتبر ثقافة هذه المكونات السورية الثلاث قريبة من ثقافات شعوب الشرق الأوسط الأخرى، سيما وأن هذه الشعوب كانت تدين بالمسيحية فجاءت ثقافاتها متأثرة بالدين المسيحي وتعاليم السيد المسيح عليه السلام وكان التماسك الاجتماعي والسلم الأهلي في الرقة بين كافة مكونات من أرمن وشركس وعرب وكرد يجسد التعايش السلمي في مختلف جوانبه لمفهوم الانسجام بين أبناء المجتمع الرقي على اختلاف الانتماءات القومية والدينية والمذهبية واتجاهاتهم وأفكارهم، ولا شك أن ما جعل هذا الترابط المتين هو وجود أواصر جمة ومشتركة مثل الأرض والبيئة والمصالح والمصير المشترك ومبادئ الاحترام المتبادل لحرية الرأي والسلوك والتفكير بعيدا عن التهميش والإقصاء والتسلط والعنف أنه التماسك المجتمعي والتعايش السلمي الأهلي الذي عرفته الرقة طيلة تاريخها القديم وحتى في مرحلة من الخراب والدمار إلى العمار والاستقرار في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وهكذا استطاعت جميع هذه المكونات أن تنهض بالرقة إلى مصاف المدن المتطورة وتعيد مجدها من جديد، ولكن وفي غفلة من الزمن هاجمت الجماعات المسلحة الرقة واستباحتها وقامت قوات سوريا الديمقراطية والتحالف الدولي بالحرب على هذه القوى الظلامية وطردها من المدينة، وكانت النتيجة أن دمرت الرقة تدميراً تجاوز الحدود الإنسانية، واليوم فأهم مؤشر للاستقرار الأهلي وتحقيق العدالة بين كافة المكونات القومية في الرقة هو الحصول على نصيب عادل من الخدمات العامة وتفعيل مؤسسات المجتمع المدني والعمل على تنمية روح التماسك بين أفراد المجتمع المتنوع وترسيخ التعايش السلمي وهكذا للرقة سراج منير هو تاريخها الجميل.

المصادر:

كوفان كوفان - جاك الوحدات الحضاريه في بلاد الشام ط-دمشق 1984م.ت. أ قاسم طوير

الرقة درة الفرات، مجموعة من الباحثين. ط. دمشق /1992/

-الحموي، ياقوت ،معجم البلدان. ط. مصر |1908|م.المجلد/4

عياش، عبد القادر حضاره وادي الفرات، دمشق /1984/ م

-سليم عادل عبد الحق، الحلويات الاثريه السوريه. المجلد. 13./ 1962.م

عبد الحميد الحمد، محمد، عشائر الرقه والجزيرة، دمشق. 2003

محمد عبد الحميد الحمد، تاريخ الرقة الحضاري. دمشق 2009م.

المحتوى

عقيدة القتال لدى الكرد 5

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

الإرهاب، التطرف والفوضى الخلاقة 40

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

المعارضة السورية 107

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

السياسة الدفاعية للمعارضة السورية الإسلامية 127

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

الجفاف في غرب كردستان 140

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

هجرة المكونات القومية إلى الرقة 160

محمد العزو